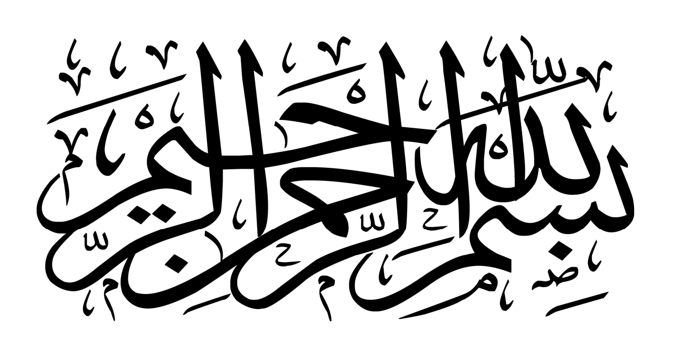
جذور أزمة المسلم المعاصر

الجانب النفسي

غَازي التوبَة

جذور أزمة المسلم المعاصر

الجانب النفسي


بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾ [النساء: ١].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ٧٠ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

أما بعد:

فقد انهار البناء الإسلامي في العصر الحاضر، وتمثل هذا الانهيار في إزالة معالم الخلافة الإسلامية، وفي استبدال الشرع الإسلامي بقوانين وضعية مستقاة من تشريعات فرنسا وسويسرا وانكلترا، وفي الاستعمار الذي شمل معظم البلاد الإسلامية البعيدة منها والقريبة: أندونيسيا، الفلبين، ماليزيا، الهند، مصر، الجزائر، المغرب، تونس، ليبيا، بلاد الشام إلخ...، وفي تجزئة كثير من أقطارها الموحدة من

قبل المستعمر الأجنبي، وفي الانبهار بالحضارة الغربية من قبل قطاع كبير من الأمة، وفي الأخذ بعادات الغرب وتقاليده الضارة دون النافعة في كثير من المجالات.

لاشك أن هذا الانهيار كانت له أسبابه العميقة، ولا شك كذلك أن هذا الانهيار كانت له نتائجه علىٰ البناء النفسي للمسلم فأصبح قلقًا مضطرب الكيان، يعاني فقرًا في معنوياته، بعد أن كان ممتلئ النفس. يعاني زخمًا، وأغتناءً معنويًا.

ونحن من أجل أن نرصد هذا التحول في البناء النفسي عند المسلم سندرس العاملين اللذين بنيا المسلم في الأصل وفي البداية، وهما القرآن الكريم والسنة المشرفة، وكيفية صياغتها لبنائه النفسي، ثم سنوضح معالم البناء الثقافي الذي بنته الأمة حول ذينك العاملين، ثم سنبين التطورات التي مّر بها ذلك البناء الثقافي وكانت ثلاثًا هي:

الأول: تداخل مذهب الذرة مع البناء الثقافي.

الثاني: تداخل المنطق مع البناء الثقافي.

الثالث: تداخل الفلسفة مع البناء الثقافي.

وسنرصد ذلك التدخل من خلال فرعين ثقافيين هما: العقيدة والفقه، وسنوضح دور كل فرع في البناء النفسي للمسلم قبل التداخل وبعده، لنتلمس حجم التطور الذي شمل البناء النفسي للمسلم، وأحب أن أشير إلىٰ ملاحظتين في مقدمتي هذه قبل أن أنتقل إلىٰ صلب البحث وهما:

الأولىٰ: لقد تناولت تداخل البناء الثقافي مع مذهب الذرة والمنطق والفلسفة من خلال فرعين هما: العقيدة والفقه فقط، ولم أتناول فروعًا ثقافية أخرىٰ، مع أنه كان بإمكاني فعل ذلك لكنني عزفت عن ذلك خشية الإطالة والإملال، وآمل أن يتاح ذلك في دراسات أخرىٰ.

الثانية: أحسّ بأنه قد آن للدراسات الإسلامية أن تنتقل إلىٰ دراسة واقع المسلم المعاصر بشكل تفصيلي وفي مختلف المجالات مثل: واقعه النفسي، والاجتماعي، والاقتصادي، والعقلي... إلخ، ودراسة التطورات التي مرّ بها وخضع لها هذا الواقع من قبل علىٰ مدار التاريخ حتىٰ انتهىٰ إلىٰ ما انتهىٰ إليه، فسيكون لهذه الدراسات تأثير –في تقديري– علىٰ حسن توجيه المسلم المعاصر، وفي سلامة قيادته، وآمل أن تكون دراستي هذه عن الجانب النفسي خطوة علىٰ الطريق، وسأتبعها بدراسة أخرىٰ حول جوانب أخرىٰ إن شاء الله تعالىٰ.

والله من وراء القصد وهو الهادي إلىٰ كل خير.

عاملا بناء المسلم: القرآن والسنة ودورهما

في البناء النفسي للمسلم

إن أبرز عاملين بنيا المسلم، ورسخا وجوده، ومكّناه من مواجهة الكيان الحضاري للأمم الأخرىٰ هما: القرآن الكريم والرسول ﷺ، وهما اللذان استطاعا أن يملآ المسلم بكل الزخم النفسي لمواجهة الواقع، والعقلانية الحية وبالوجود الاجتماعي الفاعل.

ونحن سندرس هذين العاملين واحدًا تلو الآخر، كما سنبين دورهما في البناء النفسي للمسلم.

العامل الأول: القرآن الكريم ودوره في البناء النفسي للمسلم:

وحتىٰ نستطيع أن ندرس كيفية بناء القرآن الكريم للمسلم الصحابي لا بد من طرح الأسئلة التالية:

كيف قدم الرسول ﷺ إلىٰ الصحابة؟ وبماذا امتدح الله –تعالىٰ– كتابه؟ وبماذا وصفه الله –تعالىٰ– ورسوله؟ وبماذا أخبرنا الله –تعالىٰ– عن حقائقه؟ وبماذا حدثنا الله –تعالىٰ– ورسوله ﷺ عن آثاره؟

إنَّ الإجابة عن هذه الاسئلة ستكون توطئة لمعرفة كيفية بناء القرآن الكريم للصحابة.

لذلك فنحن سندرس القرآن الكريم ضمن الفقرات التالية: إلهية القرآن الكريم، صفاته، الحقائق التي يقوم عليها، آثاره.

إلهية القرآن الكريم ودورها في البناء النفسي للمسلم:

قدّم الرسول ﷺ القرآن الكريم علىٰ أنه كلام الله تعالىٰ، وأكّدت آيات القرآن أن القرآن وحي من الله إلىٰ محمد ﷺ، وأنه من تنزيل الله –عز وجل– في عدة مواضع، فقال تعالىٰ:

﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾[1].

﴿يسٓ ۝١ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ۝٣ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۝٤ تَنزِيلَ ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ۝٥ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ فَهُمْ غَٰفِلُونَ﴾[2].

﴿طه ۝١ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ۝٢ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ۝٣ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى﴾[3].

﴿نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۝٣ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ﴾[4].

﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ . . .﴾[5].

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَٰبَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُۥ عِوَجَا﴾[6].

---

(١) (سورة النمل: الآية ٦).

(٢) (سورة يس: الآيات ١-٦).

(٣) (سورة طه: الآيات ١-٤).

(٤) (سورة آل عمران: الآيتان ٣، ٤).

(٥) (سورة الأنعام: الآية ٩٢ و١٥٥).

(٦) (سورة الكهف: الآية ١).

﴿وَبِٱلۡحَقِّ أَنزَلۡنَٰهُ وَبِٱلۡحَقِّ نَزَلَ﴾[1].

﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ لَا رَيۡبَ فِيهِ مِن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[2].

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلۡكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ﴾[3].

إلخ...

وقد دارت معركة حامية حول إلهية القرآن الكريم فاضطربت أقوال المشركين فقالوا عنه: سحر، وقول بشر، وقول كاهن، وتعليم رجل أعجمي، وأساطير الأولين، وشعر إلخ...

وقد تعرض القرآن الكريم هذه الأقوال فنقل اتهام الوليد بن المغيرة للقرآن بأنه سحر وقول بشر، فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ۝١٨ فَقُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝١٩ ثُمَّ قُتِلَ كَيۡفَ قَدَّرَ ۝٢٠ ثُمَّ نَظَرَ ۝٢١ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ۝٢٢ ثُمَّ أَدۡبَرَ وَٱسۡتَكۡبَرَ ۝٢٣ فَقَالَ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ يُؤۡثَرُ ۝٢٤ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا قَوۡلُ ٱلۡبَشَرِ﴾[4].

﴿قَالُواْ مَا هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّفۡتَرٗى﴾[5].

كما نقل القرآن الكريم عن المشركين اتهامهم لكتاب الله بأنه من أساطير

---

(١) (سورة الإسراء: الآية ١٠٥).

(٢) (سورة السجدة: الآيتان ١، ٢).

(٣) (سورة غافر: الآيتان ٢، ٢).

(٤) (سورة المدثر: الآيات ١٨ – ٢٥).

(٥) (سورة القصص: الآية ٣٦).

الأولين فقال تعالىٰ: ﴿يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[1].

﴿قَالُواْ قَدۡ سَمِعۡنَا لَوۡ نَشَآءُ لَقُلۡنَا مِثۡلَ هَٰذَآ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[2].

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم مَّاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمۡ قَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[3].

﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٱكۡتَتَبَهَا فَهِيَ تُمۡلَىٰ عَلَيۡهِ بُكۡرَةٗ وَأَصِيلٗا﴾[4].

﴿إِذَا تُتۡلَىٰ عَلَيۡهِ ءَايَٰتُنَا قَالَ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾[5].

ولقد اتهم المشركون الرسول بأن بشرًا يعلمه فقال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدۡ نَعۡلَمُ أَنَّهُمۡ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٞۗ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلۡحِدُونَ إِلَيۡهِ أَعۡجَمِيّٞ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيّٞ مُّبِينٌ﴾[6].

وقد اتهم المشركون محمدًا ﷺ بأنه قد افترىٰ هذا القرآن علىٰ الله –تعالىٰ– فقال تعالىٰ:

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۚ بَلۡ هُوَ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوۡمٗا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٖ مِّن قَبۡلِكَ

---

(١) (سورة الأنعام: الآية ٢٥).

(٢) (سورة الأنفال: الآية ٣١).

(٣) (سورة النحل: الآية ٢٤).

(٤) (سورة الفرقان: الآية ٥).

(٥) (سورة القلم: الآية ١٥).

(٦) (سورة النحل: الآية ١٠٣).

﴿لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ﴾[1].

﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾[2].

﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلِ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾[3].

وقد ردَّ القرآن الكريم عليهم بأن محمدًا ﷺ معروف لديهم، وقد صاحبهم أربعين سنة، ولقبوه بالأمين، ولم يعهدوا عليه كذبًا أو خيانة، فكيف يتنكرون لحكمهم السابق ومعرفتهم القديمة، ويعبر عن ذلك بقوله «صاحبكم»، فقال تعالىٰ: ﴿مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾[4].

﴿وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ۝٢٢ وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ۝٢٣ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ۝٢٤ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۝٢٥ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ۝٢٦ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[5].

ثم طلب المشركون أن يبدّل شيئًا من الآيات القرآنية، فعلّمه الوحي أن يقول لهم إنني لا أستطيع أن أبدّل شيئًا منه؛ لأنني متبع للوحي وأخاف ربي إن عصيته في أي فعل، فقال تعالىٰ:

---

(١) (سورة السجدة: الآية ٣].

(٢) (سورة الأحقاف: الآية ٨].

(٣) (سورة الأنبياء: الآية ٥).

(٤) (سورة النجم: الآيتان ٢-٣).

(٥) (التكوير: الآيات: ٢٢-٢٧).

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَاتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآئِ نَفْسِىٓ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّى عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ قُل لَّوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوْتُهُۥ عَلَيْكُمْ وَلَآ أَدْرَىٰكُم بِهِۦ ۖ فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِّن قَبْلِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[1].

ثم بيّن لهم القرآن الكريم أنَّ محمدًا ﷺ صادق في نقله عن ربه، وأنه لو حاول أن يتقوّل علىٰ الله لعاقبه –تعالىٰ– وقطع منه الوتين، قال تعالىٰ:

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ﴿٤٦﴾ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَٰجِزِينَ ﴾[2].

وكان الله –تعالىٰ– قد أقسم قبل ذلك علىٰ أن هذا القرآن ليس بقول شاعر ولا بقول كاهن، إنما هو قول الله –تعالىٰ– وتنزيله سبحانه وتعالىٰ:

﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٨﴾ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٤٠﴾ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ ﴿٤١﴾ وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٤٢﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[3].

وقد نفت الآية أن يكون الرسول شاعرًا والقرآن شعرًا فقال تعالىٰ:

---

(١) (سورة يونس: الآيتان ١٥، ١٦).

(٢) (سورة الحاقة: ٤٤-٤٧).

(٣) (سورة الحاقة: الآيات ٣٨- ٤٣).

﴿وَمَا عَلَّمۡنَٰهُ ٱلشِّعۡرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا ذِكۡرٞ وَقُرۡءَانٞ مُّبِينٞ﴾[1].

وقد ردّ القرآن الكريم علىٰ أقوالهم المضطربة بأن يأتوا بحديث مثله أو بعشر سور مفتريات، أو بسورة مثله فقال تعالىٰ:

﴿فَلۡيَأۡتُواْ بِحَدِيثٖ مِّثۡلِهِۦٓ إِن كَانُواْ صَٰدِقِينَ﴾[2].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِعَشۡرِ سُوَرٖ مِّثۡلِهِۦ مُفۡتَرَيَٰتٖ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ١٣ فَإِلَّمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَكُمۡ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَآ أُنزِلَ بِعِلۡمِ ٱللَّهِ وَأَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾[3].

﴿أَمۡ يَقُولُونَ ٱفۡتَرَىٰهُۖ قُلۡ فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّثۡلِهِۦ وَٱدۡعُواْ مَنِ ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣٨ بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ وَلَمَّا يَأۡتِهِمۡ تَأۡوِيلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[4].ثم بيّن الله –تعالىٰ– أن القرآن الكريم في اللوح المحفوظ فقال جلّ وعلا: ﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ٧٨ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ﴾[5].

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ ٢١ فِي لَوۡحٖ مَّحۡفُوظِۭ﴾[6].

---

(١) (سورة يس: الآية ٦٩).

(٢) (سورة الطور: الآية ٣٤).

(٣) (سورة هود: الآيتان ١٣، ١٤).

(٤) (سورة يونس: الآيتان ٣٩، ٣٩).

(٥) (سورة الواقعة: الآيات ٧٧-٧٩).

(٦) (سورة البروج: الآيتان ٢١، ٢٢).

كما بيّن الله -تعالىٰ- أن هذا الكتاب وحي من الله فقال تعالىٰ:

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[1].

وبيّن صور الوحي فقال تعالىٰ:

﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ ۚ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ﴾[2].

وقد استغرب المشركون أن يوحي الله إلىٰ بشر فقال تعالىٰ:

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ النَّاسَ وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنَّ لَهُمْ قَدَمَ صِدْقٍ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ قَالَ الْكَافِرُونَ إِنَّ هَٰذَا لَسَاحِرٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

فردّ القرآن الكريم عليهم بأن الله أرسل رجالًا أوحي إليهم قبل ذلك، قال تعالىٰ:

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم مِّنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ ۗ ﴾[4].

وقد بيّن القرآن الكريم أن علاقة جبريل -عليه السلام- بالرسول ﷺ هي علاقة تلقٍ، فقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ۝١٩ ذِي قُوَّةٍ عِندَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ۝٢٠ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ۝٢١

---

(١) (سورة النجم: الآيات ٢-٤).

(٢) (سورة الشورى: الآية ٥١).

(٣) (سورة يونس: الآية ٢).

(٤) (سورة يوسف: الآية ١٠٩).

وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴾[1].

﴿ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ﴿٥﴾ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ﴿٦﴾ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٧﴾ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ﴿٨﴾ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ﴿٩﴾ فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ ﴿١٠﴾ مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰٓ ﴿١١﴾ أَفَتُمَٰرُونَهُۥ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ﴿١٣﴾ عِندَ سِدْرَةِ ٱلْمُنتَهَىٰ ﴿١٤﴾ عِندَهَا جَنَّةُ ٱلْمَأْوَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ يَغْشَى ٱلسِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾[2].

ومع أن عملية الوحي غيبية بين محمد ﷺ وجبريل –عليه السلام– ومع ذلك فقد نقلت كتب الأحاديث تفصيلات عن الوحي وكيفية حدوثه، «فقد سأل الحارث بن هشام الرسول ﷺ فقال: يا رسول الله كيف يأتيك الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أحيانًا يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحيانًا يتمثل لي الملك رجلًا فيكلمني فأعي ما يقول**»، قالت عائشة –رضي الله عنها–: ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وإنّ جبينه ليتفصّد عرقًا»[3].

وبينّت أحاديث أخرىٰ بدايات الوحي، فقالت عائشة أم المؤمنين –رضي الله عنها–: «أول ما بدئ الرسول ﷺ من الوحي الرؤيا الصادقة في النوم فكان لا يرىٰ رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبب إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء

---

(١) (سورة التكوير: الآيات ١٩-٢٣).

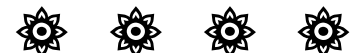
(٢) (سورة النجم: الآيات ٥-١٧).

(٣) صحيح البخاري: كتاب بدء الوحي. الحديث الثاني.

فيتحنث فيه –وهو التعبد– الليالي ذوات العدد قبل أن ينزع إلىٰ أهله ويتزود لذلك ثم يرجع إلىٰ خديجة فيتزود لمثلها، حتىٰ جاءه الحق وهو في غار حراء فجاء الملك فقال: اقرأ، قال: ما أنا بقارئ؟ قال: فأخذني فغطني حتىٰ بلغ مني الجهد، ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثانية حتىٰ بلغ مني الجهد ثم أرسلني فقال: اقرأ، فقلت: ما أنا بقارئ، فأخذني فغطني الثالثة ثم أرسلني فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾»[1].

وقد بيّن الرسول ﷺ أنه رأىٰ جبريل عليه السلام فقال عن فترة الوحي: «بينا أنا أمشي إذ سمعت صوتًا من السماء، فرفعت بصري فإذا الملك الذي جاءني بحراء جالس علىٰ كرسي بين السماء والأرض، فرعبت منه، فرجعت فقلت: زملوني. فأنزل الله تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ﴾ إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ فحمي الوحي وتتابع»[2].

هذه بعض معالم المعركة حول إلهية القرآن الكريم، ونحن من أجل استكمال دراسة الموضوع سنرىٰ في الفقرة القادمة نتائج الإيمان بإلهية القرآن الكريم في البناء النفسي للصحابي.



(١) صحيح البخاري، كتاب بدء الوحي. الحديث الرابع.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير. سورة المدثر. الباب الرابع.

نتائج الإيمان بإلهية القرآن الكريم في البناء النفسي للصحابي:

إن إيمان الصحابي بأن القرآن الكريم كلام الله العليم الحكيم الخبير ولد يقينًا بأن هذا الكتاب يحتوي علىٰ أمرين هما:

الأول: الحق الكامل.

الثاني: العلم الشامل.

فكيف تناولهما القرآن؟ وكيف عرضهما؟

الأول: الحق الكامل:

بينّت آيات القرآن الكريم أنه نزل بالحق، فقال تعالىٰ: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴾[1].

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[2].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ﴾[3].

وقد بيّن القرآن الكريم اختلاف الناس في عيسىٰ –عليه السلام– وأن الحق ما قاله القرآن الكريم وهو أنه مخلوق بغير أب وأنه لم يقتل ولم يصلب، فقال تعالىٰ:

(١) (سورة آل عمران: الآية ٣).

(٢) (سورة الزمر: الآية ٢).

(٣) (سورة الشورى: الآية ١٧).

﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[1].

وقال الله -تعالىٰ- مخاطبًا محمدًا ﷺ أن الله أنزل القرآن بالحق، فقال: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾[2].

وعندما يتحدث القرآن عن قصة ابني آدم يربطها بالحق فيقول الله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ . . . ﴾[3].

وقال الله مبيّنًا أن القرآن الكريم نزل بالحق المصدق للكتب السابقة والفاصل فيما اختلف فيه فقال تعالىٰ:

﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ ﴾[4].

وقال تعالىٰ: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾[5].وقال الله – تعالىٰ- مبيّنًا تكذيب قريش بالقرآن مع أنه الحق، لكنهم سيلقون جزاء تكذيبهم،

---

(١) (سورة آل عمران: الآيتان ٥٩، ٦٠).

(٢) (سورة النساء: الآية ١٠٥).

(٣) (سورة المائدة: الآية ٢٧).

(٤) (سورة المائدة: الآية ٤٨).

(٥) (سورة الأنعام: الآية ٥٧).

فقال تعالىٰ:

﴿وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ ٱلْحَقُّ ۚ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴿٦٦﴾ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ ۚ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ﴾[2].

﴿وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ﴾[3].

إن الاهتداء إلىٰ الحق هو من هداية الله، فيقول الله تعالىٰ:

﴿قُلْ هَلْ مِن شُرَكَآئِكُم مَّن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ ۚ قُلِ ٱللَّهُ يَهْدِى لِلْحَقِّ ۗ أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾[4].

ثم يأتي القول أن الظن هو مقابل الحق:

﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا ۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾[5].

﴾[5].

وقد جاءت آيات أخرىٰ مؤكدة أن الله أنزل الحق إلىٰ الرسول ﷺ وطلب

---

(١) (سورة الأنعام: الآيتان ٦٦، ٧٧).

(٢) (سورة التوبة: الآية ٣٣).

(٣) (سورة الأنفال: الآيتان ٧، ٨).

(٤) (سورة يونس: الآية ٣٥).

(٥) (سورة يونس: الآية ٣٦).

منه أن يسأل أهل الكتب السابقة إن وقع الشك في قلبه فيقول الرسول ﷺ تعقيبًا: لا شك ولا أسأل، قال تعالىٰ:

﴿ فَإِن كُنتَ فِى شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَـٰبَ مِن قَبْلِكَ ۚ لَقَدْ جَآءَكَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴾[(١)].

وقد خاطب القرآن الناس جميعًا في آخر سورة يونس معلمًا لهم بأن الحق جاءهم من عند ربهم ومع محمد ﷺ فقال تعالىٰ:

﴿ قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۖ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ﴾[(٢)].

وقد بينّت بعض الآيات أن الذي أنزل من الله هو الحق فقال تعالىٰ:

﴿ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[(٣)].

﴿ الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾[(٤)].

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَـٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَـٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[(٥)].

وقد وضّحت عدة آيات أن الحق جاء مع محمد ﷺ وقد جاء هذا التوضيح

---

(١) (سورة يونس: الآية ٩٤).

(٢) (سورة الرعد: الآية ١٠٨).

(٣) (سورة الرعد: الآية ١٩).

(٤) (سورة الرعد: الآية ١).

(٥) (سورة الإسراء: الآية ١٠٥).

في عدة صيغ فقال تعالىٰ:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴾[1].

﴿ أَمْ يَقُولُونَ بِهِۦ جِنَّةٌۢ ۚ بَلْ جَآءَهُم بِٱلْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَٰرِهُونَ ﴾[2].

﴿بَلْ أَتَيْنَٰهُم بِٱلْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[3].

﴿ بَلْ هُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾[4].

﴿قُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ ٱلْبَٰطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴾[5].

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۚ ﴾[6].

﴿ بَلْ جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾[7].

﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ فَٱعْبُدِ ٱللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ ٱلدِّينَ ﴾[8].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَٱلْمِيزَانَ ۗ ﴾[9].

(١) (سورة الإسراء: الآية ٨١).
(٢) (سورة المؤمنون: الآية ٧٠).
(٣) (سورة المؤمنون: الآية ٩٠).
(٤) (سورة السجدة: الآية ٣).
(٥) (سورة سبأ: الآية ٤٩).
(٦) (سورة فاطر: الآية ٢٤).
(٧) (سورة الصافات: الآية ٣٧).
(٨) (سورة الزمر: الأية ٢).
(٩) (سورة الشورى: الآية ١٧).

﴿ لَقَدْ جِئْنَاكُم بِالْحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾[1].

﴿ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ ﴾[2].

﴿ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۙ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ﴾[3].

وقد حضت آية كريمة محمدًا ﷺ أن يتوكل علىٰ الله فهو علىٰ الحق المبين فقال تعالىٰ:

﴿ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۖ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ ﴾[4].

كما بينّت آية أخرىٰ معرفة أولىٰ العلم بالحق الذي نزل علىٰ محمد ﷺ فقال تعالىٰ:

﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾[5].

وقد وضّحت آيات أخرىٰ أن الله أرسل رسوله بدين الحق فقال تعالىٰ:

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ﴾[6].

---

(١) (سورة الزخرف: الآية ٧٨).

(٢) (سورة الأحقاف: الآية ٣٠).

(٣) (سورة محمد: الآية ٢).

(٤) (سورة النمل: الآية ٧٩).

(٥) (سورة سبأ: الآية ٦).

(٦) (سورة الفتح: الآية ٢٨).

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ ﴾[1].

الثاني: العلم الشامل:

بيّنت عدة آيات كريمات أن محمد ﷺ جاء بالعلم مقابل الهوىٰ الذي يتبعه المشركون، وحذرته ﷺ من اتباع أهوائهم، فقال تعالىٰ:

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾[2].

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[3].

﴿ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴾[4].

كما وضّحت آية أخرىٰ أن الله فصّل كتابه علىٰ علم فقال تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[5].

۞ ۞ ۞ ۞

---

(١) [سورة الصف: الآية ٩].

(٢) [سورة البقرة: الآية ١٢٠].

(٣) [سورة البقرة: الآية ١٤٥].

(٤) [سورة الرعد: الآية ٣٧].

(٥) [سورة الأعراف: الآية ٥٢].

ليس من شك بأن إيمان المسلم بإلهية القرآن وبالنتيجتين اللتين تنبثقان عن ذلك الإيمان وهما: الإيمان بأن القرآن يحوي الحق الكامل والعلم الشامل، ستتركان آثارًا نفسية عظيمة لا مجال لتفصيلها عند المسلم منها: الثقة في الحق الذي يدعو إليه، والاطمئنان إلىٰ الطريق الذي يسير عليه.



مدح الله -تعالىٰ- كتابه الكريم وأثنىٰ عليه بأفخم الصفات، وأعلاها، وأرفعها، وأرفعها شأنًا، مثل: مبين، عظيم، حكيم، مجيد، كريم، مبارك، عزيز، بشير، نذير، علي.

ونحن سنستعرض الآيات التي وردت فيها كل صفة من الصفات السابقة.

١ - مبين:

وردت هذه الكلمة صفة لكلمة «الكتاب» في مطلع ست سور، قال تعالىٰ:

﴿الٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[1].

﴿طسٓمٓ ۝١ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[2].

﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[3].

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[4].

﴿حمٓ ۝١ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[5].

كما وردت هذه الصفة لكلمة «القرآن» مرة واحدة، قال تعالىٰ:

---

(١) (سورة يوسف: الآية ١].

(٢) (الشعراء: ١، ٢) و (القصص: ١، ٢).

(٣) (سورة النمل: الآية ١).

(٤) (سورة الزخرف: الآيتان ١، ٢).

(٥) (سورة الدخان: الآيتان ١، ٢).

﴿الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ وَقُرۡءَانٖ مُّبِينٖ ﴾[1].

وقد وردت صفة لكلمة «كتاب» وسط الآيات مرة واحدة، قال تعالىٰ:

﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ﴾[2].

٢- عظيم:

جاءت هذه الصفة في موضعين، قال تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَٰكَ سَبۡعٗا مِّنَ ٱلۡمَثَانِي وَٱلۡقُرۡءَانَ ٱلۡعَظِيمَ ﴾[3].

﴿ قُلۡ هُوَ نَبَؤٌاْ عَظِيمٌ ﴾[4].

٣- حكيم:

وصف الله -تعالىٰ- كتابه بأنه «حكيم» فقال تعالىٰ:

﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[5].

﴿الٓر ۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[6].

﴿الٓمٓ ۝١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾[7].

---

(١) (سورة الحجر: الآية ١).

(٢) (سورة المائدة: الآية ١٥).

(٣) (سورة الحجر: الآية ٨٧).

(٤) (سورة ص: الآية ٦٧).

(٥) (سورة يس: الآيتان ١-٢).

(٦) (سورة يونس: الآية ١).

(٧) (سورة لقمان: الآيتان ١-٢).

وصف الله -تعالىٰ- كتابه بأنه «مجيد» في موضعين فقال تعالىٰ:

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ﴾ [1].

﴿بَلۡ هُوَ قُرۡءَانٞ مَّجِيدٞ﴾ [2].

٥- ذو ذكر:

وصف الله -تعالىٰ- كتابه بأنه «ذو ذكر»؛ أي: ذو رفعة وشأن، فأقسم به تعالىٰ موصوفًا بهذه الصفة، قال تعالىٰ:

﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [3].

٦- كريم:

نعت الله -تعالىٰ- القرآن بأنه «كريم»، وقد جاء ذلك في آية واحدة، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ٧٧ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ﴾ [4].

٧- مبارك:

وصف الله -تعالىٰ- كتابه بأنه «مبارك»؛ أي: أنه نامٍ، يشيع البركة والخير حينما تتفاعل معه النفوس والقلوب، قال تعالىٰ:

---

(١) (سورة ق، الآيتان١-٢).

(٢) (سورة البروج، الآية ٢١).

(٣) (سورة ص: الآية١).

(٤) (سورة الواقعة: الآيتان ٧٧-٧٨).

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ﴾[1].

﴿ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[2].

﴿ وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ أَفَأَنتُمْ لَهُۥ مُنكِرُونَ ﴾[3].

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓا۟ ءَايَٰتِهِۦ ﴾[4].

٨- روح:

وصف الله –تعالىٰ- كلامه الذي أنزله علىٰ محمد ﷺ بأنه «روح» يسري بين الأفراد والأمم فيحييها بعد موات، قال تعالىٰ:

﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴾[5].

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ ﴾[6].

٩- بشير ونذير:

وصف الله –تعالىٰ- كتابه بوصفين عجيبين وهما «بشير ونذير» قال تعالىٰ:

---

(١) (سورة الأنعام: الآية ٩٢).

(٢) (سورة الأنعام: الآية ١٥٥).

(٣) (سورة الأنبياء: الآية ٥٠).

(٤) (سورة ص: الآية ٢٩).

(٥) (سورة النحل: الآية ٢).

(٦) (سورة الشورى: الآية ٥٢).

﴿حمٓ ١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ٢ كِتَٰبٌ فُصِّلَتۡ ءَايَٰتُهُۥ قُرۡءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوۡمٍ يَعۡلَمُونَ ٣ بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعۡرَضَ أَكۡثَرُهُمۡ فَهُمۡ لَا يَسۡمَعُونَ﴾[1].

١٠- عزيز:

وصف الله –تعالىٰ- القرآن بالعزة وهو وصف لا يناله كل الأحياء بل بعضهم، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِٱلذِّكۡرِ لَمَّا جَآءَهُمۡۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٞ ٤١ لَّا يَأۡتِيهِ ٱلۡبَٰطِلُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَلَا مِنۡ خَلۡفِهِۦۖ﴾[2].

١١- عليّ:

وصف الله –تعالىٰ- القرآن بأنه «علي حكيم» في اللوح المحفوظ قبل أن يوحي به إلىٰ محمد ﷺ فقال تعالىٰ:

﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا لَّعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ٣ وَإِنَّهُۥ فِيٓ أُمِّ ٱلۡكِتَٰبِ لَدَيۡنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ﴾[3].

١٢- أحسن ما أنزله الله:

وصف الله –تعالىٰ- القرآن الكريم بأنه «أحسن ما أنزله الله»، قال تعالىٰ:

---

(١) (سورة فصلت: الآيتان ١-٤).

(٢) (سورة فصلت: الآيتان ٤١-٤٢).

(٣) (سورة الزخرف: الآيتان ٣-٤).

﴿ وَٱتَّبِعُوٓاْ أَحۡسَنَ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكُم مِّن رَّبِّكُم ﴾ [1].

❁ ❁ ❁ ❁

ما الذي تبينه الصفات السابقة للقرآن الكريم في نفس الصحابي؟

تبني تعظيم القرآن والحرص عليه والاهتمام به.

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) (سورة الزمر: الآية ٥٥).

بيّن الله –تعالىٰ- لنا بعض الأمور عن القرآن الكريم فهو: منجّم، مُيَسرَّ للذكر، فيه المحكم والمتشابه، مفصّل الآيات، عربي البيان، وبعض آياته منسوخة.

ونحن سنستعرض الآيات التي تحدثت عن كل صفة من الصفات السابقة.

١ – تنجيم القرآن:

بيّنت آيتان أن الله أنزل القرآن منجمًا، وبيَنت الحكمة من ذلك، قال تعالىٰ:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴾[1].

﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾[2].

٢ – تيسير القرآن:

أوضحت آية أن سور القرآن ميسرة للذكر، وتساءلت هل من متذكر؟؟ وتكرر تقرير الحقيقة والتساؤل عدة مرات في سورة القمر، قال تعالىٰ:

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[3].

---

(١) (سورة الفرقان: الآية ٣٢).

(٢) (سورة الإسراء: الآية ١٠٦).

(٣) (سورة القمر: الآيات ١٧و ٣٢و٤٠).

٣- في القرآن: المحكم والمتشابه:

بيّن الله -تعالىٰ- أن بعض آيات كتابه محكم، وبعضها الآخر متشابه، وأن ذوي القلوب الزائغة يتّبعون المتشابه، قال تعالىٰ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾[1].

٤- القرآن مفصّل الآيات:

بيّنت بعض الآيات أن القرآن مفصل في آياته، فقال تعالىٰ:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾[2].

﴿الٓر ۚ كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾[3].

﴿كِتَـٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَـٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾[4].

﴿وَلَقَدْ جِئْنَـٰهُم بِكِتَـٰبٍ فَصَّلْنَـٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[5].

٥- القرآن عربي البيان:

---

(١) (سورة آل عمران: الآية٧).

(٢) (سورة الأنعام: الآية١١٤).

(٣) (سورة هود: الآية١).

(٤) (سورة فصلت: الآية٣).

(٥) (سورة الأعراف: الآية ٥٢).

بيّنت الآيات عربية القرآن، وأبرزته في أكثر من موضع، قال تعالىٰ:

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[1].

٦- بعض آياته منسوخة:

قال تعالىٰ:

﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[2].

❁ ❁ ❁ ❁

ما الحكمة من تبيين الله -تعالىٰ- لنا هذه الحقائق عن كتابه؟

بيّن الله -تعالىٰ- هذه الحقائق عن كتابه كي نحسن التعامل معه علىٰ مدىٰ العصور؛ لأنه سيبقىٰ كتاب البشرية الذي يجب أن تحتكم إليه في كل شؤونها إلىٰ قيام الساعة، ولأن الفهم السليم لطبيعته يجعل استخلاص الأحكام الصحيحة أيسر منالًا وأسهل.

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) (سورة يوسف: الآية ٢).

(٢) (سورة البقرة: الآية ١٠٦).

آثار القرآن الكريم

تحدثت كثير من الآيات عن أثر القرآن الكريم في النفوس والمجتمع، فذكرت أن من آثاره: الهدىٰ، والرحمة، والبشرىٰ، والشفا، والنور، والخروج من الظلمات، والتقوىٰ، وإحداث الذكر للعرب، وإحداث الخشوع لتاليه.

ونحن سنستعرض الآيات التي تحدثت عن كل أثر من الآثار السابقة، قال تعالىٰ عن أثر الهدىٰ الذي يتركه القرآن:

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾[1].

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾[2].

وقد تحدثت الجن عن أثر الهدىٰ الذي يتركه القرآن، فقال تعالىٰ:

﴿ قَالُواْ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[3].

وقد ربطت آيات كثيرة بين الهدىٰ والرحمة، قال تعالىٰ:

---

(١) (سورة البقرة: الآية ١٨٥).

(٢) (سورة البقرة: الآية ٢).

(٣) (سورة الأحقاف: الآية ٣٠).

﴿ وَلَٰكِن تَصۡدِيقَ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَتَفۡصِيلَ كُلِّ شَيۡءٖ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[1].

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَقُصُّ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ أَكۡثَرَ ٱلَّذِي هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ٧٦ وَإِنَّهُۥ لَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

﴿ وَمَآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ ٱلَّذِي ٱخۡتَلَفُواْ فِيهِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴾[3].

﴿ الٓمٓ ١ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡكِتَٰبِ ٱلۡحَكِيمِ ٢ هُدٗى وَرَحۡمَةٗ لِّلۡمُحۡسِنِينَ ﴾[4].

وقد ربطت آيات أخرىٰ بين الهدىٰ والبشرىٰ، قال تعالىٰ:

﴿ طسٓۚ تِلۡكَ ءَايَٰتُ ٱلۡقُرۡءَانِ وَكِتَابٖ مُّبِينٍ ١ هُدٗى وَبُشۡرَىٰ لِلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[5].

﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانَ يَهۡدِي لِلَّتِي هِيَ أَقۡوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرٗا كَبِيرٗا ﴾[6].

وقد ذكرت آيات أخرىٰ أن الشفاء أحد آثار القرآن الكريم، قال تعالىٰ:

﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلۡقُرۡءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٞ وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا

---

(١) (سورة يوسف: الآية١١١).

(٢) (سورة النمل: الآيتان ٧٦-٧٧).

(٣) (سورة النحل: الآية٦٤).

(٤) (سورة لقمان: الآيات١-٣).

(٥) (سورة النمل: الآيتان١-٢).

(٦) (سورة الإسراء: الآية٩).

خَسَارًا ﴾[1].

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدۡ جَآءَتۡكُم مَّوۡعِظَةٞ مِّن رَّبِّكُمۡ وَشِفَآءٞ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ وَهُدٗى وَرَحۡمَةٞ لِّلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[2].

﴿وَعَرَبِيّٞۚ قُلۡ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ هُدٗى وَشِفَآءٞۖ ﴾[3].

وذكرت آيات أخرىٰ أن القرآن ينقل الناس من الظلمات إلىٰ النور، قال تعالىٰ:

﴿قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَٰبٞ مُّبِينٞ ١٥ يَهۡدِي بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضۡوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخۡرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِهِۦ وَيَهۡدِيهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴾[4].

﴿ الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ ﴾[5].

وذكرت آيات أخرىٰ أن من آقار القرآن الكريم إحداث ذكر للعرب، قال تعالىٰ:

﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ

(١) (سورة الإسراء: الآية٨٢).
(٢) (سورة يونس: الآية٥٧).
(٣) (سورة فصلت: الآية٤٤).
(٤) (سورة المائدة: الآيتان١٥-١٦).
(٥) (سورة إبراهيم: الآية١).

ذِكْرًا ﴾[1].

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَٰبًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[2].

وقد أبرزت آيات أخرىٰ أثرًا آخر من آثار القرآن وهو الخشوع، فقال تعالىٰ:

﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِىَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴾[3].

﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴾[4].

وقد ذكرت بعض الآيات أن الله أنزل الكتب مع الأنبياء من أجل إقامة العدل، قال تعالىٰ:

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ ﴾[5].

❁ ❁ ❁ ❁

(١) (سورة طه: الآية١١٣).

(٢) (سورة الأنبياء: الآية١٠).

(٣) (سورة الزمر: الآية٢٣).

(٤) (سورة الحشر: الآية٢١).

(٥) (سورة الحديد: الآية٢٥).

ما الحكمة من إخبار الله –تعالىٰ- لنا عن أثر القرآن الكريم؟

الحكمة واضحة من أجل شد المسلمين إلىٰ الحرص علىٰ كتاب الله من خلال إدراك الأثر الذي يمكن أن يتركه القرآن في قلوبهم وعقولهم، وفي أفرادهم ومجتمعهم، وبالتالي: خسارتهم الهدىٰ والرحمة والشفاء والنور عند ابتعادهم عنه.

لاحظنا من خلال استعراضنا السابق كثرة الآيات التي مدحت القرآن بأفخم الصفات مثل: حكيم، مجيد، عزيز، كريم إلخ...، ولاحظنا تأكيد الآيات المتكرر أنه عند الله –تعالىٰ- وحده، وأن علاقة محمد ﷺ به علاقة تلقٍ ونقل، ليبقىٰ يقين المسلم أن ما طرحه القرآن هو الحق الذي لم تشبهُ أية شائبة.

ولاحظنا –كذلك- توضيح الآيات لبعض الحقائق عن القرآن الكريم، ليحسن المسلم التعامل معه؛ لأنه يفترض أن يبقىٰ موجهًا له علىٰ مدىٰ العصور.

ولاحظنا التذكير بآثار القرآن الكريم، وأنه يفرز الهدىٰ والرحمة والشفاء والنور إلخ....، من أجل ترغيب المسلم في تنفيذ كلام الله –تعالىٰ- والحرص عليه.



فماذا يبني الكلام السابق عن إلهية القرآن الكريم وعن صفاته وحقائقه في نفس المسلم؟

يبني الأمور التالية:

١- تعظيم الله؛ لأنه أنزل الكتاب الذي يحتوي علىٰ الحق والعلم.

٢- حب الله -تعالىٰ-؛ لأنه أنزل القرآن الكريم الكتاب الهادي.

٣- تعظيم كتاب الله؛ لأنه معجزة محمد ﷺ من زاويتين: مستوىٰ البيان الذي جاء به، والعلوم التي احتواها.

٤- الخضوع لكتاب الله وتنفيذ أوامره وتحليل حلاله، وتحريم حرامه؛ لأنه كلام الله القادر الحكيم الخبير.

٥- حب كتاب الله -تعالىٰ-؛ لأنه نور ورحمة وبشرىٰ.

٦- الأنس بكتاب الله -تعالىٰ-؛ لأنه كلامه تعالىٰ.

٧- الثقة في القرآن الكريم؛ لأنه فيه الحق الكامل والعلم الشامل.

٨- رجاء الثواب في تلاوته وأخذ الأجر علىٰ ذلك.

٩- الشعور بعالمية الرسالة المنوطة بالمسلم؛ لأن القرآن لكل البشر إلىٰ قيام الساعة: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ﴾[1].

١٠- الإحساس بهيمنة القرآن الكريم علىٰ الرسالات السابقة؛ لأنه نسخ

---

(١) (سورة يوسف: الآية١٠٤).

بعض أحكامها وهو الكتاب الأخير المعتمد.

* * * *

العامل الثاني: الرسول محمد ﷺ ودور شخصيته في البناء النفسي للمسلم:

كان الرسول ﷺ العامل الثاني في بناء المسلم الصحابي، ونحن سندرس كلام القرآن عن الرسالة والرسول والمعركة التي دارت حول بعث الرسول محمد ﷺ وأبرز معالمها: استغراب المشركين أن يبعث الله رسولًا، ومهمة الرسول وصفات الرسول التي ساهمت في البناء النفسي للصحابة.

١- استغراب المشركين أن يبعث الله رسولًا:

لقد استغرب كفار قريش أن يبعث الله رسولًا فنقل القرآن استغرابهم ذلك فقال تعالىٰ:

﴿ بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ فَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَىْءٌ عَجِيبٌ ﴾[1].

كما نقل استغراب الأمم السابقة في أن يبعث رسولًا منذرًا فقال تعالىٰ:

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَآءَ مِنۢ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ ﴾[2].

---

(١) (سورة ق: الآية٢).

(٢) (سورة الأعراف: الآية٦٩).

﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾[1].

ولكن تعجبهم ناتج من جهلهم بالله وبرحمته لعباده، وحب –تعالىٰ– الهداية لهم.

وقد طلب المشركون أن يتنزل القرآن علىٰ رجل ذي غنىٰ، فأجابهم الوحي: أهم يقسمون رحمة ربك، قال تعالىٰ:

﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ﴾[2].

وبيّن لهم أن الرسول ﷺ لايملك مالًا، وليس ملكًا ولا يعلم الغيب، فقال تعالىٰ:

﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾[3].

﴿ وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُواْ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا

(١) (سورة الأعراف: الآية٦٣).

(٢) (سورة الزخرف: الآيتان٣١- ٣٢).

(٣) (سورة الأنعام: الآية٥٠).

كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ ﴾[1].

وقد طلب المشركون من الرسول ﷺ بعض المعجزات، لكن الرسول بيّن لهم أنه بشر وأن هذا يكون من الله –تعالىٰ– وبإذنه، قال تعالىٰ:

﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَـٰرَ خِلَـٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِىَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَـٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّى هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَـٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴾[2].

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَـٰهُكُمْ إِلَـٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ ﴾[3].

٢– مهمة الرسول ﷺ:

ثم بينت الآيات مهمة الرسول ﷺ وهي أنه رحمة للناس، وأنه مبشر ونذير، وأنه سراج منير، فقال تعالىٰ:

---

(١) (سورة الأنعام: الآية١٢٤).

(٢) (سورة الإسراء: الآية ٩٠–٩٥).

(٣) (سورة الكهف: الآية١١٠).

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [1].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا ﴾ [2].

﴿ إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [3].

وقد بيّن الله -تعالىٰ- أنه حفظ رسوله ﷺ منذ أن كان صغيرًا ورعاه من أجل أن يؤدي مهمته خير أداء فقال تعالىٰ:

﴿ أَلَمۡ نَشۡرَحۡ لَكَ صَدۡرَكَ ﴿١﴾ وَوَضَعۡنَا عَنكَ وِزۡرَكَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِيٓ أَنقَضَ ظَهۡرَكَ ﴿٣﴾ وَرَفَعۡنَا لَكَ ذِكۡرَكَ ﴾ [4].

٣- صفات الرسول ﷺ:

وقد أثنىٰ الله -تعالىٰ- علىٰ رسوله ﷺ فوصفه بأنه علىٰ خلق عظيم، فقال تعالىٰ:

﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴿١﴾ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ ﴿٢﴾ وَإِنَّ لَكَ لَأَجۡرًا غَيۡرَ مَمۡنُونٖ ﴿٣﴾ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ [5].

---

(١) (سورة الأنبياء: الآية١٠٧).

(٢) (سورة الأحزاب: الآيتان٤٥-٤٦).

(٣) (سورة الفتح: الآية٨).

(٤) (سورة الشرح: الآية١-٤).

(٥) (سورة القلم: الآيات١-٤).

كما وصفه في موضع آخر بأنه رؤوف بالمؤمنين، ووضّح حرصه عليهم وأنه لا يحب إتعابهم وإعناتهم وإرهاقهم، قال تعالىٰ:

﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[1].

وقد بيّن الله –تعالىٰ– في آيات أخرىٰ أن اجتماع المُسلمين حول الرسول ﷺ كان ناتجًا من رحمته بهم، قال تعالىٰ:

﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾[2].

وقد تقوّل المنافقون علىٰ الرسول ﷺ بأنه كثير الاستماع للمسلمين وقد لقّبوه بالأذُن، فردّ القرآن عليهم بأنه أذُنُ خير، قال تعالىٰ:

﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ﴾[3].

وقد أمره الله –تعالىٰ– بخفض جناحه فقال تعالىٰ:

﴿ وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾[4].

---

(١) (سورة التوبة: الآية١٢٨).

(٢) (سورة آل عمران: الآية١٥٩).

(٣) (سورة التوبة: الآية٦١).

(٤) (سورة الشعراء: الآيتان٢١٥-٢١٦).

﴿وَٱخۡفِضۡ جَنَاحَكَ لِلۡمُؤۡمِنِينَ﴾[1].

إن صفات الرسول ﷺ السابقة كان لها دور أساسي في البناء النفسي للصحابة ويمكن أن نستشف معالمه في الأمور التالية:

١- تعظيم الصحابة للنبي محمد ﷺ؛ لأنه رسول الله الذي حمل إليهم رسالته -تعالىٰ- ورحمته التي لا تقدّر بثمن.

٢- لقد أحبّ الصحابة الرسول ﷺ لحسن أخلاقه وعظيم شمائله.

٣- الاقتداء به ﷺ والحرص علىٰ التأسي به.

٤- رجاء دخول الجنة باتباع سنته وتنفيذ أوامره.

٥- خوف خسارة الأجر، وحصول العذاب نتيجة الابتعاد عن سنة الرسول ﷺ.

وقد زاد في اغتناء الصحابة النفسي أخبار كثيرة نقلتها الأحاديث والآيات من مثل أنه سيكون ﷺ شهيدًا علىٰ الناس جميعًا يوم القيامة، وأنه ﷺ خاتم الأنبياء، وأن صفته وردت في التوراة، وأنه فُضِّلَ علىٰ الأنبياء بستة أمور، وأنه أول من يرفع رأسه يوم القيامة، وأنه وحده الذي يتقدّم للشفاعة للمؤمنين إلخ...، ونحن سنستعرض بعضًا من هذه الآيات والأحاديث.

فقد قال تعالىٰ:

---

(١) (سورة الحجر: الآية ٨٨).

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴾[1].

وقد تحدث الرسول ﷺ عن ختمه النبوة فقد نقل أبو هريرة أن الرسول ﷺ قال: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنىٰ بيتًا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون له ويقولون: هلا وضعت هذه البنية هذه اللبنة؟ قال: فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين**[2]».

وقد وردت صفته في التوراة فقد حدّثنا عبد الله بن عمرو بن العاص – رضي الله عنهما– أن هذه الآية في القرآن: ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴾[3]، قال في التوراة: «**يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحرزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بفظ ولا غليظ ولا سخّاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضه الله حتىٰ يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتح به أعينًا عميًا، وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا**»[4] .

---

(١) (سورة النحل: الآية ٨٩).

(٢) صحيح البخاري، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين.

(٣) (سورة الأحزاب: الآية ٤٥).

(٤) صحيح البخاري، كتاب التفسير٦٥ ، سورة الفتح ٤٨، الباب الثالث.

وقد ذكر الرسول ﷺ أنه فضّل علىٰ الأنبياء بستة أمور فقد قال أبو هريرة – رضي الله عنه– أن رسول الله ﷺ قال: «**فُضلت علىٰ الأنبياء بست: أعطيت جوامع الكلم، ونصرت بالرعب، وأحلت لي الغنائم، وجعلت لي الأرض طهورًا ومسجدًا، وأرسلت إلىٰ الخلق كافة، وختم بي النبيون**» [(١)].

وقد بيّن الرسول ﷺ أنه أول من يرفع رأسه بعد النفخة الثانية فقد نقل أبو هريرة –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ قال: «**إني أول من يرفع رأسه بعد النفخة الآخرة، فإذا أنا بموسىٰ متعلق بالعرش فلا أدري أكذلك كان أم بعد النفخة**» [(٢)].

إن المسلم عندما يسمع الأخبار السابقة عن الرسول ﷺ سيزداد تعظيمه له وحبه، كما سيزداد تقديره له وتعلقه به، وسيزداد حرصه علىٰ الاقتداء والتأسي به.

۞ ۞ ۞ ۞

---

(١) صحيح مسلم، كتاب المساجد، الحديث الثالث.

(٢) صحيح البخاري. كتاب التفسير. الباب الرابع.

دور البناء النفسي في تطبيق الإسلام في المدينة

لقد نقل الإسلام المسلمين في المدينة نقلة نوعية بالمقارنة مع حياة العرب في الجاهلية، فقد نظم حياتهم تنظيمًا جديدًا في كل جزئياتها: الاجتماعية والاقتصادية والسياسية إلخ...، وليس من شك بأن البناء النفسي والعقلي الذي بنىٰ الإسلام المسلمين عليه في الفترة المكية هو الذي ساعد علىٰ النجاح القوي في الفترة المدنية، ونحن سنبين دور البناء النفسي في تنفيذ أربعة أوامر هي: تحريم الخمر، الحجاب، البذل والإنفاق، الجهاد والشهادة.

١- الخمر:

أنزل القرآن تحريم الخمر وقد تدرج في ذلك فأنزل في البداية قوله تعالىٰ:

﴿وَمِن ثَمَرَٰتِ ٱلنَّخِيلِ وَٱلْأَعْنَٰبِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا ۗ﴾[1].

ثم نزلت الأية التي تبين أن إثم الخمر أكثر من منفعته فقال تعالىٰ:

﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾[2].

ثم نزلت آية تنهىٰ المؤمنين أن يقربوا الصلاة وهم سكارىٰ فقال تعالىٰ:

(١) (سورة النحل: الآية٦٧).

(٢) (سورة البقرة: الآية٢١٩).

﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ﴾[1].

ثم نزلت الآيات الكريمة بتحريمه فقال تعالىٰ:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ وَٱلۡأَنصَابُ وَٱلۡأَزۡلَٰمُ رِجۡسٞ مِّنۡ عَمَلِ ٱلشَّيۡطَٰنِ فَٱجۡتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ٩٠ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيۡنَكُمُ ٱلۡعَدَٰوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ فِي ٱلۡخَمۡرِ وَٱلۡمَيۡسِرِ وَيَصُدَّكُمۡ عَن ذِكۡرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِۖ فَهَلۡ أَنتُم مُّنتَهُونَ﴾[2].

وقد بين مراحل التحريم حديث نقل عن ابن الخطاب يدعو الله –تعالىٰ– فيه أن يبين الحكم في الخمر، فقد «روىٰ أصحاب السنن عن طريق أبي ميسرة عن عمر أنه قال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا فنزلت الآية التي في البقرة: ﴿قُلۡ فِيهِمَآ إِثۡمٞ كَبِيرٞ﴾[3]، فقرئت عليه، فقال: اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت التي في النساء: ﴿لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ﴾[4] فقرئت عليه، فقال ا اللهم بيّن لنا في الخمر بيانًا شافيًا، فنزلت في المائدة: ﴿فاجتنبوه... إلىٰ قوله... منتهون﴾ فقال عمر: انتهينا انتهينا»[5].

إذن استجاب عمر بن الخطاب لحكم الله في تحريم الخمر وقال: انتهينا انتهينا، فكيف وقف مجتمع المدينة إزاء هذا الحكم؟

(١) (سورة النساء: الآية ٤٣).

(٢) (سورة المائدة: الآيتان ٩٠-٩١).

(٣) (سورة البقرة: الآية٢١٩).

(٤) (سورة النساء: الآية٤٣).

(٥) صححه علي ابن المديني والترمذي.

لقد توقف الشاربون عن الشرب لحظة تبليغهم بتحريم الخمر ثم أراقوا قلال الخمر حتىٰ جرت في طرق المدينة ويوضح ذلك الروايات التالية:

١ - «حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال أنس بن مالك –رضي الله عنه -: ما كان لنا خمر غير فضيخكم هذا الذي تسمونه الفضيخ، فإني لقائم أسقي أبا طلحة وفلانًا وفلانًا إذ جاء رجل فقال: وهل بلغكم الخبر؟ فقالوا: وما ذاك؟ قال: حرمت الخمر. قالوا: أهرق قلال الخمر يا أنس. قال فما سألوا عنها ولا راجعوها بعد خبر الرجل» [1].

٢ - « أخبرنا أبو النعمان حدثنا حماد بن زيد حدثنا ثابت عن أنس قال: كنت ساقي القوم في منزل أبي طلحة قال: فنزل في تحريم الخمر قال: فأمر مناديًا فنادىٰ فقال أبو طلحة: اخرج فانظر ما هذا، فخرجت فقلت: هذا مناد ينادي ألا إن الخمر قد حرمت. فقال لي: اذهب فأهرقها، قال: فجرت في سكك المدينة، قال وكانت خمرهم يومئذ الفضيخ. فقال بعض القوم قتل قوم وهي في بطونهم، فأنزل عزوجل: ﴿ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓاْ إِذَا مَا ٱتَّقَواْ وَّءَامَنُواْ ﴾ الآية» [2].

---

(١) صحيح البخاري. كتاب التفسير. الباب التاسع.

(٢) سنن الدارمي، كتاب الأشربة. الباب الثاني.

٣- «حدثنا مسدد حدثنا معمر عن أبيه قال سمعت أنسًا قال: كنت قائمًا علىٰ الحي أسقيهم عمومتي -وأنا أصغرهم- الفضيخ، فقيل: حرمت الخمر، فقالوا: أكفأهم، فكفأتها. قلت لأنس: ما شرابهم؟ قال: رطب ويسر فقال أبو بكر بن أنس: وكانت خمرهم . فلم ينكر أنس»[1].

ليس من شك بأن استجابة الشاربين إلىٰ الامتناع عن الخمر، وإراقة قلالها في المدينة حتىٰ سالت في طرق المدينة يدل علىٰ بناء نفسي خاص جعل استجابة المسلمين سريعة وواسعة في أمر يتعارض مع شهواتهم[2] وأبرز معالم البناء النفسي التي ساعدت علىٰ سرعة تنفيذ الأمر الإلهي والتي يمكن أن نستشفها من مصادر المنهجية الإسلامية هي:

١- تعظيم أمر الله سبحانه وتعالىٰ، والخضوع لهذا الأمر وعدم الخضوع لشهوة الشرب.

٢- حب الله -تعالىٰ- وتقديم حبه -تعالىٰ- علىٰ حب شرب الخمر.

٣- رجاء الجنة علىٰ تنفيذ أمر الله والخوف من عذابه في حال العصيان.

٤- الثقة في المنهج الذي أنزل ذلك التحريم، وأن تحريمها يعود بالخير عليهم كأفراد مسلمين، وكجماعة مسلمة.

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) صحيح البخري. كتاب الأشربة. الباب الثالث.

(٢) إن دور البناء العقلي والنفسي الخاص هو الذي جعل مجتمع المدينة ينجح في تنفيذ تحريم الخمر حين فشل فيه المجتمع الأمريكي حديثًا.

٢ - الحجاب:

أنزل الله -تعالىٰ- آيات الحجاب فقال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزۡوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ يُدۡنِينَ عَلَيۡهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَن يُعۡرَفۡنَ فَلَا يُؤۡذَيۡنَۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴾[1].

وقال تعالىٰ أيضًا:

﴿ وَقُل لِّلۡمُؤۡمِنَٰتِ يَغۡضُضۡنَ مِنۡ أَبۡصَٰرِهِنَّ وَيَحۡفَظۡنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنۡهَاۖ وَلۡيَضۡرِبۡنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّۖ وَلَا يُبۡدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوۡ ءَابَآئِهِنَّ أَوۡ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآئِهِنَّ أَوۡ أَبۡنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوۡ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ إِخۡوَٰنِهِنَّ أَوۡ بَنِيٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوۡ نِسَآئِهِنَّ أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيۡرِ أُوْلِي ٱلۡإِرۡبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفۡلِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يَظۡهَرُواْ عَلَىٰ عَوۡرَٰتِ ٱلنِّسَآءِۖ وَلَا يَضۡرِبۡنَ بِأَرۡجُلِهِنَّ لِيُعۡلَمَ مَا يُخۡفِينَ مِن زِينَتِهِنَّۚ وَتُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[2].

وقال تعالىٰ:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَدۡخُلُواْ بُيُوتَ ٱلنَّبِيِّ إِلَّآ أَن يُؤۡذَنَ لَكُمۡ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيۡرَ نَٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَٰكِنۡ إِذَا دُعِيتُمۡ فَٱدۡخُلُواْ فَإِذَا طَعِمۡتُمۡ فَٱنتَشِرُواْ وَلَا مُسۡتَـٔۡنِسِينَ لِحَدِيثٍۚ إِنَّ ذَٰلِكُمۡ كَانَ يُؤۡذِي ٱلنَّبِيَّ فَيَسۡتَحۡيِۦ مِنكُمۡۖ وَٱللَّهُ لَا يَسۡتَحۡيِۦ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ وَإِذَا

(١) (سورة الأحزاب: الآية٥٩).

(٢) (سورة النور: الآية٣١).

سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴾[1].

فكيف كانت استجابة المسلمات لهذه الدعوة؟ يوضح ذلك حديث رواه البخاري عن عائشة –رضي الله عنها– أنها قالت: «رحم الله نساء المهاجرات الأول لما نزل ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾[2] شققن أزرهن فاختمرن بها».

إن استجابة المسلمات لدعوة القرآن الكريم يدل علىٰ بناء نفسي معين ويمكن أن نستشف هذا البناء بالمعالم التالية:

١ – تعظيم أمر الله وشرعه بالاستجابة لدعوة القرآن الكريم بالخضوع لأمر الحجاب.

٢ – رجاء الجنة بتنفيذ أمر الله وخوف النار بعدم الالتزام بالحجاب.

٣– الثقة في المنهج واليقين بفائدة الحجاب وانعكاس ذلك علىٰ الأمة.

❁ ❁ ❁ ❁

٣– البذل والإنفاق:

دعا الإسلام المسلم إلىٰ البذل والإنفاق وتعددت صور الدعوة إلىٰ هذا

(١) (سورة الأحزاب: الآية٥٣).

(٢) (سورة النور: الآية ٣١).

البذل والإنفاق، فدعا بعضها المسلم إلىٰ إنفاق المال، وبعضها دعا إلىٰ عدم البخل، وبعضها دعا إلىٰ عتق الرقيق، وبعضها دعا إلىٰ الإطعام، وبعضها ذم البخل بالماعون الخ....، ثم جاءت الآيات في المدينة أكثر إلحاحًا في الحث علىٰ الإنفاق والصدقة، وبينت الإنفاق بأن جعلت حده الأدنىٰ الزكاة وجعلت الصدقة دون تحديد.

ففي مجال مدح العطاء وذم البخل قالت آيات القرآن الكريم: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ ﴿٥﴾ وَصَدَّقَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٦﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ﴿٧﴾ وَأَمَّا مَنۢ بَخِلَ وَٱسْتَغْنَىٰ ﴿٨﴾ وَكَذَّبَ بِٱلْحُسْنَىٰ ﴿٩﴾ فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْعُسْرَىٰ ﴿١٠﴾ وَمَا يُغْنِى عَنْهُ مَالُهُۥٓ إِذَا تَرَدَّىٰٓ ﴿١١﴾ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَىٰ ﴿١٢﴾ وَإِنَّ لَنَا لَلْءَاخِرَةَ وَٱلْأُولَىٰ ﴿١٣﴾ فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّىٰ ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَىٰهَآ إِلَّا ٱلْأَشْقَى ﴿١٥﴾ ٱلَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُۥ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَىٰٓ ﴿١٩﴾ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِ ٱلْأَعْلَىٰ ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَىٰ﴾[1].

وفي مجال عتق الرقاب وإطعام المحتاجين قالت آيات القرآن الكريم:

﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَٰمٌ فِى يَوْمٍ ذِى مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ﴾[2].

وفي مجال تهديد الذين يمنعون الماعون ولا يحضون علىٰ طعام المسكين قالت

(١) (سورة الليل: الآيات ٥-٢١).

(٢) (سورة البلد: الآيات ١١-١٨).

آيات القرآن الكريم:

﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ﴿١﴾ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ﴿٢﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣﴾ فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ ﴿٤﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ عَن صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ﴿٥﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ يُرَآءُونَ ﴿٦﴾ وَيَمْنَعُونَ ٱلْمَاعُونَ﴾[1].

ثم جاءت الآيات الكريمة التي تدعو إلىٰ أخذ الزكاة علىٰ الأموال فقال تعالىٰ:

﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ ۖ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ ۗ﴾[2].

ثم استمرت الآيات التي تحث علىٰ الإنفاق في كل مراحل البناء الإسلامي فقال تعالىٰ:

﴿وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[3].

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾[4].

﴿لَا يَسْتَوِى مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُوا۟

---

(١) (سورة الماعون: الآيات ١-٧).

(٢) (سورة التوبة: الآية١٠٣).

(٣) (سورة سبأ: الآية٣٩).

(٤) (سورة الرعد: الآية٢٢).

مِنۢ بَعۡدُ وَقَٰتَلُواْۚ﴾[1].

﴿وَمَا تُنفِقُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلِأَنفُسِكُمۡ﴾[2].

﴿لَن تَنَالُواْ ٱلۡبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُواْ مِمَّا تُحِبُّونَۚ﴾[3].

وقد أثمرت هذه التوجيهات الإسلامية بذلًا وعطاءً من المسلمين، فقد ذكرت كتب السيرة أن أبا بكر افتدىٰ بلالًا[4] رضي الله عنهما وتصدق بماله كما ذكر حديث أخرجه أبو داود وصححه الترمذي والحاكم عن طريق زيد بن أسلم عن أبيه سمعت عمر يقول: «أمرنا رسول الله ﷺ فوافق ذلك مالًا عندي فقلت: اليوم أسبق أبا بكر إن سبقته يومًا، فجئت بنصف مالي، وأتىٰ أبو بكر بكل ما عنده، فقال له النبي ﷺ يا أبا بكر ما أبقيت لأهلك؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله».

وقد ابتاع عثمان –رضي الله عنه– بئر رومة وأوقفه علىٰ المسلمين وجهز جيش العسرة[5].

وتفرض واقعة مقاسمة الأنصار[6] في المدينة أموالهم مع إخوانهم المهاجرين

---

(١) (سورة الحديد: الآية١٠).

(٢) (سورة البقرة: الآية٢٧٢).

(٣) (سورة آل عمران: الآية ٩٢).

(٤) انظر سنن الترمذي: كتاب ٤٦، باب ٩٤.

(٥) انظر سنن الترمذي: كتاب٤٦ باب٨ سنن النسائي: كتاب٢٩ باب٤، مسند أحمد بن حنبل: الجزء الأول ص(٧٠-٧٤).

(٦) انظر صحيح البخاري: كتاب الزكاة، الباب الثالث عشر، سنن الدارمي: الباب السادس والعشرون.

المهاجرين من مكة تفرض نفسها علينا كأبرز واقعة علىٰ عمق الاستجابة الطوعية لتوجيهات المنهج الإسلامي والتفاعل مع متطلبات الواقع استجابته علىٰ هذا المستوىٰ من السرعة والاتساع والتضحية والذي يمكن أن نستشف معالمه في النقاط التالية:

١- تعظيم الله وأمره في الإنفاق والخضوع له وليس الخضوع لشهوة حب المال واكتنازه.

٢- رجاء الثواب والجنة في الآخرة في حال الإنفاق، والخوف من النار وعقاب الله في حال البخل.

٣- حب الله سبحانه وتعالىٰ أكثر من حب المال.

٤- الثقة في الله سبحانه أكثر من الثقة في المال.

* * * *

٤-الجهاد والشهادة:

دعا الإسلام إلىٰ الجهاد وحب الشهادة إلىٰ المسلمين فقال تعالىٰ:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[1].

﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ﴾[1].

(١) (سورة الحج: الآية٣٩).

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ ﴾[2].

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ﴾[3].

﴿ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ﴾[4].

﴿ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[5].

إن الآيات السابقة أثمرت فكانت حياة المجتمع الإسلامي جهادًا مستمرًا، فخاضوا عشرات المعارك، فما يكادون ينتهون من غزوة حتىٰ يبدأوا سرية، وما ينتهون من معركة حتىٰ ينتقلوا إلىٰ أخرىٰ: من بدر إلىٰ أحد إلىٰ الأحزاب إلىٰ صلح الحديبية إلىٰ فتح مكة إلىٰ غزوة تبوك إلخ...

وقدم المسلمون خلال هذه المعارك مئات الشهداء حتىٰ دانت لهم الجزيرة العربية، وإن الإطلاع البسيط علىٰ أي كتاب في السيرة يجعلك تعجب من كثرة تضحياتهم، وعمق شجاعتهم، وسرعة إقدامهم، ويجعلك تحس أنهم قوم أحبوا الآخرة وقدموها علىٰ الدنيا.

---

(١) (سورة البقرة: الآية١٩٠).

(٢) (سورة البقرة: الآية٢١٦).

(٣) (سورة التوبة: الآية٧٣).

(٤) (سورة التوبة: الآية٤١).

(٥) (سورة النساء: الآية٩٥).

إن الجهاد والشهادة اللذين امتاز بهما المجتمع الإسلامي انعكاس لبناء نفسي خاص يمكن أن نوضح بعض عناصره النفسية في الأمور التالية:

١- تعظيم الله وأمره في مقاتلة المشركين، وأن يكون الخضوع للدين الإسلامي في الأرض، وعدم الخضوع للشهوات من حب للأولاد والنساء والأموال.

٢- رجاء الجنة في مقاتلة الأعداء والاستشهاد، والخوف من النار في حال النكوص والفرار وعدم القيام بفريضة الجهاد.

٣- حب الله ورسوله أكثر من كل المحبوبات: النساء والأولاد والأوطان والعشيرة إلخ....

٤- الثقة في المنهج الإسلامي في تشريعه الجهاد وأنه في خير المسلمين في الحاضر والمستقبل.

❁ ❁ ❁ ❁

والآن وبعد أن درسنا عاملي بناء الأمة الإسلامية وهما: القرآن الكريم والسنة، وتلمسنا دورهما في البناء النفسي للمسلم، ثم بيّنا دور البناء النفسي في تطبيق الإسلام في المدينة، ومساعدته علىٰ تنفيذ الأمة مع عاملي بنائها: القرآن والسنة في العصور التالية، والبناء الثقافي الذي بنته حولهما.



البناء الثقافي حول عاملي بناء الأمة: القرآن والسنة

انتشر الإسلام في بقعة واسعة من الأرض، وقد اجتهد الكيان الإسلامي أن يستوعب كل المعطيات الجديدة: البشرية، والاقتصادية، والاجتماعية، والعمرانية، والجهادية، والثقافية إلخ... ضمن منهجيته ورؤياه الشرعية، لذلك برز نمو ثقافي حول عاملي بناء الأمة: القرآن الكريم والسنة المشرفة يمكن أن نبين بعض معالمه في الأمور التالية:

أولًا: القرآن الكريم:

حظي القرآن الكريم بنصيب عظيم من الاهتمام بدأ بجمعه بين دفتي كتاب واحد بعد أن كان متفرقًا، وقد حدث ذلك في عهد أبي بكر الصديق رضي الله عنه وبإشارة من عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ثم نشأت علوم متعددة حوله منها: علم الناسخ والمنسوخ، ومنها علم أسباب النزول، ومنها تفسير آياته، وقد تكونت عدة مدارس في هذا المجال كانت بدايتها من الصحابة وامتدت إلىٰ التابعين، وكانت حصيلة ذلك تفاسير متعددة علىٰ امتداد التاريخ الإسلامي، ومنها علم المكي والمدني من آيات القرآن وسوره، ومنها علم القراءات، ومنها علم الرسم القرآني، ومنها علم المحكم والمتشابه، ومنها البحث في إعجاز القرآن.

ثانيًا: الحديث الشريف:

اهتم المسلمون بأحاديث الرسول الشريفة، وبدأوا بجمعها، وقد أخذ ذلك منهم الأعمار والجهود، وقد انبثق نتيجة ذلك علوم متعددة: منها علم الجرح والتعديل، وعلم مصطلحات تصنيف الأحاديث، وعلم الرواية والدراية إلخ....، وقد وجدت الكتب الكثيرة في هذا المجال منها: موطأ مالك، ومسند أحمد بن حنبل، وصحيح البخاري ومسلم، وسنن ابن ماجه إلخ....

ثالثًا: اللغة العربية:

نشأت علوم متعددة حول اللغة العربية لغة القرآن الكريم منها: علم النحو والصرف، وعلم البلاغة، وعلم فقه اللغة، ومعاجم اللغة لحفظ معاني الكلمات وعلم البديع والبيان إلخ....

رابعًا: الفقه:

نشأ الفقه تلبية لحاجات المجتمع الإسلامي، وتبلورت مدرستان: مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، الأولىٰ في العراق والثانية في الحجاز، ونشأت علوم متعددة حول الفقه أبرزها: أصول الفقه الذي يعتبر «رسالة الشافعي» الأساس الأول فيه، وعلم الخاص والعام، والمطلق والمقيد، والقياس، والإجماع، والاستحسان إلخ....

إذن كان الكيان الثقافي ينمو في كل جوانبه دليلًا ومؤشرًا علىٰ نمو الكيان الإسلامي.

إن البناء الثقافي للأمة الإسلامية قد مرّ بتطورات علىٰ مدىٰ التاريخ، وكان لهذا التطور أثره علىٰ البناء النفسي والعقلي للفرد المسلم، ونحن سنرصد هذا التطور من خلال فرعين فقط من فروع الثقافة الإسلامية كي لا يكون هناك تطويل وإملال هما: العقيدة والفقه، وسنترك رصد التطورات في الفروع الثقافية الأخرىٰ إلىٰ مناسبة قادمة.

ونحن قبل أن نرصد هذا التطور في هذين الفرعين سنقدّم فهمًا للعقيدة نزعم أنه يقارب فهم الصحابة؛ لأنه اعتمد المصدرين اللذين تعامل الصحابة معهما وهما القرآن والسنة، ثم سنبين دور هذه العقيدة في البناء النفسي للمسلم ثم سندرس التطور الذي طرأ علىٰ هذه العقيدة، وسنرصد أثر هذا التطور علىٰ البناء النفسي للمسلم. فلننتقل إذن إلىٰ رصد العقيدة كما جاءت في القرآن والسنة، ولنستخرج صورة لها.



إذا مشينا مع كتب العقائد واعتبرنا أن العقيدة هي الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء والقدر، فلندرس كل ركن من هذه الأركان ولنرَ دوره في البناء النفسي للمسلم.

الركن الأول: الإيمان بالله كما وردت في القرآن والسنة أنهما يقرران فطرية معرفة الله –سبحانه وتعالىٰ–، وأن الله –تعالىٰ– غرس الإيمان به في النفس البشرية، وأنشأها عليه، لذلك فهي تعرف ربها بالفطرة، وتتجه إليه بالبداهة، وقد وردت عدة آيات كريمة وأحاديث شريفة تؤكد هذا المعنىٰ فقال تعالىٰ:

﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَـٰذَا غَـٰفِلِينَ﴾[1].

وقد أبرز القرآن في عدة سور معرفة المشركين لربهم، فقال تعالىٰ:

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾[2].

﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ

(١) (سورة الأعراف: الآية١٧٢).

(٢) (سورة الزخرف: الآية٩).

﴿ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة، –وفي رواية: على هذه الملة– فأبواه يهوّدانه وينصرّانه ويمجّسانه كما تولد بهيمة جمعاء هل تحسون فيها من جدعاء».

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال: قال رسول الله ﷺ: «يقول الله: إني خلقت عبادي حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم».

كما أكد القرآن الكريم نبذ المشركين لآلهتهم المدعاة، وتوحيدهم الله، وتوجههم إليه وحده في الأزمات الصعبة التي تصفو فيها الفطرة، وتتخلص من الركام الذي علق بها فقد قال تعالى:

﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَانَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣) قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴾[2].

﴿ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٢٢) فَلَمَّا أَنجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ۗ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَاعَ

---

(١) (سورة لقمان: الآية ٢٥).

(٢) (سورة الأنعام: الآية ٦٣، ٦٤).

ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ ﴾[1].

﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴾[2].

وهذا وضع طبيعي طالما أن الله –تعالىٰ- أخبرنا أن المخلوقات الأخرىٰ تصلي وتسبح وتسجد لله –تعالىٰ- فقال تعالىٰ:

﴿وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ۗ ﴾[3].

﴿كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُۥ وَتَسْبِيحَهُۥ ۗ ﴾[4].

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾[5].

﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ﴾[6].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾[7].

﴿ وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن دَآبَّةٍ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[8].

---

(١) (سورة يونس: الآيتان٢٢-٢٣).

(٢) (سورة العنكبوت: الآية٦٥).

(٣) (سورة الإسراء: الآية٤٤).

(٤) (سورة النور: الآية٤١).

(٥) (سورة الحديد: الآية١).

(٦) (سورة الجمعة: الآية١).

(٧) (سورة الرعد: الآية١٥).

(٨) (سورة النحل: الآية٤٩).

وليس من شك بأن قيام المخلوقات بأعمال السجود لله والصلاة والتسبيح يدل علىٰ ما هو أبعد من الإقرار بوجود الله، يدل علىٰ إقرار ببعض صفاته –تعالىٰ– التي تؤهله لأن يُسجَد له –تعالىٰ– ويُسبِّح ويُصلِّي.

وإنه لأمر بديهي أن يعرف الإنسان بعض صفات الله وهو الأرقىٰ من كل المخلوقات المحيطة به مثل: أنه خالق، قادر، رزّاق –بشكل فطري.

وإلا فكيف يمكن أن يكون إلهًا دون أن يكون موصوفًا بالصفات السابقة؟ هذا ما تأباه الفطر السليمة.

لم يكتف الإسلام بالمعرفة الفطرية لصفات الرب سبحانه وتعالىٰ، بل أكدها من جهة، وفصّل فيها كل من القرآن الكريم والسنة المشرفة من جهة ثانية.

ونحن سنتناول بعضًا من هذه الصفات التي يمكن أن يهتدي إليها الإنسان بفطرته، وسنبيّن كيف عرضها القرآن من جهة، ونتائج ذلك العرض من جهة ثانية.

فصفة الخلق مثلًا، الإنسان –أي إنسان– يعرف بفطرته أن الله خلق الأرض، وخلق السماوات، وخلق الإنسان، وخلق كل المخلوقات التي تدب علىٰ الأرض، ولكن القرآن والسنة وصفا الله –سبحانه وتعالىٰ– بهذه الصفة، وفصّلا فيها، فكيف فصّلا؟ وما دور ذلك في البناء النفسي؟

ونحن من أجل توضيح ذلك سنتناول كلام الإسلام عن خلق الله سبحانه وتعالىٰ للسماوات والأرض وللشمس والقمر والإنسان.

١ - خلق السماوات والأرض:

بينت آيات القرآن الكريم أن الله –تعالىٰ- هو الذي خلق السماوات والأرض، قال تعالىٰ:

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1].

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[2].

وقد أشارت بعض الآيات إلىٰ أن خلق السماوات والأرض كان بالحق، قال تعالىٰ:

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ﴾[3].

﴿خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ تَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾[4].

﴿خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۚ﴾[1].

---

(١) (سورة الأنعام: الآية١).

(٢) (سورة الأنعام: الآية٧٣).

(٣) (سورة إبراهيم: الآية ١٩).

(٤) (سورة النحل: الآية ٣).

﴿ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ ﴾[2].

﴿ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَصَوَّرَكُمۡ فَأَحۡسَنَ صُوَرَكُمۡۖ ﴾[3].

وقد نفت آيات أخرىٰ الباطل واللعب في خلق السماوات والأرض، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا، قال تعالىٰ:

﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴾[4].

﴿ وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴾[5].

وقد أوضحت بعض آيات في القرآن الكريم مراحل خلق السماوات والأرض، فذكرت أن الله خلق الأرض في يومين، وقدّر الأقوات في يومين، وخلق السماوات في يومين، قال تعالىٰ:

﴿ قُلۡ أَئِنَّكُمۡ لَتَكۡفُرُونَ بِٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡأَرۡضَ فِي يَوۡمَيۡنِ وَتَجۡعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ ذَٰلِكَ رَبُّ

---

(١) (سورة العنكبوت: الآية ٤٤٩).

(٢) (سورة الجاثية: الآية ٢٢).

(٣) (سورة التغابن: الآية ٣).

(٤) (سورة ص: الآية ٢٧).

(٥) (سورة الدخان: الآيتان ٣٨، ٣٩).

ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ ﴿١٠﴾ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴿١١﴾ فَقَضَىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَاتٍ فِى يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِى كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا ۚ وَزَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَحِفْظًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[١].

وقد أجملت آيات كريمة أخرى خلق السماوات والأرض، وبيّنت أن ذلك تم في ستة أيام، قال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾[٢].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۗ وَلَئِن قُلْتَ إِنَّكُم مَّبْعُوثُونَ مِنۢ بَعْدِ ٱلْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾[٣].

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ مَا لَكُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا شَفِيعٍ ۚ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴾[٤].

---

(١) (سورة فصّلت: الآيتان ٩ ، ١٢).

(٢) (سورة يونس: الآية ٣).

(٣) (سورة هود: الآية ٧).

(٤) (سورة السجدة: الآية ٤).

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا ﴾[1].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾[2].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾[3].

وقد أعطت بعض الأحاديث الشريفة تفصيلات أكثر عن أزمان المخلوقات فذكرت أن الله تعالىٰ: خلق الأرض يوم الأحد، والجبال يوم الإثنين إلخ... والإنسان يوم الجمعة.

عندما يعلم المسلم أن الله –تعالىٰ– خلق السماوات والأرض من العدم بكلمة كن فكان هذا الخلق العظيم، يعظم الله تعالىٰ لما يراه ويحسه من هذا الخلق العظيم ويحبه؛ لأنه سخّر له هذه الأرض، ويثق فيه لضخامة هذه المخلوقات ودقة نظامها.

إن المعلومات الأخرىٰ التي تعطينا إياها الآيات السابقة بالإضافة إلىٰ أن الله

---

(١) (سورة الفرقان: الآية ٥٩).

(٢) (سورة ق: الآية ٣٨).

(٣) (سورة الحديد: الآية ٤).

سبحانه وتعالىٰ خلق السماوات والأرض لها دور في البناء النفسي فعندما يعلم المسلم أن الله سبحانه وتعالىٰ خلق السماوات بالحق وبعيدًا عن اللعب والباطل، يزداد خضوعًا لله واستسلامًا لأوامره سبحانه وتعالىٰ، وعندما يعلم أن الله –تعالىٰ– خلق الأرض في يومين، وقدّر فيها أقواتها في يومين، وخلق السماوات والأرض في يومين، وأن مجموع الأيات التي تم فيها خلق السماوات والأرض ستة أيام يزداد ثقة بالله تعالىٰ.

٢- الشمس والقمر:

تحدثت آيات متعددة عن الشمس والقمر، فبينت آية أن الله –تعالىٰ– جعل حركة الشمس والقمر بحساب دقيق، وأنهما يفيدان في الحساب للناس فقال –تعالىٰ–:

﴿ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ﴾[(١)].

﴿ ٱلشَّمۡسُ وَٱلۡقَمَرُ بِحُسۡبَانٖ ﴾[(٢)].

كما بين –تعالىٰ– في آيات أخرىٰ أن الشمس والقمر والنجوم خاضعة له –تعالىٰ– ومسخرة في حركتها بأمره –تعالىٰ– فقال تعالىٰ:

﴿وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتِۭ بِأَمۡرِهِۦٓۗ ﴾[(٣)].

---

(١) (سورة الأنعام: الآية ٩٦).

(٢) (سورة الرحمن: الآية٥).

(٣) (سورة الأعراف: الآية ٥٤).

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[1].

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِيٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾[2].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ ۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾[3].

﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ وَٱلنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓ ﴾[4].

كما تحدثت آيات أخرىٰ عن حركة الشمس والقمر فقال –تعالىٰ–:

﴿ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴾[5].

﴿ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴾[6].

كما تحدثت آيات أخرىٰ عن أن الله جعل القمر منيرًا وجعل الشمس مضيئة فقال تعالىٰ:

﴿وَجَعَلَ ٱلْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ ٱلشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[7].

---

(١) (سورة الرعد: الآية ٢).

(٢) (سورة لقمان: الآية ٢٩).

(٣) (سورة إبراهيم: الآية ٣٣).

(٤) (سورة النحل: الآية ١٢).

(٥) (سورة يس: الآية ٣٨).

(٦) (سورة يس: الآية٤٠).

(٧) (سورة نوح: الآية ١٦).

﴿ وَمِنْ ءَايَـٰتِهِ ٱلَّيْلُ وَٱلنَّهَارُ وَٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴾[1].

المسلم يعلم بفطرته أن الله هو الذي خلق الشمس والقمر، لكن الآيات تعطينا معلومات إضافية حول الشمس والقمر في أنهما مسخران بامر الله، وأنهما مفيدان في الحساب، وأن الشمس مصدر ضياء والقمر مصدر نور، وأنهما يجريان لأجل مسمىٰ، وأن الشمس تجري لمستقر لها.

إن الحقائق السابقة تجعل المسلم يعظم الله –تعالىٰ–؛ لأنه خلق هذا الخلق العظيم، ويحب الله –تعالىٰ–؛ لأنه سخّر هذين المخلوقين للإنسان الأول بضيائه والثاني بنوره، ويحبه أيضًا لأنهما مصدر حساب الأيام والشهور، ويثق بالله –تعالىٰ– لأن حركة الشمس والقمر دائبة لا تفتر ولا تتوقف وهي في منتهىٰ القدة.

٣- الليل والنهار:

بينت بعض الآيات في القرآن الكريم أن الله –تعالىٰ– خلق الليل والنهار مختلفين لحكمة هي إمكانية النوم في الليل والانتشار في النهار فقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ فِى ٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَّقُونَ ﴾[2].

﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ﴾[3].

---

(١) (سورة فصّلت: الآية ٣٧).

(٢) (سورة يونس: الآية٦).

(٣) (سورة يونس: الآية ٦٧).

﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ۖ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾[1].

كما بينت آيات أخرىٰ كيفية تعاقب الليل والنهار، وأنه يدخل –تعالىٰ– الليل في النهار والنهار في الليل فقال تعالىٰ:–

﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴾[2].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ وَلَهُ ٱخْتِلَٰفُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ ﴾[3].

﴿يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴾[4].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا ﴾[5].

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴾[6].

﴿ أَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا ٱلَّيْلَ لِيَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَٱلنَّهَارَ مُبْصِرًا ۚ ﴾[7].

﴿ وَمِن رَّحْمَتِهِۦ جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا۟ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ ﴾[8].

---

(١) (سورة الإسراء: الآية ١٢).

(٢) (سورة الحج: الآية ٦١).

(٣) (سورة المؤمنون: الآية ٨٠).

(٤) (سورة النور: الآية ٤٤).

(٥) (سورة الفرقان: الآية ٤٧).

(٦) (سورة الفرقان: الآية ٦٢).

(٧) (سورة النمل: الآية ٨٦).

(٨) (سورة القصص: الآية ٧٣).

﴿ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓ ﴾[1].

﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾[2].

﴿يُولِجُ ٱلَّيۡلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيۡلِ﴾[3].

﴿ وَءَايَةٞ لَّهُمُ ٱلَّيۡلُ نَسۡلَخُ مِنۡهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظۡلِمُونَ ﴾[4].

﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيۡلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيۡلِۖ﴾[5].

إن المسلم يعظم الله –تعالىٰ-؛ لأنه خلق آيتي الليل والنهار المختلفتين: فإحداهما مضيئة، والأخرىٰ معتمة، ويعظمه تعالىٰ لتتابعهما المستمر حيث يدخل –تعالىٰ- الليل في النهار، ويدخل النهار في الليل فيمحوه، ويكوّر أحدهما علىٰ الآخر، ويقلبهما، ويحبه تعالىٰ لأنه جعل الليل كاللباس الذي يلف الناس جميعهم فسيكنون فيه، ولأنه جعل النهار مضيئًا فيتحرك الإنسان في ضيائه ويحصل الرزق الذي كتبه الله له.

٤- خلق الإنسان:

وضحت الآيات القرآنية أن الله –تعالىٰ- خلق الإنسان من طين فقال – تعالىٰ-:

(١) (سورة الروم: الآية ٢٣).

(٢) (سورة لقمان: الآية ٢٩).

(٣) (سورة فاطر: الآية ١٣).

(٤) (سورة يس: الآية ٣٧).

(٥) (سورة الزمر: الآية ٥).

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴾[1].

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَـةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِـيمٌ مُّبِينٌ ﴾[2].

﴿ أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّـا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِـيمٌ مُّبِينٌ ﴾[3].

﴿أَوَلَا يَذْكُرُ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْـًٔا ﴾[4].

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَـا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن سُلَـٰلَةٍ مِّن طِينٍ ﴾[5].

﴿ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِن صَلْصَـٰلٍ كَٱلْفَخَّـارِ ﴾[6].

﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَـٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَـا ٱلْإِنسَـٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَـٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[7].

﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾[8].

وقد بينت آيات أخرىٰ أن الله –تعالىٰ– أخبر الملائكة باستخلاف آدم –عليه السلام–، وبين سبب ذلك فقال –تعالىٰ–:

(١) (سورة الحجر: الآية ٢٦).

(٢) (سورة النحل: الآية ٤).

(٣) (سورة يس: الآية ٧٧).

(٤) (سورة مريم: الآية ٦٧).

(٥) (سورة المؤمنون: الآية ١٢).

(٦) (سورة الرحمن: الآية ١٤).

(٧) (سورة الإنسان: الآيتان ١–٢).

(٨) (سورة التين: الآية ٤).

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[1].

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا۟ لِـَٔادَمَ فَسَجَدُوٓا۟ إِلَّآ إِبْلِيسَ﴾[2].

﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَـٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾[3].

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّي خَـٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَـٰجِدِينَ﴾[4].

﴿قَالَ يَـٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ﴾[5].

كما بينت آيات أخرىٰ بعض مراحل خلق الإنسان وتحدثت عن مبدأ الزوجية فقال -تعالىٰ-:

---

(١) (سورة البقرة: الآيات ٣٠-٣٣).

(٢) (سورة الكهف: الآية ٥٠).

(٣) (سورة الحجر: الآية ٢٨).

(٤) (سورة ص: الآيتان ٧١-٧٢).

(٥) (سورة ص: الآية٧٥).

﴿وَقَدۡ خَلَقَكُمۡ أَطۡوَارًا﴾[1].

﴿ثُمَّ خَلَقۡنَا ٱلنُّطۡفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡعَلَقَةَ مُضۡغَةً فَخَلَقۡنَا ٱلۡمُضۡغَةَ عِظَٰمًا فَكَسَوۡنَا ٱلۡعِظَٰمَ لَحۡمًا﴾[2].

﴿وَمِن كُلِّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَا زَوۡجَيۡنِ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ﴾[3].

﴿يَخۡلُقُكُمۡ فِي بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ خَلۡقًا مِّنۢ بَعۡدِ خَلۡقٍ فِي ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ﴾[4].

﴿فَإِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطۡفَةٍ ثُمَّ مِنۡ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضۡغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيۡرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمۡۚ﴾[5].

عندما يعلم الإنسان أن الله خلق آدم من طين وأنه مر في أطوار منها أنه كان صلصالًا من ماء مسنون في إحدىٰ المراحل وأنه كان صلصالًا كالفخار في مرحلة ثانية، ثم جاءت نفخة الروح فأصبح هذا الإنسان الذي يسمع ويبصر ويحس ويعقل ويتحرك إلخ.......

لا شك أن الإنسان عندما يتأمل الهوة الكبيرة التي ابتدأ به خلقه وبين ما انتهىٰ إليه يعظم الله.

---

(١) (سورة نوح: الآية ١٤).

(٢) (سورة المؤمنون: الآية ١٤).

(٣) (سورة الذاريات: الآية ٤٩).

(٤) (سورة الزمر: الآية ٦).

(٥) (سورة الحج: الآية ٥).

وعندما يدرك المراحل التي يمر بها خلق الإنسان والتي تحدث عنها القرآن وأنه ينتقل في ظلمات ثلاث من نطفة فعلقة فمضغة مخلقة وغير مخلقة فعظام فلحم يكسو العظام يعظم الله –تعالىٰ– علىٰ هذه القدرة.

وعندما يعلم أن الله –تعالىٰ– خلق له زواجًا من نفسه رحمة به ليسكن إليها يحب الله –تعالىٰ– نتيجة هذه النعمة.

وعندما يعلم أن الله –تعالىٰ– خلق الزوجين الذكر والأنثىٰ وأن مبدأ الزوجية يعم سائر المخلوقات من نبات وحيوان يعظم الله –تعالىٰ– ويثق به لهذا الإتساق في نظام الكون.

وعندما يعلم أن الإنسان هو خليفة الله في الأرض، وأن الله أسجد الملائكة لجده آدم ورفض إبليس السجود له بحجة أنه مخلوق من نار وهو أشرف من آدم المخلوق من طين، يعظم الله ويحبه علىٰ هذا التكريم، يجتهد في الخضوع له سبحانه وتعالىٰ، ويجتهد في اتخاذ الشيطان عدوًا له.

الخلاصة: أن الصفات والأفعال التي عرفها المسلم عن طريق فطرته، لم تبق علىٰ إجمالها وعمومها، بل جاء الوحي بتفصيلات فيها، وكان للجميع: الصفات والتفصيلات دور في البناء النفسي كما لاحظنا في العرض السابق.

صفات وأفعاله لله تعالىٰ عرفها المسلم عن طريق الوحي:

الصفات:

أخبر الله –تعالىٰ– عن صفات أخرىٰ غير التي يمكن أن يهتدي الإنسان إليها بفطرته من مثل: أنّ له –تعالىٰ– كرسيًا، وأنّ له عرشًا، وأنه كتب علىٰ نفسه الرحمة، وأن له –تعالىٰ– يدًا، وأنه حرّم الظلم علىٰ نفسه، وأنه جبّار. ولنستعرض بعض هذه الصفات:

١ – كتب علىٰ نفسه الرحمة:

قال تعالىٰ: ﴿كَتَبَ عَلَىٰ نَفۡسِهِ ٱلرَّحۡمَةَۚ﴾[1].

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «كتب ربكم علىٰ نفسه بيده قبل أن يخلق الخلق: رحمتي سبقت غضبي»[2].

٢– تحريم الظلم علىٰ نفسه:

فقد نقل أبو ذر عن النبي ﷺ أنه قال فيما يرويه عن ربه: «يا عبادي إني حرّمت الظلم علىٰ نفسي وجعلته بينكم محرمًا فلا تظالموا»[3].

٣– العرش:

---

(١) (سورة الأنعام: الآية ١٢).

(٢) سنن ابن ماجه. باب: فيما أنكرت الجهمية. حديث (١٨٩).

(٣) صحيح مسلم. كتاب الظلم. باب: في تحريم الظلم والأمر بالاستغفار والتوبة.

قال تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1].

وقال أيضًا: ﴿ذُو ٱلۡعَرۡشِ ٱلۡمَجِيدُ ۝١٥ فَعَّالٞ لِّمَا يُرِيدُ﴾[2].

٤- الكرسي:

قال تعالىٰ: ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ﴾[3].

٥- الوجه:

قال تعالىٰ: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥۚ﴾[4].

٦- اليد:

قال تعالىٰ: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ﴾[5].

أثر هذه الصفات في البناء النفسي للمسلم:

عندما يعلم المسلم أن الله -تعالىٰ- كتب الرحمة علىٰ نفسه، وعندما يعلم أنه حرم الظلم علىٰ نفسه يحبه تعالىٰ ويعظمه تعالىٰ ويخضع له تعالىٰ، وعندما يعلم أن له عرشًا كبيرًا ليست السماوات والأرض إلىٰ جانبه إلا كحلقة في فلاة يعظم الله تعالىٰ لخلقه هذا العرش، وعندما يعلم أن له -تعالىٰ- كرسيًا يسع السماوات والأرض يعظم الله تعالىٰ، وعندما يعلم أنه له -تعالىٰ- وجهًا ويدين يعلم أنه يعبد

(١) (سورة طه: الآية ٥).

(٢) (سورة البروج: الآيتان ١٥-١٦).

(٣) (سورة البقرة: الآية ٢٥٥).

(٤) (سورة القصص: الآية٨٨).

(٥) (سورة الفتح: الآية ١٠).

ربًا لا عدمًا.

❁ ❁ ❁ ❁

الأفعال:

عرض القرآن الكريم والأحاديث الشريفة لكثير من أفعال الله –تعالىٰ– ونحن سنبين بعضًا من هذه الأفعال في المجالات التالية: الكون، المؤمنين، الكافرين، مجالات أخرىٰ متفرقة، علىٰ سبيل المثال لا الحصر لأفعاله –تعالىٰ–:

أولًا: في مجال الكون:

تحدثت كثير من الآيات عن أفعال كثيرة لله –تعالىٰ– فهو –تعالىٰ– بنىٰ السماء وزينها وحفظها، ومد الأرض، وأرسل الرياح، وأنزل المطر، وأسقاه للإنسان، وأنبت النبات الخ........

فقال تعالىٰ:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّـٰهَا لِلنَّـٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظْنَـٰهَا مِن كُلِّ شَيْطَـٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسْتَرَقَ ٱلسَّمْعَ فَأَتْبَعَهُۥ شِهَابٌ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾[1].

﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا (٦) وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا (٧) وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا (٨) وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتًا (٩) وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا (١٠) وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا (١١) وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا (١٢) وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا (١٣) وَأَنزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا (١٤) لِّنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا (١٥) وَجَنَّاتٍ أَلْفَافًا﴾[2].

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ﴾[3].

﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ﴾[4].

﴿يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾[5].

إلخ.......

أثر هذه الأفعال في البناء النفسي للمسلم:

عندما يعلم المسلم أن الله هو الذي مد الأرض وهو الذي ألقىٰ الرواسي فيها من أجل حفظ توازنها كالأوتاد، وهو الذي نزل المطر الذي يحيي الأرض، وهو الذي بنىٰ سبع سماوات، وزين السماء الدنيا بنجوم كالمصابيح، وهو الذي

---

(١) (سورة الحجر: الآيات:١٦-٢٢).

(٢) (سورة النبأ: الآيات:٦-١٦).

(٣) (سورة ق: الآية٦).

(٤) (سورة ق: الآية٩).

(٥) (سورة الأعراف: الآية٥٧).

أنبت الأرض بالأزواج البهيجة، عندما يعلم المسلم كل هذا يعظم الرب لأنها أفعال عظيمة، ويحبه –تعالىٰ– لأنه استفاد منها، مثل إنزال المطر وإنبات النبات وتزيين السماء إلخ......

ثانيًا: أفعال أخرىٰ لله –تعالىٰ– في مجالات متفرقة:

١- نزوله تعالىٰ:

حدّث أبو هريرة –رضي الله عنه– عن النبي ﷺ أنه قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالىٰ كل ليلة إلىٰ السماء الدنيا حين يبقىٰ ثلث الليل الآخر يقول: من يدعوني فأستجيب له، من يسألني فأعطيه، من يستغفرني فأغفر له»[1].

٢- اتخاذه إبراهيم خليلًا:

قال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴾[2].

٣- ضحكه تعالىٰ:

عن أبي هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله يضحك إلىٰ رجلين يقتل أحدهما الآخر. كلاهما دخل الجنة. يقاتل هذا في سبيل الله فيستشهد، ثم يتوب الله علىٰ قاتله، فيسلم، فيقاتل في سبيل الله فيستشهد»[3].

٤- شهوده تعالىٰ أعمال العباد:

---

(١) صحيح البخاري . كتاب التهجد. باب الدعاء والصلاة من آخر الليل.

(٢) (سورة النساء: الآية١٢٥).

(٣) سنن ابن ماجه، باب فيما أنكرت الجهمية. الحديث ١٩١.

قال تعالىٰ: ﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُواْ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ﴾[1].

إلخ.....

أثر هذه الأفعال في البناء النفسي للمسلم:

عندما يعلم المسلم أن الله ينزل في الثلث الأخير من الليل يجيب حاجات عباده، وأنه اتخذا إبراهيم خليلًا، وأنه يشهد علىٰ عباده وهم يعلمون، وأنه تعالىٰ يضحك، يعظم هذا الرب ويحبه ويخضع له، ويقول كما قال الأعرابي عندما سمع أن الله يضحك قال: لن نعدم خيرًا من رب يضحك.

ثالثًا: أفعاله تعالىٰ نحو المؤمنين:

١- من يحبهم -تعالىٰ- ومن لا يحبهم:

فصّل القرآن في كثير من سوره الحديث عن من يحبهم تعالىٰ ومن لا يحبهم، فبيّن تعالىٰ أنه يحب المحسنين والمتقين والصابرين والمتوكلين والمقسطين فقال تعالىٰ:

﴿ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾[2].

﴿ وَمَا ضَعُفُواْ وَمَا ٱسْتَكَانُواْ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴾[3].

---

(١) (سورة يونس، الآية٦١).

(٢) (سورة آل عمران، الآية١٣٤).

(٣) (سورة آل عمران، الآية١٤٦).

﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ﴾[1].

﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾[2].

﴿وَكُلُواْ وَٱشْرَبُواْ وَلَا تُسْرِفُوٓاْۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3].

٢- نصره تعالىٰ لهم:

قال تعالىٰ:﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ﴾[4].

وقال أيضًا: ﴿وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾[5].

وقال أيضًا: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[6].

ولايته تعالىٰ لهم:

قال تعالىٰ:﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ﴾[7].

أثر هذه الأفعال في البناء النفسي:

عندما يعلم المسلم أن الله يحب المحسنين ويحب الصابرين ويحب المتوكلين

---

(١) (سورة آل عمران: الآية١٥٩).

(٢) (سورة المائدة: الآية٤٢).

(٣) (سورة الأعراف: الآية٣١).

(٤) (سورة غافر: الآية٥١).

(٥) (سورة النساء: الآية١٤١).

(٦) (سورة الروم: الآية٤٧).

(٧) (سورة محمد: الآية ١١).

والمقسطين ولا يحب المسرفين، وأنه –تعالىٰ- يوالي المؤمنين وينصرهم، يعظم الله، ويحبه تعالىٰ، ويحرص علىٰ نيل حبه بفعل هذه الأفعال المحبوبة، والابتعاد عن عكسها.

رابعًا: أفعاله تعالىٰ نحو الكافرين:

١- الاستهزاء بهم:

قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾[(١)].

٢- المكر بهم:

قال تعالىٰ: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴾[(٢)].

٣- الإملاء لهم:

قال تعالىٰ: ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾[(٣)].

٤- استدراجهم:

قال تعالىٰ: ﴿ فَذَرْنِي وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾[(٤)].

٥- عدم حبه للكافرين والمفسدين:

---

(١) (سورة البقرة: الآية ١٥).

(٢) (سورة الأنفال: الآية ٣٠).

(٣) (سورة الأعراف: الآية ١٨٣).

(٤) (سورة القلم: الآية ٤٤).

وبين أنه لا يحب المفسدين والمعتدين والمسرفين والفرحين والكافرين إلخ... فقال تعالىٰ:

﴿وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ﴾[1].

﴿وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[2].

﴿وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ﴾[3].

﴿إِذْ قَالَ لَهُۥ قَوْمُهُۥ لَا تَفْرَحْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْفَرِحِينَ﴾[4].

﴿لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن فَضْلِهِۦٓ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[5].

٦- الكيد لهم:

قال تعالىٰ: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ ٱلْكَٰفِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًۢا﴾[6].

أثر هذه الأفعال في البناء النفسي للمسلم:

عندما يعلم المسلم أن الله يستهزئ بالكافرين ويمكر بهم تعالىٰ، وأن هذا

---

(١) (سورة القصص: الآية ٧٧).

(٢) (سورة المائدة: الآية ٨٧).

(٣) (سورة الأعراف: الآية ٣١).

(٤) (سورة القصص: الآية ٧٦).

(٥) (سورة الروم: الآية ٤٥).

(٦) (سورة الطارق: الآيات ١٥-١٧).

العطاء الدنيوي إنما هو إملاء واستدراج –يعظّمه تعالىٰ ويحبه، ويثق أن معركته مع هؤلاء الكافرين ليست بينه وبينهم فحسب، إنما هي بين الله والمؤمنين من جهة والكافرين من جهة ثانية.

وعندما يعلم الناس الذين لا يحبهم الله –تعالىٰ– وهم: الظالمون والكافرون والمفسدون والمسرفون والفرحون إلخ.... يجتهد في عدم حب من لا يحبه الله تعالىٰ، ويحرص علىٰ الابتعاد عن هذه الأفعال كي لا يقع في دائرة عدم حب الله تعالىٰ.

المشاكل التي تهدد الإيمان بالله تعالىٰ:

أبرز القرآن مشاكل تتهدد الإيمان بالله وتوحيده وصفاته التي عرفها عن طريق الفطرة وعن طريق الوحي، وأصابت الأمم السابقة، وعرضها القرآن الكريم والحديث الشريف من أجل أن تحذر منها أمة محمد ﷺ، وهذه المشاكل هي:

١ – مشكلة الشرك بالله تعالىٰ.

٢– مشكلة كيفية الصلة بالله تعالىٰ.

٣– مشكلة الوسائط إلىٰ الله تعالىٰ.

وسنرىٰ كيف عرض الإسلام كل مشكلة من المشاكل السابقة وما الذي دعا إليه.

١ - مشكلة الشرك:

كان الشرك أصلًامن أصول حياة العرب في الجزيرة العربية، وفي الشعوب المحيطة بهم كفارس والروم، لذلك كانت دعوة الإسلام إلىٰ أن الله واحد أحد دعوة مستغربة، فنقل القرآن استغرابهم فحكىٰ عنهم قولهم:

﴿ أَجَعَلَ ٱلْءَالِهَةَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عُجَابٌ ﴿٥﴾ وَٱنطَلَقَ ٱلْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ ٱمْشُوا۟ وَٱصْبِرُوا۟ عَلَىٰٓ ءَالِهَتِكُمْ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ يُرَادُ ﴿٦﴾ مَا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِى ٱلْمِلَّةِ ٱلْءَاخِرَةِ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾[1].

نزل علىٰ الرسول ﷺ في المدينة قوله تعالىٰ: ﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ ﴾[2]، فقال كفار قريش: كيف يسع الناس إله واحد؟ فأنزل الله تعالىٰ قوله: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾[3].

وقد وجه القرآن الكريم نظر الناس إلىٰ اتساق ظواهر الطبيعة وتكاملها، وعدم تعارضها وعدم تنافرها مما يدل علىٰ الله الواحد الأحد، وإلا لو كان هناك أكثر من إله لتصادمت مفردات الكون ولاختلت مسيرته، وفي هذا الاتساق وعدم التصادم آيات لقوم يعقلون. فالأمر يحتاج إلىٰ عقل الظواهر المحيطة به كي

(١) (سورة ص: الآيات٥-٧).

(٢) (سورة البقرة: الآية ١٦٣).

(٣) (سورة البقرة: الآية ١٦٤).

يكتشف الإنسان هذه الوحدانية وكي يكتشف تهافت الشرك.

وقد بين القرآن أن الشرك أعظم الذنوب فقال تعالىٰ: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ ﴾[1].

وبين أسبابه وهو الهوىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾[2].

ولذلك دعا الإسلام إلىٰ عبادة الله وحده، فقال تعالىٰ:

﴿ الٓر كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ۝١ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ ۚ إِنَّنِى لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ ﴾[3].

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ﴾[4].

وقد مضىٰ الإسلام خطوة أبعد في نبذ الشرك وإقامة التوحيد فاعتبر أن الخوف والرجاء والتعظيم والخضوع يجب أن تكون لله وحده، واعتبر أن الخوف والرجاء والتعظيم والرجوع لغير الله شرك يجب أن يبتعد المسلم عنه، ستكون النتيجة الطبيعية لهذا التوحيد هو توحد النفس المسلمة، وتجمع طاقاتها، وابتعادها

(١) (سورة النساء: الآية ٤٨).

(٢) (سورة الجاثية: الآية ٢٣).

(٣) (سورة هود: الآيتان ١، ٢).

(٤) (سورة الإسراء: الآية ٢٣).

عن التمزق[1].

وقد فصلت السنة المشرفة أنواع الشرك فذكرت منها: الشرك الأصغر، والشرك الخفي، وحذر الرسول ﷺ أصحابه من أي تصرّف يمكن أن يكون مدخلًا إلىٰ الشرك كما حدث في واقعة ذات أنواط.

٢- مشكلة كيفية الصلة بالله تعالىٰ:

كان اعتقاد حلول الله في إنسان أو في مخلوق أمرًا سائغًا ومنتشرًا لدىٰ الأمم السابقة علىٰ مجيء الإسلام، فقد كان العرب الجاهليون يعتقدون أن الملائكة بنات الله، كما كان النصارىٰ يعتقدون أن المسيح ابن الله، وكان اليهود يعتقدون أن العزير ابن الله، كما كانت بعض الأمم الأخرىٰ المعاصرة تعتقد أن الله حال في كل مخلوقات الكون مثل البراهمة والزردشتية، وقد عرض القرآن هذه الانحرافات جميعها وردّ عليها.

فقال عن العربي الجاهليين:

﴿ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْۖ وَخَرَقُواْ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتِۭ بِغَيْرِ عِلْمٍۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴾[2].

ورد القرآن عليهم في الآية التي بعدها فقال تعالىٰ:

﴿ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍۖ وَهُوَ

(١) انظر تفصيل هذا الموضوع في كتابي: «مجال العقيدة- نقد وعرض».

(٢) (سورة الأنعام: الآية ١٠٠).

﴿بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾[1].

كما أوضح القرآن افتراء المشركين على الله في نسبتهم البنات له وفي ادعائهم ولادته، وفي عقد صلة بينه وبين الجن، تعالىٰ الله عن ذلك علوًا كبيرًا، ورد عليهم وطلب الدليل علىٰ أقوالهم المزعومة فقال تعالىٰ:

﴿فَٱسۡتَفۡتِهِمۡ أَلِرَبِّكَ ٱلۡبَنَاتُ وَلَهُمُ ٱلۡبَنُونَ ﴿١٤٩﴾ أَمۡ خَلَقۡنَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةَ إِنَٰثٗا وَهُمۡ شَٰهِدُونَ ﴿١٥٠﴾ أَلَآ إِنَّهُم مِّنۡ إِفۡكِهِمۡ لَيَقُولُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَدَ ٱللَّهُ وَإِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٥٢﴾ أَصۡطَفَى ٱلۡبَنَاتِ عَلَى ٱلۡبَنِينَ ﴿١٥٣﴾ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ﴿١٥٤﴾ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٥﴾ أَمۡ لَكُمۡ سُلۡطَٰنٞ مُّبِينٞ ﴿١٥٦﴾ فَأۡتُواْ بِكِتَٰبِكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿١٥٧﴾ وَجَعَلُواْ بَيۡنَهُۥ وَبَيۡنَ ٱلۡجِنَّةِ نَسَبٗاۚ وَلَقَدۡ عَلِمَتِ ٱلۡجِنَّةُ إِنَّهُمۡ لَمُحۡضَرُونَ ﴿١٥٨﴾ سُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٥٩﴾﴾[2].

كما عرض القرآن في المجال نفسه ضلال اليهود والنصارىٰ في ادعائهم بنوة المسيح والعزيز إلىٰ الله فقال:

﴿وَقَالَتِ ٱلۡيَهُودُ عُزَيۡرٌ ٱبۡنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۚ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾[3].

كما روىٰ القرآن الكريم ضلال اليهود والنصارىٰ في ادعائهم بنوّتهم لله

---

(١) (سورة الأنعام: الآية ١٠١).

(٢) (سورة الصافات: الآيات ١٤٩ – ١٥٩).

(٣) (سورة التوبة: الآية٣٠).

فقال تعالىٰ:

﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ﴾[1].

إذن رفض القرآن الكريم فكرة اتصال الله سبحانه وتعالىٰ بالمخلوقات جميعها: الإنس والجن والكون، فقال تعالىٰ:

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾[2].

ثم بيّنت آيات أخرىٰ أن الإنسان والملائكة وكل مخلوقات الكون في مقام العبودية لله والطاعة وله الافتقار إليه، فقال تعالىٰ:

﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾[3].

﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾[4].

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۚ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ﴾[5].

﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۗ سُبْحَٰنَهُۥ ۖ بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ

(١) (سورة المائدة: الآية ١٨).

(٢) (سورة الإخلاص: الآية ٣).

(٣) (سورة مريم: الآية ٩٣).

(٤) (سورة الذاريات: الآيات ٥٦-٥٨).

(٥) (سورة الأنبياء: الآية ٢٦).

قَـٰنِتُونَ ﴿١١٦﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَإِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[1].

﴿ وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَـٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَـٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَـٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَـٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَـٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا ﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا ﴾[2].

الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها من هذه المشكلة هي أن الإسلام اعتبر أنّ اعتقاد حلول الله في المخلوقات ضلال عظيم، وبهتان كبير علىٰ الله، وبيّن أنَّ علاقة المخلوقات جميعها بالله علاقة طاعة وعبودية، وافتقار وحاجة فقط.

٣- مشكلة الوسائط إلىٰ الله تعالىٰ:

كان العرب في الجاهلية يوسطون الأصنام، فينقل القرآن عنهم قولهم في تبرير عبادتهم أنها من أجل أن تقربهم إلىٰ الله فقال تعالىٰ:

﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾[3].

كما كان أمرًا سائغًا توسط كاهن أو رجل دين أو ميت بين العابد وبين الله من أجل قبول عمله أو تحقيق سؤاله، أو رفع منزلته، عند الديانات الأخرىٰ النصرانية والزردشتية واليهودية والبراهمية إلخ....

---

(١) (سورة البقرة: الآيتان ١١٦-١١٧).

(٢) (سورة مريم: الآيات ٨٨-٩٥).

(٣) (سورة الزمر: الآية ٣).

لكن الإسلام رفض هذه الواسطة بين العبد وبين الله فقال تعالىٰ:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴾[1].

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴾[2].

لذلك خاطب الرسول ﷺ الصحابة الذين كانوا معه في السفر فيرفعون أصواتهم في الدعاء فقال لهم الرسول ﷺ: «**أيها الناس إربعوا علىٰ أنفسكم فإنكم لا تدعون أصمَّ ولا غائبًا، ولكن تدعون سميعًا بصيرًا**»[3].

ومن هنا كان رفض الإسلام لطبقة رجال الدين في الشرع الإسلامي.

الخلاصة: دعا الإسلام إلىٰ دعاء الله، والطلب منه دون واسطة؛ لأنه – تعالىٰ– سميع قريب مجيب.

❁ ❁ ❁ ❁

يعتبر الإسلام أن هذه هي المشاكل التي تواجه الإيمان بالله تعالىٰ لذلك

(١) (سورة البقرة: الآية١٨٦).

(٢) (سورة غافر: الآية٦٠).

(٣) رواه البخاري في «صحيحه»، كتاب الدعوات. باب الدعاء إذا علا عقبة.

حرص علىٰ إبراز تاريخيتها، والضلال الذي فيها، وحذر المسلمين منها، ودعا إلىٰ الصواب الذي يبعد عنها.

❁ ❁ ❁ ❁

ولا شك أن لهذه المشاكل أثرًا كبيرًا في خلخلة البناء النفسي عند المسلم، فما هي أبرز هذه الآثار؟

١- إن الشرك استلاب نفسي للمسلم؛ لأنه يوجهه إلىٰ مخلوقات ضعيفة مثله من جهة، ولأنه يؤدي إلىٰ توزيع وتشتيت طاقاته النفسية بدلًا من تركيزها وتوحدها من جهة أخرىٰ.

٢- إن المجاهدات التي يمكن أن يقوم بها العبد من أجل الاتحاد بالله سبحانه، أو من أجل حلول الله فيه أو من أجل اكتشاف وحدة الوجود، هذه المجاهدات يمكن أن تؤدي إلىٰ نضوب نفسي عند العبد.

٣- إن التوجه إلىٰ وسائط يمكن أن يؤدي إلىٰ تمزق نفسي.

❁ ❁ ❁ ❁

والآن بعد أن انتهينا من دراسة الركن الأول في العقيدة وهو الإيمان بالله تعالىٰ والمشاكل التي تهدده وتوجهه ننتقل إلىٰ الركن الثاني.

❁ ❁ ❁ ❁

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة ودوره في البناء النفسي:

تحدثت كثير من الآيات القرآنية والأحاديث الشريفة عن الملائكة فقد بيّن الرسول ﷺ خلق الملائكة من نور: أخبرنا معمر عن عروة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ: «**خلقت الملائكة من نور وخلق الجان من مارج من نار وخلق آدم مما وصف لكم**»[1].

ثم بيّن القرآن أن بعضهم يحف العرش فقال تعالىٰ:

﴿وَتَرَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ حَآفِّينَ مِنْ حَوْلِ ٱلْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ﴾[2].

ثم بيّن القرآن كذلك أن بعضهم بشّرَ زكريا ومريم فقال تعالىٰ:

﴿ إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾[3].

---

(١) صحيح مسلم، كتاب ٥٣، حديث ٦٠ .

(٢) (سورة الزمر: الآية٧٥).

(٣) (سورة آل عمران: الآية ٤٥).

﴿ فَنَادَتْهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٌ يُصَلِّي فِي ٱلْمِحْرَابِ ﴾[1].

ثم بيّن القرآن أن يعضهم يتنزّل علىٰ عباد الصالحين بعدم الخوف والحزن، فقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَبْشِرُواْ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِي كُنتُمْ تُوعَدُونَ ﴾[2].

وقد بيّن الحديث تعاقبهم في شهود الصلوات فقد حدثنا أبو هريرة قال: قال الرسول ﷺ: «**يتعاقبون فيكم، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الفجر وصلاة العصر، ثم يعرج الذين باتوا فيكم، فيسألهم وهو أعلم بهم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: تركناهم وهو يصلون، وأتيناهم وهو يصلون**»[3].

وتحدث الرسول ﷺ كذلك عن شهودهم صلاة الجمعة، قال أبو هريرة: قال الرسول -عليه السلام-: «**إذا كان يوم الجمعة وقفت الملائكة علىٰ باب المسجد يكتبون الأول فالأول، ومثل المهجر كمثل الذي يهدي بدنة، ثم كالذي يهدي بقرة، ثم كبشًا، ثم دجاجة، ثم بيضة، فإذا خرج الإمام طووا صحفهم ويستمعون الذكر**»[4].

---

(١) (سورة آل عمران: الآية٣٩).

(٢) (سورة فصلت: الآية ٣٠).

(٣) صحيح البخاري، كتاب ٩، باب ١٦.

(٤) صحيح البخاري، كتاب الجمعة، باب٣١.

كما أخبرتنا آيات أخرىٰ بأنهم يقومون بأمر النار وأن مالكًا هو خازن النار فقال تعالىٰ:

﴿عَلَيْهَا مَلَٰٓئِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾[1].

﴿وَمَا جَعَلْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلنَّارِ إِلَّا مَلَٰٓئِكَةً﴾[2].

﴿يَٰمَٰلِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُم مَّٰكِثُونَ﴾[3].

كما أخبرنا الله بأن ملك الموت موكل بنزع أرواح العباد فقال تعالىٰ:

﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾[4].

كما بيّن أن الملائكة يعذبون الكافرين بانتزاع أرواحهم وأنهم يضربون وجوهم وأدابرهم وأنهم يرفقون بالمؤمنين فقال تعالىٰ:

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓاْ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓاْ أَنفُسَكُمُ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ﴾[5].

﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ

---

(١) (سورة التحريم: الآية٦).

(٢) (سورة المدثر: الآية ٣١).

(٣) (سورة الزخرف: الآية٧٧).

(٤) (سورة السجدة: الآية ١١).

(٥) (سورة الأنعام: الآية٩٣).

وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾[1].

﴿ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴾[2].

﴿ ٱلَّذِينَ تَتَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ طَيِّبِينَ ۙ يَقُولُونَ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمُ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[3].

وبيّن القرآن أن بعضهم مسخّر لحفظ الإنسان فقال تعالىٰ:

﴿ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾[4].

﴿ إِن كُلُّ نَفْسٍ لَّمَّا عَلَيْهَا حَافِظٌ ﴾[5].

﴿ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۖ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ ﴾[6].

كما بيّن أن بعضهم مسخّر للصلاة علىٰ المؤمنين وإخراجهم من الظلمات إلىٰ النور، فقال تعالىٰ:

﴿ هُوَ ٱلَّذِى يُصَلِّى عَلَيْكُمْ وَمَلَٰٓئِكَتُهُۥ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ۚ ﴾[7].

---

(١) (سورة الأنفال: الآية ٥٠).
(٢) (سورة محمد: الآية٢٧).
(٣) (سورة النحل: الآية ٣٢).
(٤) (سورة الرعد: الآية ١١).
(٥) (سورة الطارق: الآية٤).
(٦) (سورة الأنعام: الآية ٦١).
(٧) (سورة الأحزاب: الآية٤٣).

ووضّح أن بعضهم يستغفر للمؤمنين، قال تعالىٰ:

﴿ٱلَّذِينَ يَحۡمِلُونَ ٱلۡعَرۡشَ وَمَنۡ حَوۡلَهُۥ يُسَبِّحُونَ بِحَمۡدِ رَبِّهِمۡ وَيُؤۡمِنُونَ بِهِۦ وَيَسۡتَغۡفِرُونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ رَبَّنَا وَسِعۡتَ كُلَّ شَيۡءٖ رَّحۡمَةٗ وَعِلۡمٗا فَٱغۡفِرۡ لِلَّذِينَ تَابُواْ وَٱتَّبَعُواْ سَبِيلَكَ وَقِهِمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ﴾[1].

وبيّن أنها قالت في بدر وأنها ثبّتت المؤمنين، قال تعالىٰ:

﴿إِذۡ تَقُولُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ أَلَن يَكۡفِيَكُمۡ أَن يُمِدَّكُمۡ رَبُّكُم بِثَلَٰثَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾ بَلَىٰٓۚ إِن تَصۡبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأۡتُوكُم مِّن فَوۡرِهِمۡ هَٰذَا يُمۡدِدۡكُمۡ رَبُّكُم بِخَمۡسَةِ ءَالَٰفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾[2].

﴿إِذۡ تَسۡتَغِيثُونَ رَبَّكُمۡ فَٱسۡتَجَابَ لَكُمۡ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلۡفٖ مِّنَ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ مُرۡدِفِينَ﴾[3].

﴿إِذۡ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمۡ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ سَأُلۡقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعۡبَ فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾[4].

عندما يبيّن القرآن الكريم والحديث الشريف هذه الحقائق عن الملائكة فإنها تساهم في البناء النفسي للمسلم.

---

(١) (سورة غافر: الآية ٧).

(٢) (سورة آل عمران: الآيتان ١٢٤-١٢٥).

(٣) (سورة الأنفال: الآية٩).

(٤) (سورة الأنفال: الآية١٢).

فإن المسلم يعظم الله عندما يعلم أن الله خلق مخلوقات من نور لا تقع تحت بصره، عظيمة في قدرتها، وفي المهام التي تؤديها مثل حمل العرش وحفّه، وقبض الأرواح، والنزول بوحي الله تعالىٰ، والنفخ في الصور يوم القيامة، وكتابة حسنات الناس وسيئاتهم إلخ.....

وكذلك يعظم الله –تعالىٰ– عندما يعلم أن هؤلاء الملائكة يقيمون عدل الله فيعذبون الكافرين عند قبض أرواحهم.

وكذلك يحب الملائكة؛ لأنهم يبشرون المؤمنين ويستغفرون لهم، ويشهدون صلواتهم.

وكذلك يحب الله الذي سخّر الملائكة له لحفظه من كل الهوام والحشرات.

❁ ❁ ❁ ❁

الركن الثالث: الإيمان بالكتب ودوره في البناء النفسي:

ذكرت الأحاديث الشريفة أن الله أنزل أربعة وعشرين ومائة كتابًا، وأخبرنا القرآن الكريم عن بعض منها وذكر أسماءها فمنها: الصحف علىٰ إبراهيم، والتوراة علىٰ موسىٰ، والزبور علىٰ داود، والإنجيل علىٰ عيسىٰ، والقرآن علىٰ محمد؛ وكانت جميعها تخرج من مشكاة واحدة.

وقد مدح الله –تعالىٰ– التوراة التي أنزلها علىٰ موسىٰ فقال تعالىٰ:

﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ ﴾[1].

وقال أيضًا: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَا مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ٱلۡفُرۡقَانَ وَضِيَآءٗ وَذِكۡرٗا لِّلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٨﴾ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ وَهُم مِّنَ ٱلسَّاعَةِ مُشۡفِقُونَ ﴾[2].

وقد أثنىٰ علىٰ الإنجيل الذي أنزله علىٰ عيسىٰ فقال تعالىٰ:

﴿ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ فِيهِ هُدٗى وَنُورٞ وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَهُدٗى وَمَوۡعِظَةٗ لِّلۡمُتَّقِينَ ﴾[3].

وأثنىٰ في القرآن في مواضع أخرىٰ علىٰ التوراة والإنجيل معًا فقال تعالىٰ:

﴿وَأَنزَلَ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبۡلُ هُدٗى لِّلنَّاسِ ﴾[4].

وقد بيّن القرآن في مواضع ثمرات تطبيق أحكام التوراة والإنجيل فقال تعالىٰ:

﴿ وَلَوۡ أَنَّهُمۡ أَقَامُواْ ٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِم مِّن رَّبِّهِمۡ لَأَكَلُواْ مِن فَوۡقِهِمۡ

---

(١) (سورة المائدة: الآية ٤٤).

(٢) (سورة الأنبياء: الآيتان ٤٨-٤٩).

(٣) (سورة المائدة: الآية ٤٦).

(٤) (سورة آل عمران: الآيتان ٣-٤).

وَمِن تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ﴾[1].

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ﴾[2].

كما تحدث القرآن في مواضع عن الزبور الذي أنزل علىٰ داود والصحف التي أنزلت علىٰ إبراهيم فقال تعالىٰ:

﴿وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[3].

﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّۦنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴾[4].

﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِى ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴾[5].

وقد أوضح القرآن في أكثر من موضع أن الأمم السابقة قد ضلت وتمزقت عندما ابتعدت عن كتب الله التي أنزلت إليها فقال تعالىٰ:

﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ﴾[6].

ونحن لا نريد أن نتعرض للقرآن الكريم ومدح الله وثنائه عليه وصفاته

---

(١) (سورة المائدة: الآية ٦٦).

(٢) (سورة المائدة: الآية ٦٨).

(٣) (سورة النساء: الآية ١٦٣).

(٤) (سورة الإسراء: الآية ٥٥).

(٥) (سورة الأعلى: الآيتان ١٨-١٩).

(٦) (سورة آل عمران: الآية ١٩).

وآثاره في المسلم والمجتمع؛ لأن حديثنا السابق عنه فيه الكفاية والغنية.

والسؤال الآن: ما أثر الإيمان بالكتب في البناء النفسي للمسلم؟

١- يعظم المسلم الله –تعالىٰ- ويحبه عندما يعلم بأنه –تعالىٰ- أنزل الكتب التي هدت الناس وأرشدهم إلىٰ الخير في دنياهم وآخرتهم.

٢- يحب المسلم كتب الله التي كانت منارات للبشر في ظلمات طريق الحياة الطويل، ومركز إشعاع مستمر.

٣- يبني الإيمان بالكتب في المسلم الإحساس بالانتماء إلىٰ ركب الهداية الطويل الذي رافق البشرية من خلال كتب الأنبياء، ومن هنا يدرك مغزىٰ الربط بين القرآن الكريم والتوراة في الآيات الكريمة.

❁ ❁ ❁ ❁

الركن الرابع: الإيمان بالرسل ودوره في البناء النفسي:

أخبرنا الله –تعالىٰ- في القرآن الكريم بأنه بعث أنبياء ورسلًا إلىٰ مختلف الأقوام فكان منهم: نوح، وإدريس، وإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وعيسىٰ، إلخ....

كما قص علينا القرآن الكريم والرسول ﷺ تفاصيل كثيرة عن حياتهم، مبيّنًا أنهم بادروا أقوامهم في دعوتهم إلىٰ عبادة الله وحده، وأن الله أرسل معهم

معجزات تؤكد صدقهم، وأن قومهم ردوا عليهم مكذبين ومسفهين، وأن الكافرين اضطهدوا الأتباع المؤمنين، وهدّدوهم بالطرد، وأنهم آذوهم في أحيان كثيرة، وأن المؤمنين كانوا قلة باستمرار، ثم لما يئس الرسل والأنبياء من دعوة الكافرين أنزل الله عذابه عليهم وأنجىٰ الرسل والمؤمنين، وأهلك الكافرين بأن سخّر الله عليهم جنودًا له –تعالىٰ– منها: الطوفان، والريح، والرجفة، والصيحة، والإغراق إلخ.....

ولم تخلُ سورة تقريبًا من حديث عن رسول أو أكثر، فكيف يبني الإيمان بالرسل الجانب المعنوي عند المسلم؟

إن ابتعاث الأنبياء والرسل إلىٰ الناس نعمة كبرىٰ من نعم الله التي لا تقدر بثمن، وذلك لأنهم يحملون الحق إليهم، وينافحون عنه، ويتعبون في إيصاله إليهم، ويهدونهم إليه، ويكونون قدوة لهم فيه، وتقتضي هذه النعمة حب الله –تعالىٰ– وتعظيمه علىٰ هذا الابتعاث والإرسال.

كما يبني الإيمان بالأنبياء والرسل الثقة بالله –تعالىٰ– في نفس المسلم؛ لأن سيرتهم توضح رعاية الله لعبادة الصالحين وإنجاءهم وفي المقابل إهلاك الكافرين.

كما يبني الإيمان بالأنبياء والرسل الأمل في الانتصار، وأن الوقوف مع المؤمنين ليس مغامرة مجهولة العواقب، إنما هو نجاح أكيد؛ لأن هذا حدث مع جميع الرسل والأنبياء وأتباعهم المؤمنين في أماكن متباينة وأزمنة مختلفة، حتىٰ

أضحىٰ سنة ثابتة ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا﴾[1].

كما أن الإيمان بالرسل يبني الإحساس بالانتماء إلىٰ رهط الخير والصلاح علىٰ مدار التاريخ، وأنه منهم، ويسير علىٰ خطاهم، يواجه مثل ما واجهوا من إعراض واتهام وافتراء وإيذاء، ويصبر كما صبروا.

كما أن الإيمان بالرسل ينفي الإحساس بالغربة الذي يواجه الداعية ويضغط عليه عندما يخالف قومه في رذائلهم ولهوهم وفجورهم، وتحليلهم وتحريمهم، عندما يقل المناصرون والمستجيبون، فيحس أن هؤلاء الأنبياء والرسل هم قومه وأهله وقد عوّضه الله قومًا خيرًا من قومه، وأهلًا خيرًا من أهله.

❁ ❁ ❁ ❁

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر ودوره في البناء النفسي:

قام كلام الله –تعالىٰ– عن اليوم الآخر في القرآن حول ثلاثة قضايا:

الأولىٰ: اختلال نظام الكون يوم القيامة.

الثانية: النعيم الذي يلقاه المؤمن.

الثالثة: العذاب الذي يلقاه الكافر.

ونحن سنتناول –إن شاء الله– كل قضية ونرىٰ كيف تبني الجانب النفسي

(١) (سورة فاطر: الآية٤٣)

في ذات المسلم.

(١)اختلاف نظام الكون:

سيختل نظام الكون، هذا ما سيحدث يوم القيامة: السماء المتماسكة ستتصدع، والأرض الثابتة ستتزلزل، والجبال الراسخة ستنسف، النجوم المتألقة ستذوب، البحار الواسعة ستتفجر، الشمس الملتهبة ستطفأ إلخ....، يقول تعالىٰ:

﴿إِذَا ٱلشَّمۡسُ كُوِّرَتۡ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتۡ ۝٢ وَإِذَا ٱلۡجِبَالُ سُيِّرَتۡ ۝٣ وَإِذَا ٱلۡعِشَارُ عُطِّلَتۡ ۝٤ وَإِذَا ٱلۡوُحُوشُ حُشِرَتۡ ۝٥ وَإِذَا ٱلۡبِحَارُ سُجِّرَتۡ ۝٦ وَإِذَا ٱلنُّفُوسُ زُوِّجَتۡ ۝٧ وَإِذَا ٱلۡمَوۡءُۥدَةُ سُئِلَتۡ ۝٨ بِأَيِّ ذَنۢبٖ قُتِلَتۡ ۝٩ وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ۝١٠ وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتۡ ۝١١ وَإِذَا ٱلۡجَحِيمُ سُعِّرَتۡ ۝١٢ وَإِذَا ٱلۡجَنَّةُ أُزۡلِفَتۡ﴾[1].

ما الذي يبينه الإيمان بالحقائق السابقة؟

يركن الإنسان إلىٰ الكون الكبير، الواسع، المنتظم، في بعض الأحيان فيعظمه وقد يقوده ذلك إلىٰ الضلال، وهذا ما حدث مع الفلاسفة عندما قالوا بقدم العالم، ومع الناس في العصر الحديث عندما قالوا: إن الطبيعة خلقت وأوجدت إلخ.....، فعندما يؤمن المسلم أن كل هذا الكون سيختل نظامه، ويفقد ترابطه ويصغر كبيرة سيوجه تعظيمه لله –تعالىٰ– الذي سيفعل هذا؛ لأن هذا يعني أنه –تعالىٰ– أكبر وأعظم من الكون الذي كان بداية فتنة له.

---

(١) (سورة التكوير: الآية ١-١٣).

(٢)نعيم الجنة:

أوضح القرآن الكريم النعيم الذي ينعم به الله –تعالىٰ– علىٰ المؤمنين في الجنة من طعام، وشراب وسكينة، ولباس، وحلية إلخ...، يقول تعالىٰ:

﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا ﴿٣١﴾ حَدَآئِقَ وَأَعْنَٰبًا ﴿٣٢﴾ وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا ﴿٣٣﴾ وَكَأْسًا دِهَاقًا ﴿٣٤﴾ لَّا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا كِذَّٰبًا ﴿٣٥﴾ جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا ﴿٣٦﴾ رَّبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ٱلرَّحْمَٰنِ لَا يَمْلِكُونَ مِنْهُ خِطَابًا﴾[1].

﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا ﴿٥﴾ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيرًا﴾[2].

ما الذي يبينه الإيمان بنعيم الجنة؟

إن الحديث السابق عن النعيم وإيمان المسلم به يبني رجاءه فيجعله يرجو نعيم الله في اليوم الآخر الذي لا يمكن أن يقارن بأي نعيم في الدنيا.

(٣)عذاب النار:

أوضح القرآن الكريم العذاب الذي يصيب الكافرين يوم القيامة، وفصّل لنا بعض وقائعه، فذكر أن النار قودها الناس والحجارة، وأن شررها كالقصر، وأنها تسأل هل من مزيد، وأنها تتميز من الغيظ، وأن الكافر يتمنىٰ من شدة

---

(١) (سورة النبأ: الآيات ٣١-٣٧).

(٢) (سورة الإنسان: الآيتان ٥-٦).

عذابها ألا يكون قد استلم كتابه، ولا عرف حسابه، وأنه هلك قبل ذلك، ويتحسر حيث لم يعد يفيده ماله ولا سلطانه، وأن الكافرين تلفح وجوهم رياح السموم الحارة، وأنهم يستظلون بظل لا بارد ولا كريم، يقول تعالىٰ:

﴿إِنَّ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا ﴿٢١﴾ لِّلطَّٰغِينَ مَـَٔابًا ﴿٢٢﴾ لَّٰبِثِينَ فِيهَآ أَحْقَابًا ﴿٢٣﴾ لَّا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا ﴿٢٤﴾ إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا ﴿٢٥﴾ جَزَآءً وِفَاقًا ﴿٢٦﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ لَا يَرْجُونَ حِسَابًا ﴿٢٧﴾ وَكَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا كِذَّابًا ﴿٢٨﴾ وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ كِتَٰبًا ﴿٢٩﴾ فَذُوقُوا۟ فَلَن نَّزِيدَكُمْ إِلَّا عَذَابًا﴾[1].

ما الي يبينه الإيمان بعذاب النار؟

عندما يتلو المسلم آيات الله التي تتحدث عن النار، ويوقن بالعذاب الذي يصيب الكافرين والعاصين فيها، لا شك أن هذا يوجه خوفه إليها؛ لأن عذابها لا يمكن أن يقارن بأي عذاب في الدنيا.

❁ ❁ ❁ ❁

الركن السادس: الإيمان بالقضاء والقدر ودوره في البناء النفسي:

إن الإيمان بأن الله –تعالىٰ- قضىٰ الأشياء والحوادث وقدّرها قبل أن تقع جزء من الإيمان المطلوب من المسلم، قال تعالىٰ:

---

(١) (سورة النبأ: الآيات ٢١-٣٠).

﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴾[1].

وقال تعالىٰ: ﴿ قُل لَّن يُصِيبَنَآ إِلَّا مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَنَا هُوَ مَوۡلَىٰنَاۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾[2].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَكُلُّ شَىۡءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٥٢﴾ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسۡتَطَرٌ ﴾[3].

وقال أيضًا: ﴿ وَمَآ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَّعۡلُومٌ ﴾[4].

ما الذي يبينه الإيمان بالقضاء والقدر في تأليه المسلم لله تعالىٰ؟

يبني ذلك الثقة بالله –تعالىٰ– وبأن ما أصابه ما كان ليخطئه، وبأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه، وأن ما حدث معه كان بعلم الله القوي وبإذنه تعالىٰ.

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) (سورة الحديد: الآية٢٢).

(٢) (سورة التوبة: الآية ٥١).

(٣) (سورة القمر: الآيتان ٥٢–٥٣).

(٤) (سورة الحجر: الآية ٤).

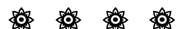
هذه معالم العقيدة المأخوذة من القرآن والسنة وهي جزء من البناء الثقافي المستند إلىٰ الكتاب والسنة.



المعتزلة والبناء الثقافي حول مذهب الذرة

في مقابل البناء الثقافي الذي أشيد حول القرآن والسنة كانت هناك الكثير من موروثات المنطقة: يونانية وهندية وفارسية في كل المجالات العبادية والنفسية والفكرية تتفاعل معها بعض الفئات، وقد كان «مذهب الذرة»[1] هو أحد هذه الموروثات الذي التفت حوله فرقة المعتزلة وكونت بنية ثقافية تناولت مختلف فروع الثقافة آنذاك، وأعطت أحكامها في كثير من الأمور الفقهية، وفسرت كثيرًا من الآيات والأحاديث طبقًا لوجهات نظرها، كما أولت بعضها الآخر.

وقبل أن ندرس نماذج من فرقة المعتزلة لنبين البنيان الثقافي الذي أنشأته هذه الفرقة والذي تصادم مع البنيان الثقافي لأهل السنة سندرس بعض الأسماء المشهورة التي مهدت للاعتزال، ثم سندرس واصل بن عطاء مؤسس هذه الفرقة، ثم سندرس نموذجين منهما وهما: أبو الهذيل العلاف والنظام.



(١) مذهب الذرة: مذهب يقوم على أن كل شيء ينتهي إلى جزء لا يتجزأ هو الجوهر الفرد وهو يوناني في أحد وجوه نشأته.
لمعرفة دور هذا المذهب عند المسلمين انظر الدكتور بينس: «مذهب الذرة عند المسلمين»، ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريدة.

الشخصيات التي مهدت لفرقة المعتزلة

مهدت أربع شخصيات لفرقة المعتزلة وهي:

١- معبد الجهني

٢- غيلان الدمشقي

٣- الجعد بن درهم

٤- الجهم بن صفوان.

وكان أبرز ما تحدث فيه معبد الجهني[١] «القدر» فقال: «لا قدر والأمر أنُف» ويقال إنه أخذ بدعته عن رجل من أهل العراق يقال له سوسن كان نصرانيًا فأسلم ثم تنصّر[٢].

وكان غيلان الدمشقي من القائلين بالقدر وعاش في دمشق وقد تحاور في أمر القدر مع ربيعة الرأي وعمر بن عبد العزيز.

وكان الجعد بن درهم أول من قال بخلق القرآن وقد ذكر ابن عساكر وغيره أن الجعد أخذ بدعته عن أبان بن سمعان، وأخذها أبان عن طاولت ابن أخت لبيد بن أعصم، وأخذها لبيد بن أعصم الساحر الذي سحر رسول الله ﷺ عن

(١) هو معبد بن عبد الله بن عليم الجهني البصري أول من تكلم في القدر.

(٢) ابن كثير. البداية والنهاية. حوادث سنة ٨٠هـ (ج٩،ص١٣٤).

يهودي باليمن[1].

وقتل خالد بن عبد الله القسري الجعد يوم عيد الأضحىٰ بالكوفة وذلك أن خالدًا خطب بالناس فقال في خطبته تلك: «أيها الناس ضحّوا تقبّل الله ضحاياكم فإني مضحٍ بالجعد بن درهم، إنه زعم أن الله لم يتخذ خليلًا ولم يكلم موسىٰ تكليمًا تعالىٰ الله عما يقول الجعد علوًا كبيرًا»، ثم نزل فذبحه في أصل المنبر.

وقد كان الجهم بن صفوان تلميذ الجعد من أبرز المؤسسين لفرقة المعتزلة التي تنسب إليه أحيانًا فيقال إن المعتزلة جهمية. يكنىٰ الجهم بأبي محرز وقد نشأ في سمرقند بخراسان ثم قضىٰ فترة من حياته الأولىٰ في ترمذ، وكان مولىٰ لبني راسب من الأزد، وقد التقىٰ الجهم بالجعد في الكوفة، وأخذ عنه مذهبه في التعطيل، ويقول ابن حجر: «وما علمته روىٰ شيئًا ولكنه زرع شرًا عظيمًا»، ثم انتقل إلىٰ بلخ حيث كان يعيش المفسر المشهور مقاتل بن سليمان (المتوفىٰ عام ١٥٠هـ) وكان يصلي معه في مسجده ثم اختلفا، ثم نفي إلىٰ ترمذ، ثم داعاه الحارث بن سريج لمشاركته في حربه مع بني أمية، ثم قتلا في عام ١٢٨هـ.

وقد تحدث الأشعري عنه فقال[2]: «الذي تفرد به الجهم القول بأن الجنة والنار تبيدان وتفنيان، وأن الإيمان هو المعرفة بالله فقط، والكفر هو الجهل بالله فقط، وأنه لا فعل لأحد في الحقيقة إلا الله وحده، وأنه هو الفاعل، وأن الناس إنما

---

(١) ابن كثير. البداية والنهاية. (ج٩، ص٣٥٠).

(٢) الأشعري. مقالات الإسلاميين. (ج١، ص٢١٣).

تنسب إليهم أفعالهم علىٰ المجاز، كما يقال: تحركت الشجرة، ودار الفلك، وزالت الشمس، وإنما فعل ذلك بالشجرة والفلك والشمس الله -سبحانه- إلا أنه خلق للإنسان قوة كان بها هذا الفعل، وخلق له إرداة للفعل واختيارًا له منفردًا بذلك، كما خلق له طولًا كان به طويلا ولونًا كان به متلونًا.

وكان جهم ينتحل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وقتل جهم بمرو، قتله سلم بن أحوز المازني في آخر ملك بني أمية.

ويحكي عنه أنه كان يقول: لا أقول إن الله -سبحانه- شيء؛ لأن ذلك تشبيه له بالأشياء.

وكان يقول: إن علم الله -سبحانه- محدث، فيما يحكىٰ عنه، ويقول بخلق القرآن، وإنه لا يقال: إن الله لم يزل عالمًا بالأشياء قبل أن تكون».

كذلك تحدث الشهرستاني عنه فقال[1]: «جهم بن صفوان تلميذ الجعد بن درهم الذي قتله خالد بن عبد الله القسري سنة ١٢٤هـ علىٰ الزندقة والإلحادد. والجعد أول من ابتدع القول بخلق القرآن، وتعطيل الله عن صفاته.

وكان الجهم يخرج بأصحابه فيقفهم علىٰ المجذومين ويقول: انظروا، أرحم الراحمين يفعل مثل هذا؟ إنكارًا لرحمته كما أنكر حكمته».

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) الشهرستاني. الملل والنحل. (ج١، ٨٦-٨٨). انظر ايضًا: البغدادي. الفرق بين الفرق (ص١٥٨).

نلاحظ من خلال الاستعراض السريع للشخصيات الأربعة التي تعتبر بواكير مذهب المعتزلة أن هناك آراء جديدة في موضوعات أساسية مثل الإيمان بأنه معرفة فقط، ونفي الصفات عن الله تعالىٰ، والقول بفناء النار، ونفي القدر إلخ....

وقد كان كل شخص يقول برأي واحد من الآراء السابقة، ولكن تطورًا سيحدث هو أن هذه الآراء ستجتمع عند شخص واحد هو «واصل بن عطاء»، ثم سيتبعه أشخاص لتنشأ من هنا فرقة المعتزلة. ونحن سندرس فيما يلي واصل بن عطاء أولًا، ثم سنرىٰ كيف نمت فرقة المعتزلة وكيف تطورت في مسارها التاريخي ثانيًا.



واصل بن عطاء

نقلت كتب الفرق صورة عن واصل بن عطاء[1] وعن فرقته، فتحدّث الشهرستاني عن واصل[2] فبيّن أنه كان من تلاميذ الحسن البصري وبيّن أن اعتزاله يقوم علىٰ أربع قواعد.

أولها: القول بنفي صفات الباري تعالىٰ من العلم والقدرة، والإرادة والحياة، وكانت هذه المقالة في بدايتها غير نضيجة، ويشير إلىٰ دور الفلسفة في تكوين هذه الفكرة، ويبين أنها جاءت بعد مطالعة كتب الفلسفة.

ثانيها: القول بالقدر، ويقرر الشهرستاني أن أصحاب واصل بن عطاء سلكوا في ذلك مسلك معبد الجهني، وغيلان الدمشقي، وقرر واصل بن عطاء هذه القاعدة أكثر مما كان يقرر قاعدة الصفات.

ثالثها: القول بالمنزلة بين المنزلتين، وقد فصّل عبد القاهر البغدادي في كتابه (الفَرقُ بين الفِرقِ) الظروف التي كانت موجودة والتي كانت سببًا في هذا الحكم، فلما ظهرت فتنة الأزارقة من الخوارج بالبصرة والأهواز، واختلف الناس عند ذلك في أصحاب الذنوب، زعم واصل بن عطاء أن الفاسق من هذه الأمة لا

---

(١) هو أبو حذيفة الغزالي الألثغ لقب بالغزال؛ لأنه كان يجلس في سوق الغزّالين، كان تلميذًا للحسن البصري مؤسس فرقة المعتزلة ولد بالمدينة المنورة سنة ٨٠هـ وتوفي سنة ١٣١هـ.

(٢) الشهرستاني الملل والنحل (ج١ ، ص٤٦) وما بعدها.

مؤمن ولا كافر، مما جعل الحسن البصري يطرده من مجلسه، فاعتزل عند سواري مسجد البصرة، وانضم إليه قرينه عمرو بن عبيد، فقال الناس يومئذ فيهما: إنهما قد اعتزلا قول الأمة، وسمي أتباعهما من يومئذ «معتزلة»[1].

رابعها: قول في الفريقين من أصحاب الجمل، وأصحاب صفين إنَّ أحدهما مخطئ لا بعينه، وكذلك قوله في عثمان وقاتليه وخاذليه، قال: إنَّ أحد الفريقين فاسق لا محالة وأقل درجات الفريقين أنه لا يقبل شهادتهما كما لا تقبل شهادة المتلاعنين.

۞ ۞ ۞ ۞

هذه بعض معالم صورة واصل بن عطاء وفرقته في كتب الفرق فما ملاحظاتنا علىٰ هذه الصورة؟

١- كانت بداية الفرقة إجابة جديدة لمشكلة تهز المجتمع الإسلامي، وهي مرتكب الذنب الذي كفر الخوارج صاحبه، في حين أن أهل السنة اعتبروه مسلمًا، وربما كان انفعال الحسن البصري لكون الرأي الجديد سيزيد من حجم الفتنة ومساحتها، وقد وضّح الشهرستاني السؤال الذي طرحه أحد المسلمين علىٰ الحسن البصري، وكيف أن واصلًا استبق الحسن البصري

(١) عبد القاهر البغدادي الفرق بين الفرق (ص٨٢).

وأجابه، في حين أن البغدادي يذكر أن الحسن البصري هو الذي طرد واصل بن عطاء، ويذكر الشهرستاني أن واصلًا هو الذي اعتزل مجلس الحسن البصري، وهذا أكثر اتفاقًا مع أصل التسمية والاستباق في الإجابة.

٢- ونلاحظ كذلك اتفاق البغدادي والشهرستاني علىٰ اتهام واصل بالقدرية، وتأثره بمعبد الجهني وغيلان الدمشقي.

٣- ويتفق البغدادي والشهرستاني علىٰ أن أحد آراء واصل هو تفسيق أحد الطرفين من المتقاتلين في الجمل دون تحديده، ورفض شهادته، وأنه خالف الجماعة في هذا الرأي.

٤- نلاحظ اعتبار الشهرستاني أن مقالة واصل بن عطاء في الصفات لم تكن ناضجة قبل مطالعة كتب الفلاسفة، وهو محق في هذا التصور وموفق في هذه العبارة.

❁ ❁ ❁ ❁

ثم بدأت هذه المقالة تنضج من خلال التأثر بالفلسفة، كما سنرىٰ عند الشخصيات المعتزلية التالية وسنبدأ بأبي الهذيل العلّاف ثم النظام.



أبو الهذيل العلّاف[1]

ذكر الشهرستاني[2] رأي أبي الهذيل العلاف بأن الباري تعالىٰ عالم بعلم، وعلمه ذاته، قادر بقدرة، وقدرته ذاته، حي بحياة، وحياته ذاته، ويوضح الشهرستاني أن هذا الرأي مقتبس من الفلاسفة الذين اعتقدوا أن ذاته واحدة لا كثرة فيها بوجه، وإنما الصفات ليست وراء الذات معاني قائمة بذاته، بل هي ذاته.

ويبين الشهرستاني الفرق بين قول القائل: عالم بذاته لا بعلم، وبين قول القائل: عالم بعلم هو ذاته؛ أن الأول نفي الصفة، والثاني إثبات ذات هو بعينه صفة وإثبات صفة هي بعينها ذات، وإذا أثبت أبو الهذيل هذه الصفات وجوهًا للذات فهي بعينها أقانيم النصارىٰ وأحوال أبي هاشم.

وفيما يتعلق بصفات الباري تعالىٰ أيضًا، فقد نقل الشهرستاني عن أبي الهذيل إثباته إرادات لا محل لها، يكون الباري تعالىٰ مريدًا بها، وهو أول من أحدث هذه المقالة، وتابعه عليها المتأخرون.

وفيما يتعلق بكلام الله سبحانه وتعالىٰ فقد قال إن بعضه لا في محل وهو قوله: «كن»، وبعضه في محل كالأمر، والنهي والخبر والاستخبار، وكان أمر التكوين عنده غير أمر التكليف.

---

(١) أبو الهذيل العلّاف مولى عبد القيس وشيخ المعتزلة البصريين (١٣٥-٢٢٦هـ).

(٢) الشهرستاني. الملل والنحل (ج١، ص٤٩) وما بعدها.

وقد اعتبر عبد القاهر البغدادي آراء تلك من فضائحه[1]؛ لأنه يلزمه من قوله أن علم الله هو الله، وقدرته هي هو أن يكون الله -تعالىٰ- علمًا وقدرة، ولو كان هو علمًا وقدرة لاستحال أن يكون عالمًا قادرًا؛ لأن العلم لا يكون عالمًا، والقدرة لا تكون قادرةً.

ويلزمه أيضًا إذا قال إن علم الله هو الله، وقدرته هي هو أنْ يقول: إن علمه هو قدرته، ولو كان علمه قدرته، لوجب أن يكون كل معلوم له مقدورًا له، وهذا يوجب أن يكون رأيه مقدورًا له؛ لأنه معلوم له، وهذا كفر.

وقد اعتبر عبد القاهر من فضائحه تقسيمه كلام الله -عزل وجل- إلىٰ ما يحتاج إلىٰ محل، وإلىٰ ما لا يحتاج إلىٰ محل.

وقد أوضح الشهرستاني أن أبا الهذيل يشبه قول في القدر قول أصحابه، إلا أنه قدري الأولىٰ، جبري الآخرة، فمذهبه في حركات أهل الخلدين أنها ضرورية لا قدرة للعباد عليها، وكلها مخلوقة للباري تعالىٰ، إذ لو كانت مكتسبة للعباد لكانوا مكلفين بها.

وقد نقل الشهرستاني عن أبي الهذيل قوله بانقطاع حركات أهل الخلدين وأنهم يصيرون إلىٰ سكون دائم، وتجتمع اللذات في ذلك السكون لأهل الجنة وتجتمع الآلام في ذلك السكون لأهل النار.

وعلّل الشهرستاني قول أبي الهذيل بأنه لما ألزم في مسألة حدوث العالم: أن

---

(١) البغدادي. الفرق بين الفرق (ص٨٥) وما بعدها.

الحوادث التي لا أول لها كالحوادث التي لا آخر لها، إذ كل واحدة لا تتناهىٰ، قال: إنّي لا أقول بحركات لا تتناهىٰ آخرًا، كما لا أقول بحركات لا تتناهىٰ أولًا، بل يصيرون إلىٰ سكون دائم.

وبين الشهرستاني قول أبي الهذيل في الاستطاعة أنها عرض من الأعراض غير السلامة والصحة، وفرق بين أفعال القلوب وأفعال الجوارح.

وبين الشهرستاني قول أبي الهذيل في المكلف قبل ورود السمع أنه يجب أن يعرف الله -تعالىٰ- بالدليل من غير خاطر، وإنْ قصر في المعرفة استوجب العقوبة أبدًا، ويعلم أيضًا حسن الحسن وقبح القبيح، فيجب عليه الإقدام علىٰ الحسن كالصدق والعدل، والإعراض عن القبيح كالكذب والجور.

ونقل قوله في طاعات لا يراد الله بها، ولا يقصد بها التقرب إليه، كالقصد إلىٰ النظر الأول، والنظر الأول فإنه لم يعرف الله بعد، والفعل عبادة.

ونقل قوله في الآجال والأرزاق: إنَّ الرجل إن لم يقتل مات في ذلك الوقت، ولا يجوز أن يزاد في العمر أو ينقص، والأرزاق علىٰ وجهين:

أحدهما: ما خلق الله -تعالىٰ- من الأمور المنتفع بها يجوز أن يقال: خلقها لينتفع بها.

الثاني: ما حكم الله به هذه الأرزاق للعباد، فما أحل منها فهو رزقه، وما حرم فليس رزقًا؛ أي: ليس مأجورًا بتناوله.

وحكىٰ الكعبي عنه أنه قال: إرادة الله غير المراد، فإرادته لما خلقه هي خلقه

له، وخلقه لشيء عنده غير الشيء، بل الخلق عنده قول لا في محل.

وقال إنه تعالىٰ لم يزل سميعًا بصيرًا بمعنىٰ سيسمع وسيبصر.

وحكىٰ الكعبي عنه أنه قال: الحجة لا تقوم فيما غاب إلا بخبر عشرين فيهم واحد من أهل الجنة أو أكثر، ولا تخلو الأرض عن جماعة هم أولياء الله، معصومون لا يكذبون، ولا يرتكبون الكبائر، فهم الحجة لا التواتر، إذ يجوز أن يكذب جماعة ممن لا يحصون عددًا إذا لم يكونوا أولياء الله، ولم يكن فيهم واحد معصوم.

❁ ❁ ❁ ❁

ويمكن أن نلاحظ الأمور التالية علىٰ آراء أبي الهذيل العلاف:

١- نلاحظ إشارة الشهرستاني الواضحة إلىٰ التأثير الفسلفي في آرائه، وهو ما نميل إلىٰ صحته، ويمكن التاريخ لبدايه مذهب الذرة بأبي الهذيل والعلاف، وقد فصّل ذلك الدكتور عبد الرحمن البدوي عندما أثبت أن ترجمات مذهب الذرة كنت معروفة في محيط أبي الهذيل، ورجح اطلاعه عليها في كتابه «مذاهب الإسلاميين».

٢- إن حديثه عن حال النار والجنة وأهلها وانتهائها إلىٰ سكون دائم حديث تخيلي فقط وهو ما قادته إليه معطيات ومقدمات المذهب الذي يطرحه.

٣- إن حديثه عن علم الله -تعالىٰ- وإرادته وكلامه، وعن الإرادات التي لا محل لها، حديث لا يستند إلىٰ أصل شرعي، بل هناك اجتهاد في تأويل النصوص الشرعية بما يتفق مع آرائه الخاصة ومذهبه الفلسفي.

٤- نلحظ آراءه التي تناولت مختلف القضايا: صفات الله، القدر وحال أهل الجنة، وكيفية قيام الحجة إلخ... مما يشير إلىٰ تكامل المذهب المعتزلي بالمقارنة مع ما طرحه واصل بن عطاء من آراء.

٥- نلحظ بعض الاصطلاحات الجديدة: الاستطاعة، حدوث العالم إلخ....



النظّام[1]

يذكر الشهرستاني أن النظام طالع كثيرًا من كتب الفلسفة، وخلط كلامهم بكلام المعتزلة وينقل عنه[2] قوله في الإرادة أن الباري –تعالىٰ– ليس موصوفًا بها علىٰ الحقيقة. وقوله إن أفعال العباد حركات فحسب وموافقته الفلاسفة في نفي الجزء الذي لا ينجزأ، وأحدث القول بالطفرة.

وينقل عنه قوله: إن الجواهر مؤلفة من أعراض اجتمعت، واعتبر الألوان والطعوم والروائح أجسامًا.

وقوله: إن الله –تعالىٰ– خلق الموجودات دفعة واحدة علىٰ ما هي عليه الآن، ولم يتقدم خلق آدم خلق أولاده، غير أن الله –تعالىٰ– أكمن بعضها في بعض فالتقدم والتأخر إنما يقع من ظهورها من مكامنها دون حدوثها ووجودها، وإنما أخذ هذه المقالة من أصحاب الكُمون والظُهور من الفلاسفة.

وقوله في إعجاز القرآن أنه من حيث الإخبار عن الأمور الماضية ومن جهة صرف الدواعي عن المعارضة، حتىٰ لو خلاهم لكانوا قادرين علىٰ أن يأتوا من مثله بلاغة وفصاحة.

---

(١) النظام هو إبراهيم بن سيار بن هانئ النظام، توفي عام ٢٣١هـ، والأرجح أنه ولد عام ١٦٠هـ كما يذكر الدكتور عبد الهادي أبو ريدة.

(٢) الشهرستاني. الملل والنحل (ج١، ص٥٣) وما بعدها .

قوله: إن الإجماع ليس بحجة في الشرع، وكذلك القياس.

وقوله موقعًا في كبار الصحابة.

وإيجابه علىٰ العاقل المتمكن تحصيل معرفة الباري بالنظر وزعمه أن السارق لا يفسق حتىٰ تبلغ خيانته نصاب الزكاة.

وقد وافقه أشخاص كثيرون في معظم ما قاله، منهم: الإسكافي والإسواري[1]، ومحمد بن شبيب، وأبو شمر، وموسىٰ بن عمران.

وقد نقل البغدادي[2] عنه أوقوالًا أخرىٰ منها:

قوله بأن الله لا يقدر أن يفعل بعباده خلاف ما فيه صلاحهم، ولا يقدر أن ينقص من نعيم أهل الجنة ذرة، ولا يقدر أن يزيد في عذاب أهل النار ذرة.

وقوله إن الإنسان هو الروح، وهو جسم لطيف متداخل لهذا الجسم الكثيف وقوله بأن الروح –التي هي الإنسان بزعمه– مستطيع بنفسه، حي بنفسه، وإنما يعجز لأفة تدخل عليه، والعجز عنده جسم.

وقوله إن الروح جنس واحد، وأفعاله جنس واحد، وإن الأجسام ضربان: حي وميت، وإن الحي يستحيل أن يصير ميتًا، وإن الميت يستحيل أن يصير حيًا، وإنما أخذ هذا القول من الثنوية البرهمية.

ودعواه أن الحيوان كله جنس واحد لاتفاقه جميعه في التحرك بالإرادة.

---

(١) توفي الإسكافي والإسواري سنة ٢٤٠هـ.

(٢) البغدادي. الفرق بين الفرق، ص٩٣ وما بعدها .

وقوله بأنَّ النار من شأنها أن تعلو بطباعها علىٰ كل شيء وأنها إذا سلمت من الشوائب الحابسة لها في هذا العالم ارتفعت حتىٰ تجاوز السماوات والعرش إلا أن يكون من جنسها مما تتصل به فلا تفارقه.

وقوله بأن أفعال الحيوان كلها من جنس واحد وهي كلها حركة وسكون، والسكون عنده حركة اعتماد، والعلوم والإرادات عنده من جملة الحركات وهي الأعراض، والأعراض كلها عنده جنس واحد، وهي كلها حركات، فأما الألوان والطعوم والأصوات والخواطر فهي عنده أجسام مختلفة ومتداخلة، ونتيجة قوله بأن أفعال الحيوان جنس واحد توجب عليه أن يكون الإيمان مثل الكفر، والعلم مثل الجهل، والحب مثل البغض، وأن يكون فعل النبي –عليه السلام– بالمؤمنين مثل فعل إبليس بالكفرة.

وقوله في الإيمان أنه اجتناب الكبيرة فحسب ونتيجة هذا القول: إن الأقوال والأفعال ليس شيء منها إيمانًا، والصلاة وأفعالها ليست بإيمان ولا من الإيمان، وإنما الإيمان فيها ترك الكبائر فيها.

وقوله في باب المعاد بأن العقارب والحيات والخنافس والذئاب والغربان والجعلان والكلاب والخنازير وسائر السباع والحشرات تحشر إلىٰ الجنة.

❁ ❁ ❁ ❁

ويمكن أن نلاحظ الأمور التالية علىٰ آراء النظام:

١- نجد إشارات الشهرستاني المتكررة في أخذه من الفلاسفة وفي موافقته لهم.

٢- من آرائه التي لا تستند إلىٰ رأي شرعي قول النظام: إن الباري ليس موصوفًا بالإرادة علىٰ الحقيقة، وقوله إن الله خلق الموجودات دفعة واحدة ولم يتقدم خلق آدم خلق أولاده.

٣- من آرائه التي تحتاج إلىٰ إثبات علمي: القول بالفطرة.

٤- من آرائه الغريبة قصره إعجاز القرآن علىٰ مضمونه واستبعاد الإعجاز البياني مع أن المجمع عليه إعجاز القرآن الكريم في بيانه وفي مضمونه.

٥- من آرائه التي تحتاج إلىٰ إثبات تجريبي حديثه عن الإنسان والحيوان والنار والروح وأفعال الحيوان، والألوان والطعوم.

٦- من آرائه التي تخالف الهدي النبوي تجويزه إجماع الأمة علىٰ الخطأ، وفي هذه مخالفة لقول الرسلو ﷺ: «**لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة**».

٧- من آرائه التي تخالف الهدي النبوي أيضًا قصره الإيمان علىٰ اجتناب الكبيرة مع أن الإيمان قول وفعل: قول باللسان وتصديق بالجنان، وعمل بالأركان.

٨- من آرائه الطريفة دعواه حشر الحيوانات في الجنة، فما هو سنده في هذا الإدعاء؟ هل هناك حديث من الرسول؟ أو وحي من الله؟ أو جاءه علم

خاص بهذا؟

❁ ❁ ❁ ❁

إن النظرة الفاحصة للشخصيات المدروسة تبين لنا العملية التراكمية في البناء الثقافي الجديد، فقد عُرفت –في البداية- كل شخصية بمقولة، كما حدث مع الشخصيات التي مهدت لمذهب الإعتزال، ثم وجدنا معظم المقولات في صفات الله سبحانه وتعالىٰ –وفي القضاء والقدر تجتمع عند واصل بن عطاء، وقد كانت مقولته غير ناضجة حسب ما وصفها الشهرستاني، ثم اشتد اطلاع المفكرين الإسلاميين علىٰ الفلسفة، وظهرت آثار ذلك واضحة عند أبي الهذيل العلّاف والنظام، وقد استخدم العلّاف مصطلحات مذهب الذرة من: جوهر وعرض وجسم، وائتلاف، واختلاف إلخ... بشكل متكامل مما يجعلنا نعتبره البداية الواضحة للبناء الثقافي حول مذهب الذرة فكيف مشت العلاقة بين البنائين الثقافيين: حول القرآن والسنة وحول مذهب الذرة؟

مشت باتجاه التصادم فلنر بعضًا من صور التصادم.

❁ ❁ ❁ ❁

تصادم البنائين

تصادم البنائان الثقافيان اللذان بنيا حول الكتاب والسنة، وحول مذهب الذرة منذ اللحظة الأولىٰ.

فتنقل الروايات أن عبد الله بن عمر عندما سمع أقوال معبد الجهني في القدر أعلن فقال[1]: «أخبر أولئك أني بريء منهم وأنهم مني براء. والذي يحلف به عبد الله بن عمر لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبًا فأنفقه ما قبله الله منه حتىٰ يؤمن بالقدر» وذكر عن أبيه حديث جبريل.

وقد رد كل من ربيعة الرأي وعمر بن عبد العزيز علىٰ غيلان الدمشقي، وقال غيلان في نهاية حواره مع عمر بن عبد العزيز: «والله يا أمير المؤمنين لقد جئتك ضالًا فهديتني وأعمىٰ فأبصرتني وجاهلًا فعلمتني، والله لا أتكلم في شيء من هذا الأمر».

كما نقلت الكتب مجادلات بين الإمام الشافعي وحفص الفرد وبشر المريسي ونقل عنه النهي عن الكلام فقال: إياكم والنظر في الكلام، فإن الرجل لو سئل عن مسألة في الفقه وأخطأ فيها كان أكثر شيء أن يضحك منه، كما لو سئل عن رجل قتل رجلًا، فقال: ديته بيضة، ولو سئل في الكلام فأخطأ نسب إلىٰ البدعة».

وبلغ بغض الشافعي لطريقة علماء الكلام إلّا يعدّ علمهم من العلم فقد

---

(١) البغدادي. الفرق بين الفرق (ص١٥).

روىٰ الربيع عنه أنه قال: لو أن رجلًا أوصىٰ بكتبه من العلم، ومنها كتب الكلام لم تدخل كتب الكلام في تلك الوصية[1].

وما يشير إلىٰ عنف التصادم بعض الفتاوىٰ التي أفتاها بعض العلماء مثل محمد بن الحسن الشيباني فقال: بأن من صلىٰ خلف المعتزلي يعيد صلاته، وعدهم الإمام أبو يوسف من الزنادقة، والإمام مالك لم يقبل شهادة من أحدهم.

وقال عبد الله بن المبارك: إنا نستطيع أن نحكي كلام اليهود والنصارىٰ، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية[2].

وقد قال الثوري: من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر[3].

وكانت ذرة التصادم مع أحمد بن حنبل عندما حاول المعتزلة فرض آرائهم عن طريق المأمون علىٰ عموم علماء الأمة، وكانت المحنة التي صمد فيها أحمد بن حنبل، ولكن الذي يهمنا في دراستنا هذه هو المضمون الفكري والشرعي للتصادم، وهذا ما نجده في «رسالة الرد علىٰ الزنادقة والجهمية»، التي ألفها لتفنيد حجج البناء الثقافي حول مذهب الذرة، فلنتفحص هذه الرسالة، ولنر مآخذ عليهم وعلىٰ طريقتهم وكيف أقام الحجة عليهم.

❁ ❁ ❁ ❁

(١) هذه النقولات موجودة في كتاب مناقب الشافعي للرازي.

(٢) الأشعري. الإبانة عن أصول الديانة (ص٩٠).

(٣) الأشعري. الإبانة عن أصول الديانة (ص٩٦).

رسالة الرد علىٰ الزنادقة والجهمية

لأحمد بن حنبل

وأول ما يلفت النظر في رسالة أحمد بن حنبل هو ربطه بين الزنادقة والجهمية مما يدل علىٰ أنه يضع الجهمية في مرتبة الزنادقة من حيث الحكم الشرعي والدور التخريبي لعقائد الأمة.

يبدأ ابن حنبل رسالته بالحديث عن «بيان ما ضلت فيه الزنادقة من متشابة القرآن»، ويورد عددًا من الآيات التي كان يزعم الزنادقة أنها متناقضة ثم يبين عدم تناقضها واتساقها مع بعضها.

والآية الأولىٰ التي تناولها أحمد بن حنبل[1] هي قوله تعالىٰ: ﴿كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُم بَدَّلْنَاهُمْ جُلُودًا غَيْرَهَا﴾[2] وقد فهم الزنادقة منها أن الله تعالىٰ يعذب جلودًا لم تذنب، فبين لهم أحمد بن حنبل أن تبديلها تجديدها.

وثم يزعم الزنادقة أن هناك تناقضًا بين قوله تعالىٰ: ﴿هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ﴾[3] وبين قوله: ﴿إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ﴾[4]

---

(١) أحمد بن حنبل. رسالة الرد على الزنادقة والجهمية. (ص٥٣) وردت هذه الرسالة ضمن كتاب يضم عدة رسائل تحت عنوان «عقائد السلف» تحقيق عمّار الطالبي.

(٢) (سورة النساء: الآية ٥٦).

(٣) (سورة المرسلات: الآيتان ٣٥، ٣٦).

(٤) (سورة الزمر: الآية ٣١).

فبين أحمد بن حنبل أن لكل آية مقامًا.

كما يزعمون أن هناك تناقضًا بين قوله تعالىٰ: ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا﴾[1] وبين قوله تعالىٰ: ﴿وَنَادَىٰٓ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ أَصْحَـٰبَ ٱلْجَنَّةِ﴾[2]، وأن هناك تناقضًا بين قوله تعالىٰ: ﴿فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾[3] وبين قوله تعالىٰ: ﴿فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَآءَلُونَ﴾[4].

ثم يسرد أحمد بن حنبل عددًا آخر من الآيات التي شكوا فيها وزعموا أن بعضها يناقض بعضًا، ويرد عليهم وتستغرق هذه الآيات الصفحات من ٥٣ إلىٰ ٦٥ ويناقش سبع عشرة مسألة أثاروها.

بعض صفات الجهم:

ثم ينتقل إلىٰ الحديث عن الجهم بن صفوان فيصفه بأنه عدو الله ويبين موطنه، ويبين بعض مواهبه وأنه صاحب خصومات وكلام، وأن أكثر كلامه في الله تعالىٰ، ويوضح مناقشته للسمنية وتغلبهم عليه وحيرته في أمر ربه فترك العبادة مدة أربعين يومًا.

---

(١) (سورة الإسراء: الآية ٩٧).

(٢) (سورة الأعراف: الآية ٥٠).

(٣) (سورة المؤمنون: الآية ١٠١).

(٤) (سورة الصافات: الآية ٥٠).

أصول مذهب الجهم:

يوضح أحمد بن حنبل أن الجهم بنىٰ كلامه علىٰ ثلاث آيات من المتشابه هي:

﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [1].

﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [2].

﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [3].

ويبين أنه اعتمد تأويل آيات القرآن الكريم، وأنه كذب بأحاديث الرسول ﷺ، وهي فعلًا عماد مذهب الجهمية، ويبين أنه أضل كثيرًا من الخلق.

قولهم في الله تعالىٰ[4]:

ثم يبدأ أحمد بن حنبل حديثه عنهم فيما يتعلق بالله تعالىٰ، فهم يعتمدون النفي في وصف الله تعالىٰ، فهو تعالىٰ لم يتكلم ولا يتكلم، ولا ينظر إليه أحد في الدنيا ولا في الآخرة، ولا يوصف ولا يعرف بصفة ولا يفعل، ولا له غاية، ولا له منتهىٰ ، ولا يدرك بعقل، وهو علم كله، وهو سمع كله، وهو بصر كله، وهو نور كله إلخ...

ثم يقرر أحمد بن حنبل أن الله هو شيء، فقالوا: هو شيء كالأشياء فرد

---

(١) (سورة الشورى: الآية ١١).

(٢) (سورة الأنعام: الأية ٣).

(٣) (سورة الأنعام: الآية ١٠٣).

(٤) أحمد بن حنبل. رسالة الرد على الزنادقة والجهمية (ص٦٧).

عليهم ابن حنبل بأن الشيء الذي لا كالأشياء قد عرف أهل العقل أنه ليس بشيء.

ثم يجري الحوار التالي: «فإذا قيل لهم من تعبدون قالوا: نعبد من يدبر أمر هذا الخلق، فقلنا: هذا الذي يدبر أمر هذا الخلق هو مجهول لا يعرف بصفة، قالوا: نعم، فقلنا: قد عرف المسلمون أنكم لا تؤمنون بشيء إنما تدفعون عن أنفسكم التهمة بما تظهرونه، فقلنا لهم: هذا الذي يدبر هو الذي كلم موسىٰ، قالوا لم يتكلم ولا يكلم؛ لأن الكلام لا يكون إلا بجارحة والجوارح عن الله منفية».

ثم يعقب علىٰ هذا الحوار فيقول: «فإذا سمع الجاهل قولهم يظن أنهم من أشد الناس تعظيمًا لله، ولا يعلم أنهم إنما يعود قولهم إلىٰ ضلالة وكفر ولا يشعر أنهم لا يقولون قولهم إلا فرية في الله».

إذن يتلخص قولهم في الله في أنهم ينفون عنه آية صفة يتصف بها المخلوق، لذلك يتهمهم ابن حنبل بأنهم لا يعبدون شيئًا.

القرآن كلام الله[(١)]:

ثم ينتقل ابن حنبل إلىٰ محاورة الجهمي فيسأل: هل تجد في القرآن الكريم وفي السنة المشرفة تصريحًا بأن القرآن مخلوق؟ فالجهمي لا يجد ذلك، فيسألة أحمد بن حنبل: فأين تجد ذلك؟ فيورد الجهمي بعض الآيات التي يظن أن فيها تأييدًا لوجهة نظره، ويرد عليها أحمد بن حنبل.

(١) المرجع السابق نفسه (ص٦٩).

فيذكر قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾[1]، وزعم أن «جعل» بمعنىٰ خلق، فيرد ابن حنبل علىٰ هذا الرأي بأن «جعل» في القرآن من المخلوقين علىٰ وجهين:

الأول: التسمية، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ وَجَعَلُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ﴾[2].

الثاني: علىٰ غير معنىٰ التسمية مثل قوله تعالىٰ: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم ﴾[3].

وأما جعل من أمر الله علىٰ معنيين:

الأول: خلق، مثل قوله تعالىٰ: ﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ﴾[4]، ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ ﴾[5].

الثاني: علىٰ غير معنىٰ خلق، مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ﴾[6] لا يعني إني خالقك للناس إمامًا، ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِى مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ ﴾[7] لا يعني اخلقني

(١) (سورة الزخرف: الآية ٣).

(٢) (سورة الزخرف: الآية ١٩).

(٣) (سورة البقرة: الآية ١٩).

(٤) (سورة الأنعام: الآية ١).

(٥) (سورة الإسراء: الآية ١٢).

(٦) (سورة البقرة: الآية ١٢٤).

(٧) (سورة إبراهيم: الآية ٤٠).

مقيم الصلاة.

ويصل أحمد بن حنبل –رحمه الله– إلىٰ قوله تعالىٰ: ﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾[1] فيوضح أنه كان ذلك فعل من أفعال الله تعالىٰ، جعل القرآن به عربيًا.

هل القرآن هو الله أو غير الله؟

ثم يناقش أحمد بن حنبل حجة أخرىٰ من حجج الجهم وهي: هل القرآن هو الله أو غير الله؟ يجاب أن القرآن هو كلام الله، وقد فصل الله بين قوله وخلقه فقال:

﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾[2]، فلما كان خلقه مباينًا لأمره فصل بينهما بالواو، وهناك أمثلة كثيرة علىٰ ذلك منها قوله تعالىٰ: ﴿عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾[3] فلما كانت البكر غير الثيب، لم يدعه مرسلًا حتىٰ فصل بينهما فذلك قوله وأبكارًا.

القرآن وحي وليس بمخلوق:

ثم يستشهد ابن حنبل علىٰ أن القرآن الكريم وحي وليس بمخلوق من قوله تعالىٰ في سورة النجم: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ﴿١﴾ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ﴿٢﴾ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴿٣﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ﴾[4] فأبطل الله تعالىٰ أن يكون القرآن الكريم شيئًا

---

(١) (سورة الزخرف: الآية ٣).

(٢) (سورة الأعراف: الآية ٥٤).

(٣) (سورة التحريم: الآية ٥).

(٤) (سورة النجم: الآيات ١-٤).

غير الوحي، فسماه وحيًا، ولم يسمه خلقًا.

شبهة أخرىٰ: القرآن شيء إذن هو مخلوق:

ثم يذكر شبهة أخرىٰ من شبه الجهم وهي أن القرآن شيء إذن هو مخلوق؛ لأن الله تعالىٰ قال: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾[1]، ويرد عليه: إن الله لم يسم كلامه شيئًا إنما سمىٰ شيئًا الذي كان يقوله، قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ﴾[2] وفي رواية أخرىٰ: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا﴾[3]، فالشيء ليس هو أمره إنما الشيء الذي كان بأمره، ويدعم أحمد بن حنبل وجهة نظره بآيات أخرىٰ منها قوله تعالىٰ عن الريح التي أرسلها علىٰ عاد: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[4]، وأتت علىٰ أشياء لم تدمرها: منازلهم ومساكنهم والجبال التي بحضرتهم، وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[5] لا يعني نفسه ولا علمه ولا كلامه مع الأشياء المخلوقة.

القرآن كلام الله وليس خلقه:

ثم يبرز أحمد بن حنبل الآيات التي سمت كلام الله كلامًا ولم تسمه خلقًا ومن هذه الآيات قوله تعالىٰ:

---

(١) (سورةالفرقان: الآية ٢).

(٢) (سورة النحل: الآية ٤٠).

(٣) (سورة يس: الآية ٨٢).

(٤) (سورة الأحقاف: الآية ٢٥).

(٥) (سورة الأنعام: الآية ١٠٢).

﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ﴾[1].

﴿فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ﴾[2].

إلخ...

حجة أخرىٰ للجهم ودحضها:

ثم ينقل عن الجهم آية أخرىٰ يجد فيها دليلًا يؤيد وجهة نظره وهي قوله تعالىٰ: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ إِلَّا ٱسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ﴾[3].

فزعم أن الله قال للقرآن محدث، وكل محدث مخلوق.

ويرد ابن حنبل على ذلك فيقول: إذا اجتمع شيئان في اسم يجمعهما فكان أحدهما أعلى من الآخر، ثم عليهما اسم مدح فكان أعلاهما أولى بالمدح وأغلب عليه، وإن جرى عليه اسم ذم فأدناهما أولى به، ويدلل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَلَوْ بَسَطَ ٱللَّهُ ٱلرِّزْقَ لِعِبَادِهِۦ لَبَغَوْاْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[4] فاجتمع الكافر والمؤمن في اسم العبد، والكافر أولى بالبغي من المؤمنين؛ لأن المؤمنين انفردوا ومدحوا فيما بسط لهم من الرزق وهو قوله:﴿إِذَآ أَنفَقُواْ لَمْ يُسْرِفُواْ وَلَمْ يَقْتُرُواْ﴾[5] وإذا انفرد الكافر وقع عليه اسم البغي في قوله لقارون ﴿فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[6] فلما اجتمعوا في الاسم الواحد فجرى

(١) (سورة البقرة: الآية ٢٧).

(٢) (سورة الأعراف: الآية ١٥٨).

(٣) (سورة الأنبياء: الآية ٢).

(٤) (سورة الشورى: الآية ٢٧).

(٥) (سورة الفرقان، الآية ٦٧).

(٦) (سورة القصص: الآية ٧٦).

عليهم اسم البغي كان الكفار أولى به، كما أن المؤمن أولى بالمدح. فلما قال الله تعالى: ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾[1]، فجمع بين ذكرين هما القرآن والرسول ﷺ، وكان الرسول أولى بالحدث من ذكر الله؛ لأن النبي كان لا يعلم فعلّمه الله، فكما علّمه الله كان ذلك محدثًا إلى النبي ﷺ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ﴾[2]:

ثم يستشهد الجهم بآية أخرى هي الآية السابقة على أن عيسى كلمة الله مخلوق إذن القرآن مخلوق، ويرد عليه أحمد بن حنبل بأنه كان بكلمة ﴿كن﴾ من الله، وليس عيسى هو الـ كن، ولكن بالـ كن كان، فالـ كن من الله قول وليس الـ كن مخلوقًا.

ثم يقيم الحجة على جهم في آية أخرى يستشهد بها هي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾[3].

بيان ما أنكرت الجهمية من قول الله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ (٢٢) إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[4]:

ثم يناقشهم في قضية النظر إلى وجه الله ويستشهد ببعض الأحاديث مثل

(١) (سورة الأنبياء: الآية ٢).

(٢) (سورة النساء: الآية ١٧١).

(٣) (سورة الأعراف: الآية٥٤).

(٤) (سورة القيامة: الآية ٢٢-٢٣).

قوله ﷺ: «**إنكم سترون ربكم**»[1].

بيان ما أنكرت الجهمية من أن يكون اله كلّم موسى:

ثم يورد حجج الجهمية في أن الله لم يكلم موسى عليه السلام، ويرد عليهم باستقراء جميع الآيات التي وردت في هذا المجال.

ثم يورد ابن حنبل بعض المناقشات تحت العناوين التالية:

بيان ما أنكرته الجهمية أن يكون الله على العرش.

بيان ما تأولت الجهمية من قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ﴾[2].

بيان ما ذكر الله في القرآن ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ﴾.

بيان ما ادعت الجهمية أن القرآن مخلوق من الأحاديث التي رويت.

بيان ما تأولت الجهمية من قول الله: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾.

❁ ❁ ❁ ❁

بعد استعراض ما كتبه أحمد بن حنبل فما هي أبرز معالم مدرسة ابن حنبل في مواجهة الجهم؟

---

(١) صحيح البخاري. (ج١، ١٤٥).

(٢) (سورة المجادلة: الآية٧).

١-إن حديث ابن حنبل في بداية الرسالة عن الزنادقة، ينبئ أنه يحكم على الجهمية بنفس الحكم، ويتبع المنهج ذاته في الرد على كل من الزنادقة والجهمية.

٢- نلحظ كثافة حجج الجهمية وكثرتها واستقصاءهم لكل ما يمكن أن يكون مظنة تأييد لوجهة نظرهم من آيات القرآن الكريم.

٣-يقوم منهج ابن حنبل على توضيح وجهة نظرهم بشكل دقيق ثم يرد عليها.

٤-أبرز وجهات نظرهم تقوم على نفي الصفات عن الله تعالى، ومن هذا برزت أن القرآن مخلوق وعدم رؤية الله يوم القيامة، وإنكار الجهمية أن يكون الله على العرش وتأويلهم للآيات التي لا تتفق مع هذه المعاني.

٥-يقوم منهج ابن حنبل على استقراء المعاني القرآنية للفظة الواحدة كما في «جعل» وفي «محدث».

٦-الوقوف عند التسميات القرآنية: فالقرآن كلام الله، ورفض لفظي بالقرآن مخلوق.

❁ ❁ ❁ ❁

الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها في الصدام الذي حدث بين أحمد بن حنبل والمعتزلة هي أن جوهر الصدام يقوم على أن أحمد بن حنبل يعتبر أن المرجع في تحديد الحقائق هو أن القرآن الكريم والسنة المشرفة وفي تحديد فهمها هو الرسول ﷺ والبيان العربي فيما لم يأت توضيح عن الرسول ﷺ وصحابته.

في حين أن المعتزلة لم يعتمدوا القرآن الكريم والسنة المشرفة وحدهما مرجعين في تحديد الحقائق وفهمها بل انضاف مذهب الذرة إليهما في فهم حقائق الإسلام كما أصبحت كثير من حقائق مذهب الذرة متداخلة مع الحقائق الإسلامية.

❁ ❁ ❁ ❁

وقد ألّف كثير من الكتّاب ردودًا على المعتزلة وعلى آرائهم ووجهات نظرهم نحوا فيها منحى أحمد بن حنبل في الحقائق التي أثبتوها، وفي الدلائل التي أقاموها وتعتبر ممثلة للبناء الثقافي المشاد حول الكتاب والسنة ونحن سنذكر بعض هؤلاء المؤلفين الذين عاشوا في القرون الثاني والثالث والرابع ومنهم:

أبو عبد الرحمن عبد الله بن المبارك بن واضح الحنظلي (١٨١هـ)، وأبو سعيد يحيى بن فروخ التميمي القطان البصري المحدث الحجة الناقد (١٩٨هـ)، وابن أبي شيبة أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عثمان العبسي (٢٢٥هـ)،

وألف في ذلك كتاب «السنة»، ويحيى بن بني يحيى بكير ابن عبد الرحمي بن يحيى الحنظي الحافظ (٢٢٦هـ)، وأبو عبد الله نعيم بن حماد المروزي (٢٢٨هـ)، وعبد الله بن محمد بن عبد الله الجعفي شيخ البخاري (٢٢٩هـ) الذي ألف كتاب «الرد على الجهمية»، والإمام أبو محمد إسحاق بن إبراهيم مخلد بن إبراهيم المعروف بابن راهوية شيخ البخاري أيضًا (٢٣٨هـ)، وصنف الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري (٢٥٦هـ) كتاب «خلق أفعال العباد» و«الرد على الجهمية»، وألف أبو بكر أحمد بن محمد هانئ الأثدم البغدادي تلميذ الإمام أحمد بن حنبل (٢٧٣هـ) «كتاب السنة» وصنف أبو علي حنبل بن إسحاق بن هلال تلميذ الإمام أحمد بن حنبل أيضًا (٢٧٣هـ) «كتاب السنة».

وكتب أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني (٢٧٥هـ) كتاب «السنة» وكذلك فعل أبو بكر أحمد بن عمرو بن النيل الشيباني البصري (٢٧٧هـ) فألف كتاب «السنة»، وصنف عثمان بن سعيد الدارمي تلميذ يحيى بن معين (٢٨٠هـ) كتاب «الرد على الجهمية» وكتاب «الرد على بشر المريسي»، وأبو عبد الرحمن عبد الله بن أحمد بن حنبل (٢٩٠هـ)، وصنف أبو بكر أحمد بن علي بن سعيد المروزي (٢٩٢هـ) «كتاب السنة»، وألف أيضًا أبو عبد الله محمد بن يحيى بن منده العبدي (٣٠١هـ) «كتاب التوحيد»، وتكلم في ذلك أبو العباس بن سريج (٣٠٦هـ)، وألف أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة (٣١١هـ) «كتاب التوحيد».

وكتب أبو أحمد محمد بن أحمد بن إبراهيم الأصبهاني العسال (٣٤٩هـ)

«كتاب السنة»، وألف أيضًا أبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب اللخمي الطبراني (٣٦٠هـ) «كتاب السنة»، وكذلك أيضًا أبو محمد عبد الله بن محمد بن جعفر بن حيان (٣٦٩هـ) فإنه كتب «كتاب السنة»، وألف عبيد الله بن محمد بن بطة العكبري (٣٨٧هـ) «كتاب الإبانة»، وكتب في ذلك من المغاربة أبو عمر وأحمد بن محمد بن عبد الله الطلمنكي الأندلسي (٤٢٩هـ) «كتاب الأصول»، وصنف أيضًا في ذلك أبو ذر عبد بن أحمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري الهروي (٤٣٤هـ) «كتاب السنة»، وألف أحمد بن الحسين أبو بكر البيهقي (٤٥٨هـ) «الأسماء والصفات»، وتكلم في ذلك في عدة كتب حافظ المغرب بلا منازع أبو عمرو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبي (٤٦٣هـ) وغير هؤلاء كثير.

وقد أكدوا جميعًا المنهج الذي يجب أن نتبعه إزاء الصفات وهو ضرورة اعتماد النصوص القرآنية والحديثية فيما يتعلق بها، وتنزيه الله –تعالى- عن أي مثيل وشبيه، وعدم الجنوح إلى التأويل بحال من الأحوال.

إذن استمرت هاتان المدرستان كل منهما على حدة وبأتباع مستقلين، بعد التصادم الحاد الذي حصل بينهما في حياة أحمد بن حنبل ثم نجد فرقة تشكلت بعد حين باسم الفرقة الأشعرية تحمل عقيدة تسمى «العقيدة الأشعرية» نسبة إلى صاحبها أبي الحسن الأشعري، واستمر تواجد أتباع لهذه العقيدة الأشعرية على مدار القرون الماضية إلى وقتنا هذا.

وليس المهم هو تشكيل فرقة جديدة، فالفرق كثيرة على مدار التاريخ الإسلامي، لكن الجديد أن المضمون العقدي للعقيدة الأشعرية جاء نتيجة تداخل البناء الثقافي المشاد حول الكتاب والسنة مع البناء الثقافي المشاد حول مذهب الذرة، فكيف حدث هذا؟ وما الذي أدخله الأشعري إلى البناء الثقافي حول الكتاب والسنة؟ وماذا كان أثر ذلك على البناء النفسي للمسلم؟

هذا ما سندرسه وسنحاول أن نستكشفه عند أبي الحسن الأشعري أولًا، ثم سنستكشفه عن شخصين من تلامذته هما: الباقلاني والجويني ثانيًا، ثم سندرس أثر ذلك على البناء النفسي للمسلم ثالثًا.

فلنبدأ بأبي الحسن الأشعري.



المرحلة الأولى: تداخل مذهب الذرة.

١- أبو الحسن الأشعري[1]

انتقل أبو الحسن الأشعري من البنيان الثقافي لمذهب الذرة إلى البنيان الثقافي للقرآن والسنة[2]، وهذا وضع طبيعي يمكن أن يحدث في عالم الثقافة، لكنْ لم يحدث انتقال فقط، إنما أحدث تداخلًا بين البنيتين الثقافيتين، فكيف حدث هذا التداخل؟ وما الذي أدخله الأشعري إلى البنية الثقافية للكتاب والسنة؟ وما كانت نتيجة ذلك؟

وحتى نستطيع الإجابة على الأسئلة السابقة سنستعرض كتبه التي وصلتنا وهي:

١- مقالات الإسلاميين.

٢- اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع.

٣- رسالى إلى أهل الثغر بباب الأبواب.

٤- الإبانة عن أصول الديانه.

٥- رسالة الاستحسان في خوض علم الكلام.

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) الأشعري هو علي بن إسماعيل بن إسحاق بن سالم بن عبد الله بن موسى بن بلال ابن بردة بن أبي موسى الأشعري، ولد سنة ٢٦٠هـ وتوفي في أرجح الروايات سنة ٣٢٠هـ.

(٢) انظر تفصيل الانتقال وأسبابه في كتابي: [في مجال العقيدة: نقد وعرض]، الصفحات [٩-١٢].

مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين[1]

تحدّث أبو الحسن الأشعري في هذا الكتاب عن الفرق وموضوعات علم الكلام من جوهر وعرض، واختلاف المسلمين في هذه الأمور، ويظهر في هذا الكتاب سعة اطلاعه على الفرق الدينية فهو يذكر أن الفرق عشرة أولها الشيعة وهم ثلاثة أصناف:

الأولى: الغالية وهم خمس عشرة فرقة، منها: البانية، الجناحية، الحربية، المغيرية، المنصورية، الخطابية، المعمرية، العميرية إلخ....

والثانية: الإمامية وهم أربع وعشرون فرقة، منها القطعية، الكيسانية، الكربية، الحربية، البيلقية، المغيرية، الناوسية، القرامطة، المباركية إلخ.....

والثالثة: الزبدية وهم ست فرق: الجارودية، السليمانية، البترية، النعيمية، اليعقوبية.

ويعدّد فرقهم، ثمّ يذكر بعض نواحي اختلافهم واتفاقهم في كثير من الأمور مثل: أعمال الإنسان والتولّد، والطفرة، والأئمة إلخ......

ثمّ ينتقل إلى مقالات الخوارج ويذكر ما اجتمعوا عليه ثمّ يعدّد فرقهم ويتجاوز فيها الست عشرة فرقه، منها: الميمونية، الخلقية، الحمزية، الشعيبية، الخازمية، المعلومية، المجهولية، الصلتية، الثقالية إلخ....

---

(١) تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد. الطبعة الثانية، ١٩٦٩م-١٣٨٩م، مكتبة النهضة المصرية.

ثمّ ينتقل إلى شرح قول المعتزلة، فينقل مجمل عقيدتهم، ثمّ يفصل رأيهم في كثير من القضايا مثل: قول المعتزلة في المكان، قولهم في رؤية الباري، قولهم في علم الله وقدرته، وقولهم في معلوماته ومقدراته، وقولهم في أفعال الله وفي صفاته الأزليه، ثمّ ينقل قول المعتزلة في صفات الأفعال، ثمّ يبيّن اختلاف المعتزلة في كلام الله، وهل هو جسم أم لا؟ وهل هو مخلوق، على ستة أقاويل، إلخ...

ثم ينقل قول الجهمية، ثمّ ينقل قول الحسين بن محمد النجار، ثمّ يذكر قول البكرية، ثمّ ينقل حكاية قوم ينتحلون النسك، وحكاية قول أصحاب الحديث وأهل السنة، ويذكر قول أصحاب عبد الله بن سعيد القطان، ويذكر قول زهير الأثري، ويذكر قول أبي معاذ التومني.

ثمّ يتحدث في الجزء الثاني من الكتاب عن موضوعات دقيق الكلام، فيبيّن اختلاف المتكلمين في الجسم على اثنتي عشرة مقالة، ثمّ يتحدث عن الجوهر: معناه وهل هو جسم؟ وهل يوجد جوهرًا ليس جسمًا؟ وهل الجواهر جنس واحد؟ وهل يجوز على جميعها ما يجوز على بعضها؟ وهل يجوز أن يتفرّق الجسم أو يبطل ما فيه من الاجتماع؟ على أربع عشرة مقالة.

ويبيّن أنهم اختلفوا في الجزء الواحد: هل يجوز أن يحلّه حركتان أم لا؟ واختلفوا في الطفرة على ثلاث مقالات، واختلفوا في الجسم يكون ملازمًا لمكان، ومكانه متحرك، هل الجسم متحرك أم لا؟ على مقالتين، واختلفوا هل الأجسام كلها متحركة؟ على ست مقالات، واختلفوا في معنى المداخلة والمكامنة والمجاورة

على عشر مقالات.

واختلفوا في الإنسان: ما هو، على تسع عشرة مقالة.

واختلفوا في الروح والنفس والحياة على خمس عشرة مقالة.

واختلفوا في الحواس على سبع مقالات.

واختلفوا: هل يوصف الباري بالقدرة على خلق حاسة سادسة، على أربع مقالات.

واختلفوا في الحركات والسكون، والأفعال، على سبع عشرة مقالة.

واختلفوا في معنى الحركة والسكون وفي محلها، على سبع مقالات.

واختلفوا في وصف الشيء: ألِنفسهِ يوصف أم لعلة؟ على ثماني مقالات.

واختلفوا في الأعراض: هل تبقى أم لا؟ على ثماني مقالات.

واختلفوا في خلق الشيء: هل هو الشيء أم غيره؟ على تسع مقالات.

واختلفوا في البقاء والفناء، على ثماني مقالات، واختلفوا: أين يوجد البقاء والفناء؟

وهل يوجدان وقتًا واحدًا؟

واختلفوا: لم سميت المعاني القائمة بالأجسام أعراضًا؟ على ست مقالات.

واختلفوا في الأعراض هل تجوز إعادتها أم لا؟ على ست مقالات.

واختلف المتكلمون في الأضداد، على ست مقالات.

واختلفوا: هل يوصف الباري بالقدرة على أن يقدر خلقه على الحياة

والموت أم لا؟ على خمس مقالات.

واختلفوا فيما يقع بالحواس من إدراك المحسوسات، على ثماني مقالات، واختلفوا في سبب الإدراك على أربع مقالات، واختلفوا كيف يدرك المدرك للشيء ببصره؟ على خمس مقالات.

واختلفوا في العلة، على عشرة أقوال.

واختلفوا في كيفية معرفة الإنسان من جهة الحس، على ثلاث عشرة مقالة.

واختلف المعتزلة: هل المقتول ميت أم لا؟ على مقالتين.

واختلف المعتزلة في المتولد: ما هو؟ على أربع مقالات.

واختلف المعتزلة في الإرادة هل هي موجبة لمرادها أم لا؟ على أربع مقالات.

واختلفوا في الإنسان هل يقدر على خلاف المراد؟ على خمسة أقاويل.

واختلفوا في أفعال الله تعالى: هل كلها مختارة أم لا؟ على أربعة أقاويل.

واختلفوا في القتل ما هو؟ على خمس مقالات.

واختلفوا في كلام الإنسان، هل هو صوت؟ على أربع مقالات؛ واختلفوا في الصوت: هل هو جسم؟ على أربع مقالات.

واختلف المعتزلة في الخواطرعلى خمس مقالات.

ثم يتحدث عن اختلاف المتكلمين في القول بطاعة الله لا يراد بها الله، فيذكر أن المعتزلة اختلفوا في ذلك على ثلاث مقالات.

ثم يذكر اختلاف الناس في الرؤيا، على ستة أقاويل، وبأنهم اختلفوا في الذي يراه الرائي في المرآة، على ستة مقالات كذلك.

واختلفوا في الشياطين: هل يرون في الدنيا؟ على أربع مقالات.

واختلفوا في حقيقة المكان على خمي مقالات.

وينقل اختلاف الخوارج في كفر علي والحكمين على تسعة أقاويل، واختلافهم في إمامة عثمان وقتلة، واختلافهم في إمامة علي، على ثلاث مقالات، واختلافهم في إمامة أبي بكر كيف كانت، على خمس مقالات.

واختلفوا في قتال علي وطلحة، وفي قتال علي ومعاوية، على ثماني مقالات.

واختلفوا في أفضل الناس بعد الرسول، على خمس أقاويل.

واختلفوا في كم تنعقد بهم الإمامة على ست مقالات.

واختلفوا في الدار، هل دار إيمان أم لا؟ على ستة أقاويل.

واختلفوا في المقدار الذي يجوز لهم إذا بلغوا إليه أن يخرجوا على السلطان ويقاتلوا المسلمين، على أربعة أقاويل.

واختلفوا هل يكون الظهور إلا مع إمام؟ على أقاويل.

واختلفوا في شفاعة النبي ﷺ لأهل الكبائر على ثلاث مقالات.

ثم يذكر اختلاف المتكلمين في دوام نعيم أهل الجنة ودوام عذاب أهل النار، على أربع مقالات، واختلافهم في الجنة والنار، هل خلقتا وهل تفنيان؟ على مقالتين.

واختلفوا في تكفير المتأولين وتفسيقهم، على ستة أقاويل.

واختلفوا هل ينسخ القرآن بالسنة؟ على ثلاثة أقاويل.

واختلفوا في حد البلوغ على سبعة أقاويل.

واختلفوا في الصفات، هل هي الله تعالى على اثنتين وعشرين مقالة.

واختلفوا في العلم من وجه آخر، على ثلاثة عشر قولًا.

واختلف البغداديون في القول «إن الله كريم» هل هو من صفات الذات أو من صفات الفعل.

واختلف المعتزلة في القول في الباري إنه متكلم، على خمسة أقاويل.

واختلف المتكلمون في معنى القول إن الله قديم، على ستة أقاويل، واختلفوا في معنى أنه شيء على ستة أقاويل، وفي معنى أنه غير الأشياء، على أربعة أقاويل.

واختلفوا في القول في الباري إنه موجود، على سبعة أقاويل، وفي معنى أنّ له وجهًا ويدًا ونفسًا، على أربعة أقاويل.

واختلفوا هل كان يجوز أن يقلب الله اللغة فيسمي نفسه بضد أسمائه، واختلفوا في معنى القول إنّ الله خالق، على أربع مقالات.

واختلفوا: هل يقال إنّ الإنسان فاعل على الحقيقة، على اثنى عشر قولًا.

واختلفوا في معنى أنّ الله هو الأول والآخر، على سبعة أقوال.

ثم يشرح الأشعري قول عبد الله بن كلاب، وقول أصحابه في القديم، وقولهم في الصفات: أشياء هي أم لا، وقولهم في معنى أنّ الله قادر، وقولهم في

القول: هل يقدر القديم على ما أقدر عبادة عليه؟

ثمّ يتحدث عن اختلاف المعتزلة في قدرة الله على جنس ما أقدر عباده عليه على واحد وعشرين قولًا، واختلافهم في أن الله قادر على ما علم أنّه لا يكون، على خمسة أقاويل، واختلافهم في قدرة الإنسان على ما علم الله أنه لا يكون، واختلافهم في جواز كون ما علم الله أنه لا يكون، على خمسة أقاويل، واختلافهم في قدرة الله على أن يقدر أحدًا على فعل الأجسام، على سبعة عشر قولًا.

ثم يتحدث عن اختلافهم في جواز أن يفرد الله الحياة من القدرة أم لا، على سبعة أقاويل، واختلافهم في وقوف الأرض علىٰ لا شيء على خمسة أقويل، واختلافهم في وصف الله بالقدرة على لطيفة لو فعلها بمن علم أنّه لا يؤمن لآمن، على أحد عشر قولًا، واختلافهم في أن الباري لم يزل محسنًا، على أربعة أقاويل، واختلافهم في القول: لم يزل الباري غير محسن.

ثمّ تناول قضية اختلافهم في الولاية والعداوة والرضا والسخط، وقضية القول في القرآن، والاختلاف في كلام الله: هل يسمع أم لا؟ والاختلاف في القرآن: ما هو؟ وكيف يوجد في الأماكن؟

ثمّ تحدث عن اختلاف الذين زعموا أنّ كلام الله تعالى جسم في أنّه هل ينتقل، علىٰ واحد وعشرين قولًا، وذكر اختلافهم في الكلام: هل يبقىٰ؟ وفي القراءة: أهي المقروء؟ على تسعة أقاويل، واختلافهم في المسموع: أهو الكلام أم الصوت؟ واختلافهم في كلام الإنسان: أهو حروف؟ واختلافهم في كم أقل

الكلام من حرف، واختلافهم في الكلام: هل يكون اضطرارًا؟ واختلافهم في المعنىٰ المراد من إسناد الكلام إلى غير متكلم كالذراع والجلد، واختلافهم في الإنسان: هل يتكلم بكلام غير مسموع؟ وهل يتكلم بكلام في غيره؟

ثمّ تحدث عن اختلافهم في كيف يكون الناسخ والمنسوخ، وفي حكم تعرض النصوص، واختلافهم في نسخ الأخبار.

❁ ❁ ❁ ❁

نلاحظ من خلال عرضنا السريع لعناوين فصول الكتاب سعة حصيلة الفرق في مجال علم الكلام من جهة، ووفرة معلومات الأشعري عن مفردات مذهب الذرة من جسم وجوهر وعرض وحركة وسكون إلخ.... من جهة ثانية.



رسالة إلىٰ أهل الثغر بباب الأبواب لأبي الحسن الأشعري

بدأ أبو الحسن الأشعري رسالته بالحديث عن أصناف الناس عند ابتعاث الرسول محمد ﷺ[1]، ثمّ انتقل إلىٰ بسط دليل الحدوث للتدليل علىٰ وجود الله تعالىٰ[2]، ثمّ يذكر بعض الآيات التي تدل علىٰ المحدث الحكيم في الإنسان والكون، ثم ينتقل إلىٰ الكلام عن الحجة في إقامة الرسل، ثمّ يتحدث عن الأعراض والجواهر والأجسام، ثمّ يبيّن أنّ الله –تعالىٰ– لا يشبه شيئًا من العالم ويذكر سبع صفات من صفاته تعالىٰ وهي: الوجود والحياة والقدرة والعلم والتكلم والسمع والبصر[3]، ثمّ يقرّر أنّ القرآن كلام الله غير مخلوق، ثمّ يتحدث عن صفات الله الخبرية[4] فيثبتها ويقرّر أنّ لله يدين مبسوطتين، وأنّ الأرض جميعًا قبضته يوم القيامة وأنه يجئ يوم القيامة دون تأويل بكيفية نجهلها.

ثم ينتقل إلىٰ قضية رؤية الله تعالىٰ يوم القيامة[5] فيثبت ذلك كما قال أهل السنة، ثم يتحدث عن خلق أعمال العباد فيثبت ذلك لله تعالىٰ، ثم يبين أن الإيمان يزيد وينقص بالمعصية[6].

---

(١) الأشعري. رسالة إلى أهل الثغر بباب الأبواب (ص،٨١).

(٢) المرجع السابق. (ص،٨٢).

(٣) المرجع السابق. (ص،٩٤).

(٤) المرجع السابق. (ص،٩٦).

(٥) المرجع السابق. (ص،٩٨).

(٦) المرجع السابق. (ص،١٠٤).

اللمع في الرد عل أهل الزيغ والبدع

يناقش أبو الحسن الأشعري في هذا الكتاب عدة قضايا، ويبدأ بالحديث عن وجود الله ويثبت ذلك عن طريق توجيه النظر إلىٰ خلق الإنسان[1] من نطفة ثم تحويله إلىٰ عقلة ثم صيرورته إلىٰ لحم ودم وعظم، ثم تنقله من حال الطفولة إلىٰ حال الشباب والهرم والكهولة وربط ذلك بالله –تعالىٰ- لأن الإنسان لم يفعل ذلك بإرادته.

ثم يقرر أن الله –تعالىٰ- لا يشبه المخلوقات[2]؛ لأنه لو أشبهها لكان محدثًا مثلها، ثم يثبت وحدانية الله –تعالىٰ- [3] لأن الإثنين لا يجري تدبيرها علىٰ نظام ولا يتسق علىٰ إحكام،ولابد أن يلحقهما العجز أو واحد منهما.

ثم يتحدث عن قدرة الله –تعالىٰ- في إعادة الخلق ويدلل علىٰ ذلك بالخلق الأول الذي لم يكن علىٰ مثال سابق، وإذا خلق أولًا لم يعجز أن يخلق خلقًا آخر.

ثم يطرح شبهة الجسمية[4] وينكر ذلك في حق الله –تعالىٰ- ويبين أنه لا يجوز أن نسمي الله باسم الجسم؛ لأنه لم يسم به نفسه ولم يسمه به رسول الله ﷺ.

ثم يتحدث عن صفات الله –تعالىٰ- [5] فيثبت أنه تعالىٰ سميع بصير حي

---

(١) الأشعري. اللمع في الرد على أهل الزيغ والبدع. تحقيق الدكتور حمودة غرابة. (ص،١٧).

(٢) المرجع السابق. (ص،١٩).

(٣) المرجع السابق. (ص،٢٠).

(٤) المرجع السابق. (ص،٢٣).

(٥) المرجع السابق. (ص،٢٤).

قادر عليم، ويقرر أنه تعالىٰ عالم بعلم، قادر بقدرة، سميع بسمع الخ.... خلافا للمعتزلة، ويذكر بعض الآيات التي تعضد وجهة نظره مثل قوله تعالىٰ: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[1]، ﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾[2].

ثم يوضح أن الله –تعالىٰ– لم يزل متكلمًا[3] وأن القرآن كلام الله غير مخلوق.

ثم يبين أن إرادة الله –تعالىٰ– تعم سائر المحدثات. ثم ينتقل إلىٰ الكلام في رؤية الله –تعالىٰ– يوم القيامة فيقررُ أنها جائزة بالأبصار، ويدلل علىٰ ذلك بأدلة وردت عند سابقية من آيات كريمة وأحاديث شريفة وحجج عقلية.

ثم يتحدث عن القدر[4] ويبيّن خلق الله –تعالىٰ– للأفعال وكسب الناس لهذه الأفعال، ويستشهد علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴾[5]، ويدلل الأشعري في حديثه علىٰ خلق الله للأعمال فيميز بين حركتين: حركة الاضطرار وحركة الكسب.

ثم يتحدث عن الاستطاعة[6]، ويتحدث عن التعديل والتجوير[7] ويبين أن أن الله قادر علىٰ أن يلطف بالكافرين فيجعلهم مؤمنين، وله –تعالىٰ– أن يؤلم

(١) (سورة النساء: الآية١٦٦).

(٢) (سورة فاطر: الآية١١).

(٣) الأشعري. اللمع. (ص،٣٣).

(٤) المرجع السابق. (ص،٦٩).

(٥) (سورة الصافات: الآية٩٦).

(٦) الأشعري. اللمع. (ص،٩٣).

(٧) المرجع السابق. (ص،١١٥).

الأطفال في الآخرة وهو عادل إن فعله، ويدلل علىٰ ذلك بأنه تعالىٰ المالك القاهر الذي ليس بمملوك ولا فوقه مبيح ولا آمر ولا زاجر.

ثم يبيّن أن الإيمان هو التصديق بالله تعالىٰ[1] ويستند في ذلك إلىٰ أن الإيمان في اللغة هو التصديق بدليل قوله تعالىٰ: ﴿ وَمَآ أَنتَ بِمُؤۡمِنٖ لَّنَا وَلَوۡ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴾[2]، ثم يوضّح أن الفاسق من أهل القبلة: مؤمن بإيمانه فاسق بكبيرته، ويرد علىٰ المعتزلة الذين يضعونه في منزلة بين المنزلتين ويوضح خطأهم في ذلك.

ثم ينتقل إلىٰ الكلام في الخاص والعام والوعد والوعيد[3]، وينهي كتابه في الكلام عن إمامة أبي بكر الصديق –رضي الله عنه– [4] ويقدم الأدلة علىٰ صحتها. صحتها.



(١) المرجع السابق. (ص،١٢٣).

(٢) (سورة يوسف، الآية١٧).

(٣) الأشعري. اللمع. (ص،١٢٧).

(٤) المرجع السابق. (ص،١٣٣).

الإبانة عن أصول الديانة

بدأ الأشعري كتابه بـ «فصل في قول أهل الزيغ والبدع»[1] وذكر من زيغهم أنهم خالفوا روايات الصحابة وجحدوا عذاب القبر، ودانوا بخلق القرآن، وأثبتوا أن العباد يخلقون الشر إلخ...، ثم عرض إنكارهم لصفات الله الخبرية مثل: اليدين والعينين والقوة وتأويلهم بعضها.

ثم كتب فصلًا في «إبانة قول أهل الحق والسنة»[2] بيّن فيه إيمانهم بالكتاب وتمسكهم بالسنة، واتباعهم الصحابة، وأشاد بأحمد بن حنبل الذي دفع الضلال، ثم بيّن إيمان أهل السنة بالصفات الخبرية مثل: الاستواء والوجه واليدين، كما بيّن إيمانهم بأن الله خالق أفعال العباد، كما أكد رؤيتهم لله –تعالىٰ– بالأبصار يوم القيامة، كما أنكر تكفير أحد من أهل القبلة بذنب يرتكبه ما لم يستحله إلخ....

ثم انتقل الأشعري إلىٰ باب آخر هو «الكلام في إثبات رؤية الله تعالىٰ بالأبصار في الآخرة»[3] وحشد فيه الآيات والأحاديث التي تعضد وجهة نظره بدأ بقوله تعالىٰ: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[4]،وفصل أنواع النظر، ثم رد

---

(١) الأشعري. الإبانة عن أصول الديانة. تحقيق د. فوقية حسين. (ص،١٤) وما بعدها.

(٢) المرجع السابق. (ص،٢٠).

(٣) المرجع السابق. (ص،٣٥).

(٤) (سورة القيامة، الآيتان٢٢-٢٣).

علىٰ مزاعم المعتزلة التي تنفي النظر.

ثم جاء بباب آخر هو «الكلام في أن القرآن كلام الله –تعالىٰ– غير مخلوق»[1] فبيّن أن أمر الله –تعالىٰ– كلامه، واستشهد علىٰ أن أمره مباين لخلقه في قوله تعالىٰ: ﴿أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ﴾[2]. ثم أتىٰ بآيات أخرىٰ مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3].

ورد علىٰ الجهمية الذين زعموا أن كلام الله مخلوق بأنهم يلزمهم أن يكون الله تعالىٰ لم يزل كالأصنام التي لا تنطق ولا تتكلم.

ثم كتب بابًا في «ذكر الرواية في القرآن»[4] نقل فيه أقوال العلماء الذين قالوا بأن القرآن كلام الله تعالىٰ، وتكفيرهم القائل بأن القرآن مخلوق، ومن هؤلاء العلماء الذين نقل أقوالهم الأشعري: أحمد بن حنبل، ووكيع وابن المبارك وسفيان الثوري، ومالك بن أنس، والشافعي، والليث بن سعد، وسفيان بن عيينة إلخ..

ثم دوّن بابًا في الكلام علىٰ من توقف في القرآن وقال لا أقول إنه مخلقو ولا أنه غير مخلوق[5]، فعرض وجهة نظر من قال بهذا وخطأها وأقام عليه الحجة بالأدلة التي عرضها في فصل سابق وهي أن القرآن كلام الله –تعالىٰ– غير مخلوق.

---

(١) الأشعري. الإبانة عن أصول الديانة. (ص،٦٣).

(٢) (سورة الأعراف: الآية٥٤).

(٣) (سورة النحل: الآية ٤٠).

(٤) الأشعري. الإبانة عن أصول الديانة. (ص،١٢٠).

(٥) المرجع السابق. (ص،٩٧).

ثم فصّل الحديث عن الصفات الخبرية وبدأها بالاستواء علىٰ العرش استواء يليق به من غير طول استقرار، وينقل الآيات التي ورد فيها ذكر العرش والتي تشير إلىٰ العلو ومنها: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[1]، ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[2] ثم يذكر تأويل المعتزلة للاستواء بأنه الاستيلاء والملك والقهر ويرد عليهم ويفند رأيهم بعدد كبير من الآيات والحجج.

ثم يذكر صفات خبرية أخرىٰ هي الوجه والعينان والبصر واليدان لله تعالىٰ[3]، وأخبر عن الإيمان بها كما وردت دون تأويل ولا تشبيه، وذكر تأويل الجهمية والمعتزلة لهذه الصفات فذكر تأويلهم لليدين بالنعمتين ويرفض ذلك ويرد ذلك ويرد علىٰ شبههم وحججهم.

ثم أفرد بابًا آخر في الرد علىٰ الجهمية في نفيهم علم الله تعالىٰ وقدرته وجميع صفاته[4] وذكر الآيات التي توضح ذلك.

ثم تحدث عن الإرادة[5] وبيّن أن الله تعالىٰ ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾[6]، ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾[7] ثم انتقل إلىٰ الكلام في تقدير أعمال العباد والاستطاعة والتعديل

---

(١) (سورة طه: الآية٥).

(٢) (سورة فاطر: الآية١٠).

(٣) الأشعري. الإبانة.(ص،١٢٠)

(٤) المرجع السابق. (ص،١٤١).

(٥) المرجع السابق. (ص،١٦١).

(٦) (سورة هود: الآية١٠٧).

(٧) (سورة البقرة: الآية٢٥٣).

والتعديل والتجوير[1] وفصّل ذلك واحتوىٰ كثيرًا من التفريعات ثم نقل الروايات في القدر وذكر عدةأحاديث وآيات بهذا الصدد منها قوله ﷺ: «**اعملوا فكل ميسر لما خلق له**»[2] وقوله تعالىٰ: ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا﴾[3].

ثم نقل كلامًا عن الشفاعة والخروج من النار[4] وكلامًا آخر في الحوض وفي عذاب القبر.

ثم دوّن كلامًا في إمامة أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقدّم الأدلة علىٰ صحة إمامته من القرآن ومن إجماع الصحابة، كما دلّل علىٰ شرعية إمامة الخلفاء الراشدين، وردّ علىٰ الرافضة ادعاءهم إمامة علي رضي الله عنه.

❁ ❁ ❁ ❁

إن الدرسة الفاحصة لكتاب «الإبانة»، ومقارنته بكتب الأشعري وبالذات «اللمع» و«رسالة إلىٰ أهل الثغر» المشابهين له من حيث كلامهما عن الله وصفاته والقضاء والقدر إلخ... إن الدراسة الفاحصة تجعلنا نقول بتميز وتفرد كتاب

---

(١) الأشعري. الإبانة. (ص١٨١).

(٢) المرجع السابق. (ص٢٢٥).

(٣) (سورة الكهف: الآية ١٧).

(٤) الأشعري. الإبانة. (ص٢٤١).

«الإبانة» سواء في الحقائق التي اعتمدها ومباينتها لبعض الحقائق في الكتابين الآخرين، وفي طريقة التدليل التي اتبعها إلىٰ درجة تجعل الفاحص يظن أن المؤلف لهذا الكتاب غيره للكتابين الآخرين، ونحن قبل أن نصدر حكمنا النهائي عليه سنحاول أن نستعرض الأمور التي يتفرد بها كتاب «الإبانة»، ويتميز بها عن الكتابين الآخرين. فبماذا يتفرد ويتميز ويختلف؟

۞ ۞ ۞ ۞

يتفرد كتاب «الإبانة» بين أبي الحسن الأشعري بلون خاص بالمقارنة مع كتبه الأخرىٰ ويختلف عنها، فهو أقرب إلىٰ كتب السنة التي ألفها أتباع أحمد بن حنبل رادين فيها علىٰ المعتزلة ومثبتين وجهات نظرهم؛ أو التي تعبر عن البناء الثقافي القائم علىٰ الكتاب والسنة ويتضح ذلك من خلال الأمور التالية:

١- ليس في «الإبانة» حديث عن وجود الله في حين أن كتاب «اللمع» احتوىٰ علىٰ باب «في وجود الصانع» واحتوت «رسالة إلىٰ أهل الثغر بباب الأبواب» كلامًا في هذا المعنىٰ.

٢- وأورد كتاب «الإبانة» الصفات الخبرية لله وأثبتها مثل: الاستواء علىٰ العرش، والوجه الخ... وأتىٰ بالأحاديث التي تدل عليها ورفض تأويلها ودحض حجج المأولين وهي إحدىٰ النقاط الرئيسية في

التصادم بين البنتين الثقافيتين حول «الكتاب والسنة» وحول «مذهب الذرة، فلم يتعرض كتاب «اللمع» لها، في حين أنها وردت في «رسالة إلىٰ أهل الثغر» بشكل أقل تفصيلًا مما ورد في الإبانة.

٣- أورد كتاب «الإبانة» صفات الذات دون تحديدها بسبع وهو التحديد الذي أصبح متبعًا فيما بعد في الكتب الأشعرية والذي أورده كتابا الأشعري: «اللمع» و «الرسالة إلىٰ أهل الثغر»، وهو في هذا أقرب إلىٰ مدرسة أحمد بن حنبل.

٤- يتفرد كتاب «الإبانة» في طريقة التدليل عن الكتابين الآخرين، في «الإبانة» يعتمد علىٰ الآية القرآنية والحديث الشريف في تدليله في حين أن «اللمع» و «الرسالىٰ إلىٰ أهل الثغر» يعتمدان علىٰ دليل الحدوث من جهة وقد انفردت «الرسالة» باستخدام مصطلحات الجوهر والعرض والجسم، وهذا يشير إلىٰ أن كتاب «الإبانة» أقرب إلىٰ طريقة التدليل التي تعتمدها مدرسة أحمد بن حنبل.

٥- يتفرد كتاب «الإبانة» بإيراد الدليل السمعي عند حديثه عن الصفات في حين أن «اللمع» و«الرسالة إلىٰ أهل الثغر» يزاوجان بين الدليل السمعي والعقلي عند الحديث عنها.

٦- تناولت جميع كتب الأشعري موضوع القدر، فقد جاء كلام الأشعري في «الإبانة» عن موضوع القدر مطابقًا في مضمونه وطريقة عرضه لما

أوردته كتب السنة من حيث الاعتماد علىٰ الحديث الشريف، في حين أن «اللمع» و «الرسالة» قد أوردا فكرة الكسب، وتحدثا عن الاستطاعة وهي الأفكار التي أصبحت أصلًا من أصول العقيدة الأشعرية، وخلو الإبانة من فكرة الكسب التي امتازت بها العقيدة الأشعرية يشير إلىٰ انتماء «الإبانة» إلىٰ مدرسة أحمد بن حنبل.

٧- انفرد كتاب «الإبانة» بنقل الروايات التي تقول إِنّ القرآن كلام الله غير مخلوق ونقل تكفير من يقول بغير ذلك، وأورد في ذلك روايت عن أحمد بن حنبل ووكيع وعبد الله بن المبارك ومحمد بن الصياح البزار إلخ.....، وهذا يعطي «الإبانة» صفة مدرسة أحمد بن حنبل التي أكثرت من الاستشهاد بأقوال الصحابة والتابعين لتأييد رأيها.

٨- أشار كتاب «الإبانة» إلىٰ الإيمان بعذاب القبر وبالحوض، وأن الميزان حق وأن الصراط حق، وأن الله عز وجل يوقف العباد في الموقف إلخ...، في حيت خلت «اللمع» و«الرسالة إلىٰ أهل الثغر» من مثل هذا الكلام التفصيلي مما يجعل كتاب «الإبانة» أقرب في محتواه إلىٰ كتب السنة التي انبثقت عن مدرسة أحمد بن حنبل.

٩- عرّف كتاب «الإبانة» الإيمان بأنه قول وعمل في حين عرّفه كتاب «اللمع» و«الرسالة إلىٰ أهل الثغر» بأنه تصديق، ويتطابق تعريف «الإبانة» مع تعريف أحمد بن حنبل.

١٠- انفرد كتاب «الإبانة» بالثناء علىٰ أحمد بن حنبل وبتصريح الأشعري بمتابعته فاقل في بداية تعريفه لقوله وعقيدته: «وبما كان يقول به أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل، نضر الله وجهه، ورفع درجته وأجزل مثوبته قائلون، ولما خالف قوله مخالفون»، في حين خلا الكتابان الآخران من مثل هذا الثناء والإشارة وهذا القول تصريح بانتماء كتاب «الإبانة» إلىٰ مدرسة أحمد بن حنبل.

❁ ❁ ❁ ❁

والخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها هي: اختلاف كتاب «الإبانة» عن بقية كتب الأشعري، وأنه مطابق في مضمونه وطرق تدليله لكتب «السنة» التي اتبعها مدرسة أحمد بن حنبل، فلماذا جاء هذا التطابق؟ ولماذا ألفه الأشعري؟

وحتىٰ نستطيع أن نجيب علىٰ هذا السؤال، لا بد لنا من العودة إلىٰ الكتب التي أرخت لحياة الأشعري لعلنا نجد جوابًا فيها.

ذكرت كتب الطبقات أن لقاءً ثمّ بين أبي الحسن الأشعري وبين البربهاري شيخ الحنابلة[1] آنذاك في بغداد بعد أن تحول الأشعري من الاعتزال إلىٰ تفنيد

(١) البربهاري: أبو محمد الحسن بن علي بن خلف البربهاري الفقيه، كان قوالًا بالحق، داعية إلى الأثر، لا يخاف في الله لومة لائم، وصحب سهل بن عبد الله التستري. طبقات الحنابلة ٢/ ١٨-٤٥، البداية والنهاية ١١/ ٢٠١.

أقوالهم كذا، فقال له البربهاري: أنا لا أفهم إلا ما قاله أحمد بن حنبل، فخرج من عنده وألف كتاب «الإبانة»[1] حتىٰ قيل: إن الأشعري ألف الإبانة من الحنابلة وقاية.

إذن تربط الرواية السابقة بين لقاء الأشعري بالبربهاري وبين تأليف كتاب «الإبانة» وتعلّل بأنه ألفّه من أجل إرضاء الحنابلة، وفعلًا فقد كان لإرضاء الحنابلة دور كبير في جعل كلام الأشعري مقبولًا عند أهل السنة، وحصل التداخل -بالتالي- بين البنيتين الثقافيتين حيث أصبح مذهب الذرة مقبولًا، وأصبحت مصطلحاته معتمدة بعد أن كانت مرفوضة.

ويمكن أن نضع عنصر إرضاء شيخ الحنابلة في إطاره، ونقدره التقدير الصحيح إذا قارنّا هذا الإرضاء بواقعة مشابهة هي موقف أحمد بن حنبل من سعيد بن كلاب الذي كان موقفه مشابهًا لموقف أبي الحسن الأشعري، ولكن طروحاته لم يقبلها أهل السنة؛ لأنَّ ابن حنبل لم يرضَ عنه ولا عن الحارث المحاسبي، لذلك لم يتداخل البنيانان الثقافيان، بل بقي كل بنيان مستقلًا في حين تداخل البنيانان بعد الأشعري؛ لأنه أرضىٰ الحنابلة.

ولم يكتفِ أبو الحسن الأشعري بإحداث الدعوة إلىٰ التداخل بين البنيتين الثقافيتين وإدخال مذهب الذرة إلىٰ البنيان الثقافي للكتاب والسنة بشكل عملي

---

(١) الذهبي. سير أعلام النبلاء ج١٥/ ص٩٠، لا داعي للتشكك في المقابلة طالما أن كتاب «الإبانة» صحيح النسبة إلى الأشعري وأن مضمونه مختلف عما كتب الأشعري نفسه من جهة ومقارب لما كتبه الحنابلة من جهة أخرى.

وإنما دعا إلىٰ ذلك بشكل قوي في رسالته «الاستحسان في خوض علم الكلام»[1]، فقد وصف الأشعري المعادين لاستخدام مصطلحات مذهب الذرة من مثل: الحركة والسكون، والجسم والعرض، والألوان والأكوان، والجزء والطفرة – وصفهم بالجهل.

ثم يبيّن أنّ مصطلح الحركة والسكون موجود في القرآن الكريم عندما استشهد إبراهيم عليه السلام بأفول الشمس والقمر والكواكب وتحريكها من مكان إلىٰ مكان علىٰ أن ربه لا يجوز عليه شيء من ذلك، وأن من جاز عليه الأفول الانتقال من مكان إلىٰ مكان ليس بإله.

كما وضّح أنّ أصول التوحيد مأخوذة من القرآن الكريم كدليلي التمانع والتضاد الواردين في قوله تعالىٰ: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ﴾[2]، وفي قوله تعالىٰ: ﴿ مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ﴾[3].

---

(١) تشكك بعض الباحثين في نسبة هذه الرسالة إلى أبي الحسن الأشعري ومنهم د. عبد الرحمن بدوي ود. فوقية حسين، ونرى أن هذا التشكك لا مبرر له طالما أن مضمون الرسالة يتفق في معظمه مع كتب أبي الحسن الأشعري الأخرى. وأما ادعاء الدكتور بدوي بأن الحديث عن مشكلة علم الكلام جاء في مرحلة متأخرة عن عصر الأشعري فذلك ما لا نرى صحته حيث يبيّن كتاب «مقالات الإسلاميين» للأشعري –نفسه– الغني الواسع في معرفته لتفصيلات قضايا علم الكلام من جهة، ولوفرة حصيلة الفرق في جزيئات علم الكلام من جهة ثانية.

(٢) (سورة الأنبياء: الآية٢٢).

(٣) (سورة المؤمنين: الآية ٩١).

كما علّم القرآن الرسول كيفية محاجحة منكري البعث الذين أقروا بالخلق الأول –علّمه أنْ يردّ عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾[1].

أما الذين ينكرون الخلق الأوّل فعلّمه أنْ يردّ عليهم بقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ﴾[2].

ثمّ يبيّن أنّ أصل الردّ علىٰ الدهرية موجود في حديث الرسول ﷺ عندما قال أعرابي أمام الرسول ﷺ: فما بال الإبل كأنها الظباء تدخل في الإبل الجرباء فتجرب؟ فقال الرسول ﷺ: «**فمن أعدىٰ الأوّل؟**».

ثم يبيّن أنّ أصل الإقرار بالجزء الذي لا يتجزأ موجود في القرآن الكريم ويدلّل علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ شَىْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِىٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾[3]، ومحال إحصاء ما لا نهاية له.

ويوضّح أنّ دليل الحدوث أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالىٰ:

﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ۝٥٨ ءَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُۥٓ أَمْ نَحْنُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾[4].

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) (سورة يس: الآية ٧٩).

(٢) (سورة يس: الآية ٨٠).

(٣) (سورة يس: الآية١٢).

(٤) (سورة الواقعة: الآية ٥٨-٥٩).

إذن نستطيع أن نبلور الآن جوابنا علىٰ السؤال الأول الذي طرحناه وهو: ما الذي أدخله الأشعري إلىٰ البنية الثقافية حول الكتاب والسنة؟

أدخل الأشعري مذهب الذرة: مفرداته ومصطلحاته وروّج له، واستخدمه في بعض دعاويه وكتاباته، كما أدخل فكرة الكسب.

ولم يقف الأمر في دخول مذهب الذرة عند الأشعري إنّما تبعه في ذلك عدد من الكتّاب والمفكرين مثل: الباقلاني والجويني.

فكيف كانت صورته عندهم؟

لم يقف الأمر في دخول مذهب الذرة عند الأشعري إنما تعدّىٰ إلىٰ ذلك أن يدخل في كل فروع الثقافة، العقائد والفقه والنحو والبلاغة وأصول الفقه إلخ.... ولدىٰ عدد كبير من الكتاب والعلماء الإسلاميين.

ونحن الآن سنتابع تداخل مذهب الذرة في فرعين فقط من فروع ثقافتنا الإسلامية هما: العقائد والفقه، حتىٰ لا يكون هناك تطويل متعب ومما للمسلم غير المتخصص، ثم سنرصد أبرز آثار هذا التداخل علىٰ البناء الإسلامي.

ونحن من أجل تحقيق هذه الأهداف سنستعرض تداخل مذهب الذرة في البناء الثقافي الإسلامي في مجال العقيدة عند كاتبين هما: أبو بكر الباقلاني وأبو المعالي الجويني، وسنؤجل الحديث عن الفقه إلىٰ حين استيفاء الكلام عن العقيدة والتطورات التي مرت بها.

❁ ❁ ❁ ❁

٢- أبو بكر الباقلاني[١]

يمهد الباقلاني للحديث عن إثبات وجود الله وصفاته بمقدمات طويلة عن العلم وأقسامه وطرقه.

ويبدأ الحديث عن حقيقة العلم ومعناه بتعريف حد العلم والدليل علىٰ ذلك ويرد علىٰ شبهة تتعلق بهذا التعريف.

ثم يتحدث عن أقسام العلوم[٢] فيذكر أنها علمان: علم قديم وهو علم الله تعالىٰ، ومحدث وهو علم المخلوقين، ثم يوضح أقسام علم المخلوقين بأنها: علم ضرورة وعلم نظر واستدلال، ثم يعرف كلًا من هذين العلمين. ثم يتحدث في «باب الكلام في مدراك العلوم»[٣] عن الطرق التي يقع العلم بالمعلوم منها إذا كان ضرورة فيذكر أنها ستة، منها الحواس الخمس، والضرب السادس منها ضرورة

(١) هو أبو بكر محمد بن الطيب الباقلاني، ولادته ليست محددة في كتب التاريخ، ولد في البصرة، انتقل إلى بغداد، تلقى العلم هناك، اتصل ببني بويه، وسفر لهم إلى امبراطور بيزنطه، وجرى هناك حوار طريف بينه وبين الامبراطول حول عائشة رضي الله عنها ومريم عليها السلام، توفي عام ٤٠٣ للهجرة. يمتاز الباقلاني بجودة التأليف ومنهجيتها، لذلك يعتبر الباقلاني أفضل عارض للنهج الأشعري، به تمثلت البداية الصحيحة للتيار الأشعري في التاريخ الإسلامي، ومما يؤكد هذا أن تبويباته التي اتبعها في كتاب التمهيد هي التي اتبعت من قبل الأشاعرة التالين. وكتاب التمهيد ألّفه القاضي أبو بكر محمد بن الطيب بن الباقلاني لولد عضد الدين البويهي كما هو مذكور في المقدمة، عني بتصحيحه ونشره: الأب ريتشارد يوسف مكارثي اليسوعي، طبعته المكتبة الشرقية، بيروت ١٩٥٧م.

(٢) الباقلاني. التمهيد. (ص٦).

(٣) المرجع السابق. (ص٩).

تخترع في النفس ابتداء من غير أن تكون موجودة ببعض هذه الحواس، ثم يضرب أمثلة متعددة علىٰ هذا النوع السادس من العلم.

ثم يتحدث في «باب الكلام في الاستدال»[1] عن أوجهه الكثيرة، فيذكر منها: أن ينقسم الشيء في العقل علىٰ قسمين أو أقسام يستحيل أن تجتمع كلها في الصحة والفساد. فيبطل الدليل أحد القسمين، فيقضي العقل علىٰ صحة ضده. وكذلك إن أفسد الدليل سائر الأقسام صحح العقل الباقي منها لا محالة. ومنها: أن يجب الحكم والوصف للشيء في الشاهد لعلة ما، فيجب القضاء علىٰ أن كل من وصف بتلك الصفة فحكمه أنه مستحق لها لتلك العلة حكم مستحقها في الشاهد.

ومن ذلك أن يستدل بصحة الشيء علىٰ صحة مثله وما هو في معناه، وباستحالته علىٰ استحالة مثله وما كان في معناه.

ثم يميز في باب آخر بين الدليل والاستدلال.

ثم ينتقل إلىٰ الحديث عن المعلومات والموجودات[2] ويبدأ الكلام عن أقسام المعلومات فيذكر أنها ضربان: معدوم وموجود، ثم يفصل الحديث عن أقسام المعدومات، ثم يذكر أن الموجودات علىٰ ضربين: قديم وهو المتقدم في الوجود علىٰ غيره، والمحدث وهو الموجود عن عدم.

---

(١) المرجع السابق. (ص١١).

(٢) المرجع السابق. ص١٥.

ثم يبين أقسام المحدثات[1] فيذكر أنها تنقسم إلىٰ ثلاثة أقسام: جسم مؤلف، وجوهر منفرد، وعرض موجود بالأجسام والجواهر. ثم يعرف الجوهر بأنه: هو الذي يقبل من كل جنس من أجناس الأعراض عرضًا واحدًا، والأعراض هي التي لا يصح بقاؤها. ثم يتحدث عن إثبات الأعراض[2] فيورد أدلة منها: تحرك الجسم بعد سكونه وسكونه بعد حركته. ولابد أن يكون ذلك كذلك لنفسه أو لعلة. فلو كان متحركًا لنفسه، ما جاز سكونه. وفي صحة سكونه بعد تحركه دليل علىٰ أنه متحرك لعلة هي الحركة.

ويدل علىٰ ذلك أيضًا أن الجسم لا يخلو من أن يكون متحركًا لنفسه أو لمعنىٰ. ويستحيل أن يكون متحركًا لنفسه.

يمهد الباقلاني بكل هذا الكلام لينتقل إلىٰ الحديث عن وجود الله وصفاته.

قال في «باب الكلام في إثبات حدث»[3]: «جميع العالم العلوي والسفلي لا يخرج عن هذين الجنسين أعني الجواهر والأعراض، وهو محدث بأسره».

ثم يتحدث عن إثبات الصانع فيقول[4]: «لا بد لهذا العالم المُحدَث المصوّر من مُحدِث مُصوِّر والدليل علىٰ ذلك أن الكتابة لابد لها من كاتب، ولابد للصورة من مصور وللبناء من بان. ويدل لىٰ ذلك علمنا بتقديم بعض الحوادث علىٰ بعض

(١) المرجع السابق. ص١٧.
(٢) المرجع السابق. ص١٨.
(٣) المرجع السابق. ص٢٢.
(٤) المرجع السابق. ص٢٣.

وتأخر بعضها عن بعض مع العلم بتجانسها.

ويدل علىٰ ذلك أيضًا علمنا بصحة قبول كل جسم من أجسام العالم لغير ما حصل عليه من التركيب.

والدليل علىٰ أن العالم ليس بفاعل لنفسه أنه من الموات والأعراض التي لا يصح أن تحيا والفاعل لا يكون إلا حيًا قادرًا.

ولا يجوز أن يكون صانع المحدثات مشبهًا لها.

ولا يجوز أن يكون فاعل المحدثات محدثًا بل يجب أن يكون قايمًا».

ثم ينتقل الباقلاني إلىٰ الحديث عن صفات الله فيقول في حديثه عن صفة الوحدانية[1]:

«وليس يجوز أن يكون صانع العالم اثنين ولا أكثر من ذلك، والدليل علىٰ ذلك أن الاثنين يصح أن يختلفا ويريد أحدهما ضد مراد الآخر، فلو اختلفا وأراد أحدهما إحياء جسم وأراد الآخر إماتته لوجب أن يلحقهما العجز أو واحدًا منهما؛ لأنه محال أن يتم ما يريدان جميعًا لتضاد مراديهما. فوجب أن لا يتما أو يتم مراد أحدهما دون الآخر فليحق من لم يتم مراده العجز أو لا يتم مرادهما فيلحقهما العجز. والعجز من سمات الحدث، والقديم لا يجوز أن يكون عاجزًا».

ثم يذكر دليلًا علىٰ صفة الحياة لذات الإله فيقول[2]: «والدليل علىٰ ذلك أنه

(١) المرجع السابق. ص٢٥.

(٢) المرجع السابق. ص٢٦.

فاعل عالم قادر، والفاعل العالم القادر لا يكون إلا حيًا».

ثم يقدم الدليل علىٰ أن الله تعالىٰ عالم[1] بوجود الأفعال المحكمات منه.

ثم يتساءل[2]: «فإن قال قائل: فما الدليل علىٰ أنه سميع بصير متكلم قيل له: الدليل علىٰ ذلك أنه قد ثبت أنه حي بما وصفناه. والحي يصح أن يكون سميعًا بصيرًا متكلمًا. ومتىٰ عري عن هذه الأوصاف مع صحة وصفه بها، فلا بد من أن يكون موصوفًا بأحدهما من الخرس والسكون والعمىٰ والصمم. وكل هذه الأمور آفات قد اتفق علىٰ أنها تدل علىٰ حدث الموصوف بها. فلم يجز وصف القديم بشيء منها، فوجب أن يكون سميعًا بصيرًا متكلمًا».

ثم تحدث عن صفة الإرادة فقال[3]: «فما الدليل علىٰ أنه مريد قيل له: وجود الأفعال منه وتقدم بعضها علىٰ بعض في الوجود، وتأخر بعضها علىٰ بعض في الوجود، وتأخر بعضها علىٰ بعض في الوجود».

ثم تحدث عن صفتي الغضب والرضا فقال[4]: «هل تقولون أنه تعالىٰ غضبان راض وإنه موصوف بذلك؟ قيل له: أجل. وغضبه علىٰ من غضب عليه ورضاه عمن رضي عنه هما إرادته لإثابة المرضي عنه ومعاقبة المغضوب عليه لا غير ذلك».

---

(١) المرجع السابق. ص٢٦.

(٢) المرجع السابق. ص٢٦.

(٣) المرجع السابق. ص٢٧.

(٤) المرجع السابق. ص٢٧.

ثم يذكر بعض الشبهات ويرد عليها مثل[1]: جواز الشهوة علىٰ الله عز وجل، واستمرار وصف الله عز وجل بالحياة والعلم والقدرة والسمع والبصر والتكلم والإرادة، وعدم جواز انعدام القديم.

ثم يقدم الدليل علىٰ أن صانع العالم[2] لم يصنعه لداع دعاه إلىٰ فعله أو محرك أو باعث بعثه أو مزعج أزعجه، أو خاطر اقتضىٰ وجود الحوادث منه.

ثم يذكر أن القيوم تعالىٰ فعل العالم[3] لا لعلة أوجبت حدوثه؛ لأن العلة لا تجوز عليه؛ لأنها مقصورة علىٰ جر المنافع ودفع المضار. ويدل علىٰ ذلك أيضًا أنه لو كان تعالىٰ فاعلًا للعالم لعلة أوجبته، لم تخل تلك العلة من أن تكون قديمة أو محدثة.

ثم يرد علىٰ القائلين بفعل الطبائع، فيقول[4]: «فإن قال قائل: لم أنكرتم أن يكون صانع العالم طبيعة من الطبائع وجب حدوث العالم عن وجودها وقيل له: أنكرها ذلك؛ لأن هذه الطبيعة لا تخلو أن تكون معنىٰ موجودًا أو طبيعة معدومة ليست بشيء. فإن كانت معدومة ليست بشيء، لم يجز أن تفعل شيئًا، أو أن يجب عنها شيء أو ينسب إليها شيء؛ لأنه لو جاز ذلك، لجاز وجود الحوادث من كل معدوم ووجوبها عن كل معدوم؛ لأن ما يقع عليه هذا الاسم فليس بذات ولا

(١) المرجع السابق. ص٢٨.
(٢) المرجع السابق. ص٣٠.
(٣) المرجع السابق. ص٣١.
(٤) المرجع السابق. ص٣٤.

يختص ببعض الأحكام والصفات، فلو كان منه ما يحدث الأفعال أو تجب عليه، لصح ذلك من كل معدوم، وذلك باطل باتفاق.

وإن كانت الطبيعة التي نسب السائل إليها حدوث العالم وعلقه بها معنىٰ موجودًا، لم تخل تلك الطبيعة، الموجبة عندهم لحدوث العالم، من أن تكون قديمة أو محدثة».

ثم يرد علىٰ المنجمين[1]، وأهل التثنية[2]، وعلىٰ المجوس[3]، وعلىٰ النصارىٰ[4]، ثم ينتقل إلىٰ إثبات نبوة محمد ﷺ ويرد علىٰ من أنكرها[5]، ثم ينتقل إلىٰ الحديث عن إعجاز القرآن الكريم ويقرر أنه معجزة بيانية وأن الله –سبحانه وتعالىٰ تحدىٰ به العرب[6]، ويذكر وجهين آخرين لإعجاز القرآن هما: الإخبار عن عن الغيوب، وقصص الأولين.

ثم يستمر في تفنيد وجهات نظر الآخرين، فيتحدث علىٰ اليهود في الأخبار[7]، ويتحدث عن منكر نسخ شريعة موسىٰ عليه السلام من جهة السمع

---

(١) المرجع السابق. ص٤٨.

(٢) المرجع السابق. ص٦٠.

(٣) المرجع السابق. ص٧٠.

(٤) المرجع السابق. ص٧٥.

(٥) المرجع السابق. ص١٣٢.

(٦) المرجع السابق. ص١٤١.

(٧) المرجع السابق. ص١٦٠.

دون العقل[1]، وعلىٰ محيل النسخ من جهة العقل، ثم علىٰ العيسوية منهم، ثم يتكلم علىٰ المجسمة[2].

ثم ينتقل إلىٰ باب آخر هو «باب الكلام في الصفات» فيثبت الصفات ردًا علىٰ إنكار المعتزلة لها فيقول[3]: «فإن قال قائل: ولم قلتم إن للقديم تعالىٰ حياة وعلمًا وقدرة وسمعًا وبصرًا وكلامًا وإرادة؟ قيل له: من قال أن له حياة وعلمًا وقدرة وإرادة وكلامًا وسمعًا وبصرًا وأن هذا فائدة وصفه بأنه حي عالم قادر مريد. يدل علىٰ ذلك أن الحي منّا لا يجوز أن يكون حيًّا عالمًا قادرًا مريدًا منعدم الحياة والعلم والقدرة، ولا توجد به هذه الصفات إلا وجب بوجودها به أن يكون حيًا عالمًا قادرًا، فوجب أنه علة في كونه كذلك، كما وجب أن تكون علة كون الفاعل فاعلًا والمريد مريدًا وجود فعله وإرادته التي يجب كونه فاعلًا مريدًا لوجدهما وغير فاعل مريد لعدمهما. فوجب أن يكون الباري سبحانه ذا حياة وعلم وقدرة وإرادة وكلام وسمع وبصر، وأنه لو لم يكن له شيء من هذه الصفات، لم يكن حيًا ولا عالمًا ولا قادرًا ولا مريدًا ولا متكلمًا ولا سميعًا ولا بصيرً- تعالىٰ عن ذلك. كما أنه لو لم تكن له إرادة وفعل لم يكن عندنا وعندهم فاعلًا ولا مريدًا؛ لأن الحكم العقلي الواجب عن علة لا يجوز حصوله لبعض من

(١) المرجع السابق. ص١٧٦.
(٢) المرجع السابق. ص١٩١.
(٣) المرجع السابق. ص١٩٧.

هو له مع عدم العلة الموجبة له ولا لأجل شيء يخالفها؛ لأن ذلك يخرجها عن أن تكون علة الحكم».

ثم يأتي بالدليل السمعي علىٰ علم الله وقدرته فيقول[1]: «ويدل علىٰ إثبات علم الله وقدرته من نص كتابه قوله: ﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلۡمِهِۦ﴾[2]، وقوله: ﴿وَمَا تَحۡمِلُ مِنۡ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلۡمِهِۦ﴾[3]، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِي خَلَقَهُمۡ هُوَ أَشَدُّ مِنۡهُمۡ قُوَّةً﴾[4]، والقوة هي القدرة، فأثبت لنفسه العلم والقدرة».

ثم يرد علىٰ شبهة المعتزلة في نفي صفة العلم عن الله تعالىٰ ويوظف دليل قياس الغائب علىٰ الشاهد لإثبات وجهة نظره[5].

ثم ينتقل إلىٰ «باب الكلام في معنىٰ الصفة وفي معنىٰ الوصف أم معنىٰ سواه» [6] فيحدد مفهومه للصفة بأنها هي الشيء الذي يوجد بالموصوف أو يكون له، وكسبه الوصف الذي هو النعت الذي يصدر عن الصفة.

ثم يتحدث عن قضية الوصف[7] ويعرفه بأنه: «هو قول الواصف، وهذا الوصف الذي كلام مسموع أو عبارة عنه، غير الصفة القائمة بالشيء وحقيقة

(١) الباقلاني. التمهيد. ص٢٠٣.
(٢) (سورة النساء: الآية ١٦٦).
(٣) (سورة فاطر: الآية ١١).
(٤) (سورة فصلت: الآية ١٥).
(٥) الباقلاني. التمهيد. ص٢٠٣.
(٦) المرجع السابق. ص٢١٣.
(٧) المرجع السابق. ص٢١٤.

وصفهما بذلك. فثبت بهذه الجملة أن وصف القديم سبحانه لنفسه بصفات ذاته ليس بغير صفات الذات».

ثم ينتقل إلىٰ «باب الكلام في الاسم ومام اشتقاقه وهل هو المسمىٰ أو غيره»، ويتحدث في البداية عن الاسم واشتقاقه ويرجع أنه مشتق من «سما، يسمو» وليس «وسم، يسم» كما قالت المعتزلة، ثم ينتقل إلىٰ فصل يبدأه بقوله[1]: «واختلف الناس في الاسم: هل هو المسمىٰ نفسه أو صفة متعلقة به وأنه غير التسمية، ويعضد وجهة نظره بأدلة من اللغة العربية ومن القرآن الكريم.

ثم ينتقل إلىٰ المشكلة التقليدية وهي قضية خلق القرآن، ويخصص الباقلاني لها بابًا، ويذكر فيه عدة أدلة تشير إلىٰ نفي خلق القرآن، يقول[2]: «والذي يدل علىٰ نفي خلق القرآن من القرآن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَىْءٍ إِذَآ أَرَدْنَٰهُ أَن نَّقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾[3]، فلو كان القرآن مخلوقًا لكان مخلوقًا بقول آخر، وذلك يوجب أن لا يوجد من الله تعالىٰ فعلًا أصلًا، إذا كان لابد أن يوجد قبله أفعال هي أقاويل لا غاية لها، وذلك محال باتفاق منًا ومنهم».

ثم يرد علىٰ أدلة المعتزلة، وهي ردود وردت عند غيره من السابقين مثل آية:

(١) المرجع السابق. ص ٢٢٧.
(٢) الباقلاني، التمهيد ص ٢٣٧.
(٣) (سورة النحل: الآية ٤٠).

﴿مَا يَأۡتِيهِم مِّن ذِكۡرٖ مِّن رَّبِّهِم مُّحۡدَثٍ إِلَّا ٱسۡتَمَعُوهُ وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ﴾[1]. وآية: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَٰهُ قُرۡءَٰنًا عَرَبِيّٗا﴾[2].

ثم يدون بابًا في بيان آراء المعتزلة، ثم يذكر أبوابًا يثبت فيها صفات الله – تعالىٰ– مثل الوجه واليدين ويرد علىٰ من يتأول هذه الصفات فيقول[3]: «فإن قال قائل: فما الحجة في أن لله عز وجل وجهًا ويدين؟ قيل له: قوله تعالىٰ: ﴿وَيَبۡقَىٰ وَجۡهُ رَبِّكَ ذُو ٱلۡجَلَٰلِ وَٱلۡإِكۡرَامِ﴾[4] وقوله تعالىٰ: ﴿مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّ﴾[5]، فأثبت لنفسه وجهًا ويدين».

ثم بين أن هناك من يؤول اليد بالنعمة والقدرة ويناقش مثل تلك الحجج، ويفصل في ردها، وينتهي إلىٰ عدم صحتها وبعدها عن الصواب.

ثم ينتقل إلىٰ «باب هل الله في كل مكان؟!» فيقول[6]: «فإن قالوا: فهل تقولون إنه في كل مكان؟ قيل: معاذ الله. بل هو مستو علىٰ العرش كما خبر في كتابه فقال: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[7]، وقال تعالىٰ: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ

---

(١) (سورة الأنبياء: الآية٢).

(٢) (سورة الزخرف: الآية ٣).

(٣) الباقلاني. التمهيد. ص ٢٥٨ وما بعدها.

(٤) (سورة الرحمن: الآية ٢٧).

(٥) (سورة ص: الآية ٧٥).

(٦) الباقلاني، التمهيد ص٢٦٠.

(٧) (سورة طه: الآية ٥).

ﭐلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾[1]، وقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾[2]، ولو كان في كل مكان لكان في جوف الإنسان وفمه وفي الحشوش والمواضع التي يرغب عن ذكرها-تعالىٰ عن ذلك.

ولوجب أن يزيد بزيادة الأماكن إذا خلق منها مالم يكن خلقه، وينقص بنقصانها إذا بطل منها ما كا، ولصح أن يغرب إليه إلىٰ نحو الأرض وإلىٰ وراء ظهورنا وعن أيماننا وشمائلنا، وهذا ما قد أجمع المسلمون علىٰ خلافة وتخطئة قائله».

ثم يسرد بعض الآيات الكريمة التي التبس معناها علىٰ بعض المسلمين فيمكن أن يفهموا منها أن الله -تعالىٰ- في كل مكان مثل قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّٱلَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾[3]، وقال: ﴿إِنَّنِي مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[4]، وَأَرَىٰ﴾[4]، وقال: ﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ﴾[5]، فيوضح معناها ويزيل مكامن الالتباس عنها.

---

(١) (سورة فاطر: الآية ١٠).

(٢) (سورة الملك، الآية ١٦).

(٣) (سورة النحل: الآية ١٢٨).

(٤) (سورة طه: الآية ٤٦).

(٥) (سورة المجادلة: الآية ٧).

ثم ينتقل إلىٰ «باب تفصيل صفات الذات من صفات الأفعال»[1].

ثم يطرح أربعة أسئلة عن الله تعالىٰ هي: ما هو؟ وكيف هو؟ وأين هو؟ ومتىٰ كان؟ ويجيب عليها. ثم يتحدث الباقلاني عن «جواز رؤية الله تعالىٰ بالأبصار»[2]، ويأتي بأدلة مطابقة لما ورد عن الأشعري وأحمد بن حنبل، ومناقشات مشابهة لما جاء في كتاباتهما.

ثم يتحدث الباقلاني في باب جديد عن أن الله تعالىٰ مريد للطاعة وسائر الحوادث[3].

ثم يدل بعد ذلك علىٰ أن الله يريد جميع أفعال العباد.

ثم ينتقل إلىٰ «باب الكلام في الاستطاعة» فيقول[4]: «فإن قال قائل: فهل تقولون إن الإنسان مستطيع لكسبه؟ قيل له: أجل. فإن قال: ولم قلتم ذلك؟ قلنا: لأن الإنسان يعرف من نفسه فرقًا بين قيامه وقعوده وكلامه إذا كان واقعًا بحسب اختياره وقصده، وبين ما يحطر إليه مما لا قدرة له عليه من الزمانة والمرض والحرمة من الفالج وغير ذلك، وليس بفترق الشيئان في ذلك لجنسهما، ولا للعلم بهما، ولا لاختلاف محلهما، ولا للإرادة لأحدهما فوجب أن يحصل مع كسبه علىٰ هذه الصفة لكونه قادرًا عليه».

---

(١) الباقلاني. التمهيد ص٢٦٢.

(٢) المرجع السابق: ص٢٦٦.

(٣) المرجع السابق: ص٢٨٠.

(٤) المرجع السابق: ص٢٨٦.

ثم يخصص بابًا لإبطال التولد[1]، ثم ينتقل الباقلاني إلىٰ الكلام في خلق الأفعال فيقول[2]: «فإن قال قائل: لم قلتم إن الباري عز وجل خالق لجميع أفعال العباد؟ قيل له: الدليل علىٰ ذلك من جهة العقول أنه تعالىٰ قادر علىٰ جميع الأجناس التي يكتسبها العباد، فإذا ثبت من قولنا جميعا أنه قادر علىٰ فعل مثل ما يكتسبها العباد، فإذا ثبت من قولنا جميعًا أنه قادر علىٰ فعل مثل ما يكتسبه العباد علىٰ الوجه الذي يوجد عليه كسبهم، وجب أنه قادر علىٰ نفس كسبهم؛ لأنه لو لم يقدر عليه مع قدرته علىٰ مثله لوجب عجزه عنه واستحالة قدرته علىٰ مثله، فثبت بذلك أن أفعال الخلق مقدورة له، فإذا وحدت، كانت أفعالًا له؛ لأن القادر علىٰ الفعل إنكا يكون فاعلًا له إذا حصل مقدوره موجودًا، وليس يحصل المقدور مفعولًا إلا لخروجه إلىٰ الوجود فقط، فدل ما قلناه علىٰ خلق الأفعال».

ومما يدل علىٰ ذلك أيضًا من القرآن قوله تعالىٰ: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمۡ وَمَا تَعۡمَلُونَ﴾[3] فأخبر أنه خالق لنفس عملنا كما قال: ﴿جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾[4]، فأوقع الجزاء علىٰ نفس أعمالهم.

ثم يدون الباقلاني بابًا تحت عنوان «باب ذكر آيات من القرآن يحتج بها

---

(١) المرجع السابق: ص٢٩٦.

(٢) المرجع السابق: ص٣٠٣.

(٣) (سورة الصافات: الآية ٩٦).

(٤) (سورة الأحقاف: الآية ١٤).

القدرية في أن العباد يخلقون أفعالهم»[1]، ومن هذه الآيات قوله تعالىٰ: ﴿وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا﴾[2]، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي﴾[3]، و ﴿فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾[4] إلخ...

ثم يكتب بابًا تحت عنوان «باب في وجوب تسميتهم قدرية» [5] ويقول فيه: «فإن قالوا: فلم سميتمونا قدرية؟ قيل لهم: لادعائكم لأنفسكم الكذب الذي لا أصل له من خلق أعمالكم وتقديرها والتفرد بملكها والقدرة عليها دون ربكم، وهذا اسم وضع في الشريعة لذم من قال بالكذب في خلق الأفعال خاصة ودان بغير الحق».

ثم يكتب بابًا تحت عنوان «باب القول في أن الله قضىٰ المعاصي وقدرها قبيحة علىٰ ما خلقها»[6] فيقول: «فإن قال قائل: أفتقولون إن الله تعالىٰ قضىٰ المعاصي وقدرها كما أنه خلقها وأوجدها؟ قيل له: أجل، نقول ذلك علىٰ معنىٰ أنه خلق العصيان وجعله علىٰ حسب قصده، ولا نقول إنه قضىٰ بذلك بمعنىٰ أنه أمر به».

ثم يكتب بابًا يسميه «باب القول في الأرزاق»[7]، وبابًا آخر يسميه «باب

---

(١) الباقلاني، التمهيد، ص٣٠٩.

(٢) (سورة العنكبوت: الآية ١٧).

(٣) (سورة المائدة: الآية ١١٠).

(٤) سورة المؤمنون: الآية ١٤.

(٥) الباقلاني. التمهيد. ص٣٢٢.

(٦) المرجع السابق. ص ٣٢٥.

(٧) المرجع السابق. ص ٣٢٨.

القول في الأسعار»[1]، وبابًا ثالثًا يسميه «باب القول في الآجال»[2].

ثم يكتب بابًا تحت عنوان «باب الهدي والضلال» [3].

ثم يكتب بابًا يسميه «باب القول في اللطف» [4].

ثم يدون بابًا يسميه «باب الكلام في التعديل والتجوير» [5] فيقول: «فإن قال قائل: فهل يجوز أن يؤلم الله الأطفال من غير عوض، وأن يأمر بذبح الحيوان وإيلامه لا لنفع يصل إليهم، وأن يسخر بعض الحيوان لبعض، وأن يفعل العقاب الدائم علىٰ الأجرام المنقطعة، وأن يكلف عباده ما لا يطيقون، وأن يخلق فيهم ما يعذبهم عليه، وغير ذلك من الأمور؟ قيل له: أجل، وذلك عدل من فعله، جائز مستحسن في حكمته».

ثم يذكر في باب آخر معنىٰ الدين[6] وينقل أن معانيه: الجزاء، الحكم، الدنيونة بالمذاهب والملل، والانقياد والاستسلام لله تعالىٰ.

ثم يذكر في باب آخر معنىٰ الإيمان[7] فيقول: هو التصديق بالله تعالىٰ، وهو العلم، والتصديق يوجد بالقلب.

---

(١) المرجع السابق. ص ٣٣٠.

(٢) المرجع السابق. ص٣٣٢.

(٣) المرجع السابق. ص٣٣٥.

(٤) المرجع السابق. ص٣٣٨.

(٥) المرجع السابق. ص٣٤١.

(٦) المرجع السابق. ص٣٤٥.

(٧) المرجع السابق. ص ٣٤٦.

ويذكر معنىٰ الإسلام[1] وهو: الانقياد والاستسلام.

ويحدد معنىٰ الكفر[2] بأنه ضد الإيمان، وهو الجهل بالله عز وجل والتكذيب به الساتر لقلب الإنسان عن العلم به، فهو كالمغطي للقلب عن معرفة الحق.

ثم ينقل عدة أبواب هي «باب القول في الوعد والوعيد»[3]، و«باب القول في الخصوص والعموم»[4]، ثم يأتي بعد ذلك «باب الكلام في الشفاعة» فيقول[5]: فيقول[5]: «ومما يدل علىٰ جواز الغفران لعصاة أهل الملة ما ورد من الأخبار الثابتة الثابتة المتظاهرة في إثبات شفاعة الرسول ﷺ في أهل الكبائر نحو قوله –عليه السلام-: «**ادخرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي**». وقد روىٰ خبر الشفاعة عن النبي ﷺ عدة رواة».



(١) المرجع السابق. ص٣٤٧.
(٢) المرجع السابق. ص٣٤٨.
(٣) المرجع السابق. ص٣٥١.
(٤) المرجع السابق. ص٣٥٥.
(٥) المرجع السابق. ص٣٦٥.

ثم يورد أبوابًا في الإمامة وفي إبطال النص وتصحيح الإختيار، وفي القول الذي تنعقد به الإمامة، وفي صفة الإمام الذي يلزم العقد له، وفي إمامة أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم أجمعين.



مقارنة دور «العقيدة» عند الباقلاني في البناء النفسي للمسلم بـ «العقيدة من القرآن والسنة»

١- يمتاز الباقلاني بجودة التأليف ومنهجيتها، لذلك يعتبر الباقلاني أفضل عارض للنهج الأشعري، مثل بدايته الصحيحة في التاريخ الإسلامي، ومما يؤكد هذا المعنىٰ أن تبويباته التي اتبعها في كتاب «التمهيد» أصبحت نموذجًا لدىٰ الأشاعرة التالين.

٢- استخدم الباقلاني مقدمات طويلة عن العلم وأقسامه وطرقه وحقيقة العلم ومعناه وحدّه، ثم تحدث عن أقسام العلوم، ثم تحدث عن الاستدلال وطرقه، ثم ميّز بين الدليل والاستدلال، ثم تحدث عن المعلومات والموجودات، وتكلم عن أقسام المعلومات، ثم بيّن أقسام المحدثات وبيّن أنها ثلاثة: جسم وجوهر وعرض، ثم عرّف الجوهر، وأثبت الأعراض، ثم فصّل في الكلام عن الجسم. لقد جاءت كل هذه المقدمات سواء المتعلق منها بالعلم أم بمذهب الذرة من أجل إثبات وجود الله سبحانه وتعالىٰ، مع أن مصادر الوحي الإسلامي لم تعتبر في وجود الله أية إشكالية، بل اعتبرتها قضية فطرية عند الإنسان وعند كل المخلوقات، ولا تحتاج إلىٰ كل هذا الجهد من أجل إثباتها، والباقلاني بعيد في كتبه عن المنهج الإسلامي إن لم نقل مخالف له، فمن أين دخلت عليه هذه المخالفة؟

لا شك أنها جاءت من تداخل مذهب الذرة مع الحقائق الإسلامية.

والسؤال الأهم الآن: ماذا كان أثر تلك المخالفة علىٰ البناء النفسي للمسلم مدار بحثنا وحديثنا؟

إن جميع الكلام الذي جاء عن الله سبحانه وتعالىٰ في مصادر الوحي الإسلامي، كان له دور في البناء النفسي للمسلم؛ لأنه جاء مرتبطًا بأمر آخر كالخلق والتسخير والإحياء والإماتة وإنزال المطر وتيسير الفلك والكيد للكافرين وحب المؤمنين إلخ...

مما جعل المسلم يخسر رافدًا من روافد البناء النفسي له عندما تكلم الباقلاني عن وجود الله كإشكالية يواجهها المسلم من جهة، والصورة المجردة التي تحدث عنها من جهة ثانية.

٣- تكلم الباقلاني عن صفات الله التي يعرفها المسلم بفطرته مثل: السمع والبصر والحياة والقدرة إلخ...، وحال إثباتها، وقدّم من أجل إثباتها بمقدمات منها: الكلام عن الأحوال، والكلام عن الصفة هل هي الوصف أم معنىٰ سوه، والكلام في الاسم واشتقاقه وهل هو المسمىٰ أو غيره.

لقد خالف الباقلاني في اجتهاده إثبات صفات الله الفطرية المنهج الإسلامي، وقد تولد ذلك من إسقاط إشكاليات مذهب الذرة علىٰ المنهج الإسلامي، وجاءت مناقشة أمور لم يناقشها المسلمون من قبل: هل الصفات عين الذات أم غيرها، والأهم من ذلك من وجهة نظر بحثنا أن كلام الباقلاني عن

صفات الله الفطرية جاء خاليًا من أي دور في البناء النفسي للمسلم بالمقارنة مع ذلك الدور الكبير للصفات في مصادر الوحي الإسلامي.

٤- أقر الباقلاني بصفات الله -تعالىٰ- التي عرفها المسلم عن طريق الوحي مثل: الوجه واليدين والاستواء، وردّ علىٰ من أوّل هذه الصفات وقد تابع الأشعري في ذلك لكنه أوّل صفتين لله فقط هما الرضا والغضب فاعتبر أن رضاه -تعالىٰ- إرادته لإثابة المرضي عنه، وغضبه -تعالىٰ- معاقبة المغضبو عليه.

٥- استغرقت القضايا التاريخية التي جاءت نتيجة نزاع مع الفرق الأخرىٰ مثل: خلق القرآن، وعدم رؤية الله تعالىٰ، من الباقلاني جهدًا ووقتًا، فدحض وجهات نظر المعتزلة القائلين بهما، وهو لم يأت في هذا الأمر بآراء جديدة بل كرّر ما قاله أحمد بن حنبل والأشعري قبله، والواضح أن حديثه عن القرآن الكريم وعن رؤية الله تعالىٰ جاء خاليًا من أي دور في البناء النفسي للمسلم.

٦- أبرز الباقلاني إشكاليات لا أصل لها في الطرح الإسلامي، واجتهد في التدليل عليها، وإنما جاءت من تداخل البناء الثقافي لمذهب الذرة مع البناء الثقافي الإسلامي مثل: هل الصفات عين الذات أم غيرها؟؛ التولد، وأغفل الإشكاليات التي أبرزها الإسلام واعتبرها مهددة للإيمان وهي: الشرك، وكيفية الصلة بالله، واتخاذ الوسائط له تعالىٰ، وهي الإشكاليات التي ضلت الأمم السابقة بسببها ثم أهلكتها، وهي التي نبه القرآن الكريم إليها، وحذر منها الرسول ﷺ، مما جعل هذه الأمراض تنفذ إلىٰ جسم الأمة، وأوضحها: التصوف الذي بدأ

يستشري طرقه في الأمة، والذي جمع كل الإشكاليات السابقة عندما استهدف حلول الله في العبد، أو اتحاد العبد مع الله، أو ابتداع وسائط إلىٰ الله تعالىٰ، ومما يجدر ذكره أن عدم معالجة هذه الإشكاليات التي اعتبرها القرآن إشكاليات حقيقة، واستغراقها للمسلمين بعد ذلك، كان عاملًا حقيقًا وراء الاستلاب النفسي للمسلم، واستهلاك طاقته النفسية في أوهام لا أصل لها، وهي النقطة المهمة في مجال بحثنا وحديثنا.

٧- لم يتعرض الباقلاني للكلام عن الملائكة في «التمهيد» مما جعل إلبناء النفسي للمسلم يخسر رافدًا رئيسيًا من روافد بنائه، وذلك بالمقارنة بدور الملائكة في البناء النفسي كما وضحناه في دراستنا عن العقيدة.

٨- جاء حديث الباقلاني عن الكتب والرسل محدودًا في «التمهيد»، ما عدا إثباته نبوة محمد ﷺ، وكلامه عن إعجاز القرآن، وذكره وجهين للمعجزة.

إن هذا الكلام المحدود عن الكتب والرسل جعل البناء النفسي للمسلم يخسر رافدين تقريبًا من روافد بنائه النفسي.

٩- تناول الباقلاني الكلام عن اليوم الآخر بشكل محدود فخصص بابًا للكلام عن الوعد والوعيد، وبابًا للكلام في الشفاعة مما جعل البناء النفسي للمسلم يخسر عاملًا مهمًا من عوامل بناء جوانب الخوف والرجاء والتعظيم بسبب محدودية الحديث عن اليوم الآخر.

١٠- تناول الباقلاني القضاء والقدر من خلال الإشكالية التاريخية التي

تتحدث عن الفرقة القدرية، وأكد فكرة الكسب التي بدأ بها الأشعري، وقرر خلق الله لأعمال العباد، واضطره ذلك للحديث الإستطاعة مما جعل ركن الإيمان بالقضاء والقدر لا يساهم أية مساهمة في البناء النفسي للمسلم.

الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها أن تداخل البناء الثقافي لمذهب الذرة مع البناء الثقافي الإسلامي أدىٰ إلىٰ ضمور الجانب المعنوي في البناء النفسي للشخصية المسلمة.

ونحن من أجل مزيد من توضيح هذه الحقيقة سنتناول شخصية أخرىٰ هي الجويني، وسنتناول كتابًا آخر هو «لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة» فإلىٰ ذلك الكتاب.



٣- الجويني

«لمع الأدلة»

من هو الجويني؟

الجويني هو أبو المعالي عبد الملك بن الشيخ أبي محمد عبد الله بن أبي يعقوب يوسف بن عبد الله بن يوسف بن محمد الجويني الفقيه الشافعي الملقب بضياء الدين المعروف بإمام الحرمين.

وكلمة الجويني نسبة إلىٰ جوين قرية من قرىٰ نيسابور، وقد أطلق عليه لقب إمام الحرمين لمجاورته وتدريسه في الحرمين الشريفين «حرم مكة وحرم المدينة». ويحكي ابن خلكان أن الإمام خرج إلىٰ الحجاز وجاور بالمدينة ومكة وأربع سنين يدرس ويفتي ويجمع المذهب ولهذا قيل له إمام الحرمين.

لقد كان أبوه تقيًا وكان حريصًا علىٰ أن يدخل جوفه الحلال دون الحرام والمشتبه فيه، وتذكر الروايات أنه رضع مرة من ثدي غير ثدي أمه فاستقاءه الحليب الذي شربه حرصًا منه علىٰ إنباته في الحلال.

ولد الجويني في الثاني من محرم ٤١٩هـ - ١٠٢٨م، وتوفي بالمحفة من قرىٰ نيسابور في الخامس والعشرين من ربيع الآخر سنة ٤٧٨هـ - ١٠٨٥م.

ألف عددًا من الكتب في مختلف المجالات: الفقه، وأصول الفقه، والعقائد، ومن الكتب التي ألفها في مجال العقائد: الشامل في أصول الدين، العقيدة النظامية، لمع الأدلة.

والكتاب الذي سنستعرضه هو كتاب «لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة» لنرىٰ دوره في بناء العقيدة الأشعرية وفي تطويرها بعد أن رأينا الباقلاني ودوره في ذلك.

لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة:

تناول الجويني في كتابه «لمع الأدلة» عدة موضوعات هي: العالم وحدوثة، الله وصفاته، إرادة الله وإرادة العبد، ورؤية الله، الرب والخلق، الرسالة والنبوة والمعجزة.

ونحن سنستعرض كل فقرة من الفقرات السابقة.

١ - العالم وحدوثة:

بدأ الجويني كتابه في الكلام عن العالم وحدوثه فعرف العالم فقال[1]: «العالم- عند سلف الأمة: عبارة عن كل موجود سوىٰ الله».

وعند خلف الأمة: «عبارة عن الجوهر والأعراض».

ثم تساءل عن حد الجوهر وحقيقة العرض فقال[2]:

«الجوهر قد ذكرت له حدود شتىٰ- غير أنا نقتصر علىٰ ثلاثة منها- فنقول: الجوهر: المتحيز».

وقيل: الجوهر – ما له حجم.

---

(١) الجويني، لمع الأدلة ص١٧٤.

(٢) المرجع السابق: ص١٧٤.

فأما العرض فقد قيل: «ما يقوم بالجوهر.

وقيل: ما يطرأ علىٰ الجواهر كالألوان والطعوم والروائح والعلوم والقدرة، والإرادات الحادثة وأضدادها والحياة والموت».

وقيل: «العرض: ما يستحل عليه البقاء».

ثم سأل الجويني: «ما الدليل علىٰ حدوث العالم؟» فأجاب:

«قلنا: الدليل عليه أن أجرام العالم وأجسامها لا تخلو عن الأعراض الحادثة، وما لا يخلو عن الحادث حادث».

ثم قال[1]:

«السؤال علىٰ هذا الكلام من أربعة أوجه:

الأول- لا نعلم ثبوت الأعراض.

ولئن سلمنا ثبوت الأعراض، فلا نسلم حدوثها.

ولئن سلمنا حدوثها، فلا نسلم استحالة خلو الجوهر عن هذه الأعراض الحادثة.

والرابع- لم قلت: إن ما لا يخلو عن الحادث حادث؟».

وناقش الوجوه الأربعة السابقة في الفقرات التالية وأثبتها.

ثم انتقل الجويني إلىٰ تقديم الدليل علىٰ أن العالم له صانع فقال: «أنه قد صح حدوث العالم بالدلالة التي ذكرناها.

---

(١) المرجع السابق: ص١٧٥.

والحادث جائز الوجود، إذ يجوز تقدير وجوده بدلًا عن عدمه، ويجوز تقدير عدمه بدلًا عن وجوده.

فلما اختص بالوجود الممكن بدلًا عن العدم الجائز افتقر إلىٰ متخصص- وهو الصانع تعالىٰ».

٢- الله وصفاته:

ثم انتقل الجويني إلىٰ الكلام في «الله وصفاته» فذكر الصفة الأولىٰ وهي أن الله أزلي الوجود[١]:

«صانع العالم: أزلي الوجود، قديم الذات، لا مفتتح لوجوده، ولا مبتدأ لثبوته.

والدليل عليه: أنه تعالىٰ لو كان حادثًا لشارك الحوادث في الإفتقار إلىٰ محدث».

ثم ذكر صفات أخرىٰ لله هي أنه «عالم قادر» فقال[٢]:

«صانع العالم: حي، عالم بجميع المعلومات، قادر علىٰ جميع المقدورات.

فإنا ببداهة العقل – نعلم استحالة صدور الأفعال من العاجز عنها.

وكذلك يستيقن كل لبيب: أن الأفعال المحكمة المتقنة الواقعة علىٰ أحسن ترتيب ونظام وإتقان وإحكام، لا تصدر إلا من عالم بها.

---

(١) المرجع السابق: ص١٧٨.

(٢) المرجع السابق: ص١٧٨.

ومن حرر صدور خط منظوم علىٰ ترتيب معلوم – من غير عالم بالخط: كان من المعقول خارجًا، وفي تيه الجهل والجًا.

إذا أثبت كون صانع العالم: عالمًا، قادرًا، فبالاضطرار يعلم كونه حيًا».

ثم ذكر صفة أخرىٰ هي أنه «مريد» فقال[1]:

«صانع العالم: مريد علىٰ الحقيقة – عند أهل الحق».

ثم ذكر صفات أخرىٰ هي أن الله سميع بصير متكلم فقال:

«إذا قد ثبت كونه حيًا أو. والحي لا يخلو عن الإتصاف بالسمع والبصر والكلام أو أضدادها. وأضداد هذه الصفات نقائص.

والرب –سبحانه وتعالىٰ– يتقدس عن سمات النقص».

ثم تحدث عن صفة أنه باق فقال[2]:

«الرب سبحانه وتعالىٰ باق واجب الوجود.

إذًا قد ثبت –بما قدمناه– قدمه.

والقديم يستحيل عدمه –باتفاق من العقلاء– وذلك يصرح بكونه باقيًا مستمر الوجود».

ثم تكلم عن وحدانية الإله فقال[3]:

---

(١) المرجع السابق: ص١٧٩.

(٢) المرجع السابق: ص١٧٢.

(٣) المرجع السابق: ص١٨٠.

«صانع العالم: واحد عند أهل الحق.

والواحد الحقيقي: هو الشئ الذي لا ينقسم.

والدليل علىٰ وحدانية الإله: أنا لو قدرنا إلهين اثنين، وفرضنا عرضين ضدين، وقدرنا إرادة أحدهما لأحد الضدين، وإرادة الثاني للثاني –فلا يخلو من أمور ثلاثة:

إما أن تنفذ إرادتهما.

أو لا تنفذ إرادتهما.

أو تنفذ إرادة أحدهما دون الآخر.

واستحال أن تنفذ إرادتهما، لاستحالة اجتماع الضدين. واستحال أيضًا ألا تنفذ إرادتهما، لتمانع الإلهين، وخلو المحل عن كلا الضدين.

فإذا بطل القسمان تعين الثالث:

وهو أن تنفذ إرادة أحدهما، دون الآخر، فالذي لا تنفذ إرادته فهو المغلوب المقهور المستكره.

والذي نفذت إرادته فهو الإله القادر علىٰ تحصيل ما يشاء».

ثم يذكر أن الكلام السابق مضمون قوله تعالىٰ:

﴿ لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ ﴾[1].

---

(١) (سورة الأنبياء: الآية ٢٢).

ثم تحدث عن إثبات الصفات فقال[1]:

«القديم الباري سبحانه وتعالىٰ: عالم بعلم قديم، قادر بقدرة قديمة، حي بحياة قديمة.

وذهب المعتزلة إلىٰ أن الباري تعالىٰ علىٰ قولهم:

حي عالم قادر بنفسه. وليس به قدرة ولا علم ولا حياة».

ثم ذكر بعض الأدلة القرآنية فقال:

﴿وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنثَىٰ وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِۦ﴾[2].

وقال عَزَّ مِنْ قائل:

﴿أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ﴾[3].

ثم ذكر صفة أخرىٰ لله وهي أنه متكلم فقال[4]:

«وقد ذكرنا: أن الباري سبحانه: متكلم فاعلم أن كلامه: قديم، أزلي، لا مبتدأ لوجوده. وذهب المعتزلة، والنجارية، والزيدية، والإمامية، والخوارج إلىٰ أن كلام الله حادث.

وامتنعت طوائف –من هؤلاء– من إطلاق القول بكونه مخلوقًا، فسموه: حادثًا ومحدثًا.

---

(١) الجويني، لمع الأدلة. ص١٨١.

(٢) (سورة فاطر: الآية ١١).

(٣) (سورة النساء: الآية ١٦٦).

(٤) الجويني، لمع الأدلة. ص١٨٣.

أطلق المتأخرون –من المعتزلة– قولهم بكونه مخلوقًا».

ثم تحدث عن الكلام النفسي فقال:

«وكل ذلك أمارات علىٰ الكلام القائم بالنفس، ولذلك قال الأخطل:

إن الكـــلام لفـــي الفـــؤاد وإنـــما جعـل اللسـان علـىٰ الفـؤاد دلـيلًا

ومن الشواهد علىٰ ذلك: من كتاب الله عز وجل في الإخبار عن المنافقين قوله تعالىٰ:

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ﴾[1] ونحن نعلم أن الله لم يكذبهم في إقرارهم، وإنما يكذبهم فيما تجنه سرائرهم وتكنه ضمائرهم».

ثم افتتح بابًا ذكر فيه «ما يستحل في أوصاف الباري تعالىٰ» فقال: «أن الرب –تعالىٰ– متقدس عن الإختصاص بالجهات والاتصاف بالمحاذاة، لا تحط به الأقطار، ولا تكتنفه الأقتار ويجل عن قبول الحد».

ثم يؤول صفة الإستواء فيقول:

«فإذا ثبت تقدس الباري عن التحيز، والإختصاص بالجهات، فيترتب علىٰ ذلك تعاليه عن الإختصاص بمكان، وملاقاة أجرام،وأجسام. فإن سئلنا عن قوله تعالىٰ: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[2]، قلنا المراد بـ «الاستواء» القهر، والغلبة، والعلو ومنه قول العرب: استوىٰ فلان علىٰ المملكة؛ أي: استعلىٰ عليها واطردت له.

---

(١) (سورة المنافقون: الآية ١).

(٢) (سورة طه: الآية ٥).

ومنه قول الشاعر:

قــد اســتوىٰ بشـــر عــلىٰ العــراق مـــن غـــير ســـيف ودم مهـــراق»

٣- إرادة الله وإرادة العبد:

ثم تحدث عن الإرادة فقال[١]:

«الحوادث كلها تقع مرادة لله –تعالىٰ- نفعها، وضرها، وخيرها، وشرها».

ثم عرض رأي المعتزلة المخالف ورد عليه واستشهد في النهاية ببعض الآيات منها قوله تعالىٰ:

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ﴾[٢].

ومنها قوله تعالىٰ[٣]:

﴿ فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا ﴾.

٤- رؤية الله:

ثم تحدث عن رؤية الله تعالىٰ فقال[٤]:

«مذهب أهل الحق أن الباري تعالىٰ: مرئي، ويجوز أن يراه الراءون بالأبصار.

(١) الجويني، لمع الأدلة. (ص١٨٨).

(٢) (سورة الأنعام: الآية ٣٥).

(٣) (سورة الأنعام: الآية ١٢٥).

(٤) الجويني، لمع الأدلة. (ص١٩١).

وذهب المعتزلة إلىٰ أنه سبحانه وتعالىٰ يستحيل أن يرىٰ».

ثم دلل علىٰ رأية ودحض رأي المعتزلة ثم أتىٰ ببعض الآيات التي تعضد وجهة نظره.

٥- الرب والخلق:

ثم ذكر أن الله «متفرد بخلق المخلوقات» فقال[١]:

«الرب سبحانه متفرد بخلق المخلوقات، فلا خالق سواه، ولا مبدع غيره، وكل حادث فالله تعالىٰ محدثه».

ثم تحدث عن فكرة الكسب فقال:

«العبد غير مجبر علىٰ أفعاله، بل هو قادر عليها مكتسب لها.

والدليل علىٰ إثبات القدرة للعبد أن العاقل يفرق بين أن ترتعد يده، وبين أن يحركها قاصدًا.

ومعنىٰ كونه مكتسبًا –أنه قادر علىٰ فعله– وإن لم تكن قدرته مؤثرة في إيقاع المقدور».

ثم ذكر أنه لا يجب علىٰ الله شيء فقال:

«لا يجب علىٰ الله شيء، وما أنعم به فهو فضل منه، وما عاقب به فهو عدل منه، ويجب علىٰ العبد ما يوجبه الله تعالىٰ عليه، ولا يستفاد –بمجرد العقول– وجوب شيء، بل جميع الأحكام المتعلقة بالتكليف متلقاه من قضية الشرع،

---

(١) المرجع السابق: ص١٩٣.

وموجب السمع».

ثم تحدث عن القول في إثبات النبوات فقال[1]:

«لله تعالىٰ أن يرسل الرسل، ويبعث الأنبياء مبشرين ومنذرين –أنكرت البراهمة النبوة ومنعوا جواز انبعاث الرسل».

٦- الرسالة والنبوة المعجزة:

ثم بين أن المعجزة هي التي تثبت صدق النبي وعرفها بأنها[2]:

«أفعال الله تعالىٰ الخارقة للعادة، المستمرة، وظاهرها علىٰ حسب دعوىٰ النبوة هو تحديه ويعجز عن الاتيان بأمثالها. الذين يتحداهم النبي ووجه دلالتها علىٰ صدق النبي:

أنها تنزل منزلة التصديق بالقول».

وذكر أن دليل نبوة محمد ﷺ ومعجزته الكبرىٰ:

القرآن الكريم، ومن معجزاته الأخرىٰ ﷺ: انفلاق القمر، وتسبيح الحصىٰ، وإنطاق العجماء، ونبع الماء من بين الأصابع ونحوها».

ثم عرف الجويني «الإيمان بالغيبيات» فقال[3]:

«كل ما جوّزه العقل، ورده الشرع، وجب القضاء بثبوته، فمها ورد الشرع به:

---

(١) المرجع السابق: ص ١٩٥.

(٢) المرجع السابق: ص ١٩٦.

(٣) المرجع السابق: ص ١٩٧.

عذاب القبر، وسؤال منكر ونكير، ورد الروح إلىٰ الميت في قبره ومنها: الصراط، والميزان، والحوض، والشفاعة للمذنبين».

٧- الإمامة:

ثم تحدث عن إمامة المسلمين فذكر أن أمير المؤمنين من بعد رسول الله ﷺ: أبا بكر الصديق رضي الله عنه.

ثم عمر الفاروق بعده، ثم عثمان، ثم علي، رضي الله عنهم أجمعين.

ثم تكلم الجويني عن ترتيب الفضيلة والإمامة فقال[١]:

«والخلفاء الراشدون لما ترتبوا في الإمامة فالظاهر ترتيبهم في الفضيلة: فخير الناس بعد رسول الله ﷺ: أبو بكر، ثم عمر، ثم عثمان، ثم علي رضي الله عنهم أجمعين».

ثم بين «شرائط الإمامة» فقال:

«لا يصلح للإمامة إلا من تجتمع فيه شرائط:

أحدها: أن يكون قرشيًا، فإن رسول الله ﷺ قال: «**الأئمة من قريش**».

والآخر: أن يكون مجتهدًا من أهل الفتوىٰ وأن يكون: ذا نجدة، وكفاية وتهد لسياسة الأمور وإيالتها، وأن يكون حرًا، ورعًا في دينه».

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) المرجع السابق: ص١٩٩.

مقارنة دور «العقيدة» عند الجويني في البناء النفسي للمسلم بـ «العقيدة» من القرآن والسنة

إذا قارنّا بين الجويني والباقلاني فإننا نجد أن الجويني تابع بالباقلاني في عدة أمور، وأحدث عدة أمور في مسار العقيدة الأشعرية، أما الأمور التي تابعه فيها فهي:

١- إثبات وجود الله.

٢- اجتهاده في إثبات صفات الله التي يعرفها الإنسان بفطرته.

٣- استغراق قضايا النزاع مع الفرق الأخرىٰ لجزء من وقته وجهده كالباقلاني، ومعاجلته لها بنفس طريقة الباقلاني.

٤- إبرازه الإشكاليات التي جاءت نتيجة تداخل مذهب الذرة، وإغفاله الإشكاليات والأمراض التي أشار إليها الإسلام والتي زاد استفحالها في الأمة في حياة الجويني مثل: الشرك، وتوسيط غير الله إليه، واعتقاد إمكانية حلول الرب في العبد، أو اتحاد العبد مع الرب أو اكتشاف وحدة الوجود.

٥- عدم تعرضه للملائكة كركن من أركان العقيدة.

٦- محدودية كلامه عن ركن الإيمان بالكتب والرسل.

٧- محدودية كلامه عن ركن الإيمان باليوم الآخر.

٨- كلامه عن القضاء والقدر من خلال الإشكاليه التي أثارتها الفرقة القدرية وإقراره لفكرة الكسب.

أما الأمور التي استحدثها الجويني ولم تكن موجودة عند سلفه فهي:

١- تأويله لصفات الله وأفعاله التي أخبرنا بها الوحي مثل: وجه الله تعالىٰ، ويداه سبحانه وتعالىٰ، واستواؤه تعالىٰ إلخ... فقد أول الجويني الاستواء بالقهر والغلبة، واستشهد علىٰ ذلك بقول الشاعر:

قد استوىٰ بشر علىٰ العراق   من غير سيف ودم مهراق

وليس من شك بأن التأويل سيساهم مساهمة فعالة في افتقار المسلم المعنوي؛ لأنه سيلغي دور عدد كبير من الصفات والأفعال التي كانت تساهم مساهمة أساسية وفعالة في الاغتناء النفسي للمسلم وبالتالي في بنائه البناء الصحيح، وسيصبح هذا التأويل أصلًا من أصول العقيدة الأشعرية علىٰ مدار التاريخ.

٢- رسوخ مذهب الذرة، واللجوء إلىٰ دليل الحدوث من أجل إثبات حقائق دينية، وتداخل كل ذلك تداخلًا محكمًا مع المعطيات الشرعية، ويتضح ذلك بصورة أكثر تفصيلًا في كتب الجويني الأخرىٰ مثل: الشامل.

الخلاصة: إن تداخل البناء الثقافي لمذهب الذرة مع البناء الثقافي الإسلامي أدىٰ إلىٰ صمور الجانب المعنوي في البناء النفسي للمسلم من جهة، وأتاح الفرصة

إلىٰ دخول عناصر أخرىٰ مثل المنطق علىٰ يد الغزالي من جهة ثانية.

ونحن من أجل توضيح المرحلة الثانية وهي دخول المنطق في البناء الثقافي الإسلامي سنتناول كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» للغزالي بالعرض والتقديم.



الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي[1]

يرتب الغزالي كتابه علىٰ أربعة تمهيدات وعلىٰ أربعة أقطاب يبدأها بالتمهيد الأول الذي يعطيه عنوان «في بيان أن الخوض في هذا العلم مهم في الدين» [2]، وبين في إحدي فقراته مقصوده فيقول[3]: «ومقصود هذا العلم إقامة البرهان علىٰ وجود الرب تعالىٰ وصفاته وأفعاله وصدق الرسل كما فصلناه في الفهرست ، وكل ذلك مهم لا محيص عنه لعاقل».

ثم بين في التمهيد الثاني الذي يحمل عنوان «في بيان الخوض في هذا العلم وإن كان مهمًا فهو حق بعض الخلق ليس بمهم بل المهم لهم تركه» [4]. ويوضح أن الأدلة في هذا العلم تجري مجرىٰ الأدوية وأن الطبيب المستعمل لها إن لم يكن حاذقًا كان ما يفسده بدوائه أكثر مما يصلحه، ثم يقسم الناس إلىٰ أربع فرق ويعرف كل فرقة ويبين مدىٰ حاجتها لهذا العلم.

ثم بين في التمهيد الرابع الذي يعنونه «في بيان مناهج الأدلة التي استنهجناها في هذا الكتاب» ويحددها بأربع هي:

---

(١) الغزالي: هو محمد أبو حامد الغزالي الطوسي ولد عام ٤٥٠هـ وتوفي عام ٥٠٥هـ، وله عدد كبير من المؤلفات أشهرها «إحياء علوم الدين» ويعتبر الغزالي من أبرز الشخصيات التي كان لها تأثير في منحى الأمة بشكل عام ورسخت عددًا من الأمور منها: التصوف، والعقيدة الأشعرية، والمنطق..

(٢) الغزالي. الاقتصاد في الاعتقاد، مكتبة الحسين التجارية – القاهرة– دون تاريخ (ص٤).

(٣) المرجع السابق: ص ٥.

(٤) المرجع السابق: ص ٦.

«المنهج الأول[1]:

السبر والتقسيم هو أن تحصر الأمر في قسمين ثم يبطل أحدهما فيلزم منه ثبوت الثاني كقولنا العالم إما حادث وإما قديم ومحال أن يكون قديمًا فيلزم منه لا محالة أن يكون حادثًا وهذا اللازم هو مطلوبنا وهو علم مقصود استفدناه من علمين آخرين أحدهما قولنا: العالم إما قديم أو حادث فإن الحكم بهذا الانحصار علم».

ثم يتحدث عن المنهج الثاني فيقول[2]:

«أن ترتب أصلين علىٰ وجه آخر مثل قولنا كل ما لا يخلو عن الحوداث فهو أصل آخر فيلزم منهما صحة دعوانا وهو أن العالم حادث وهو المطلوب فتأمل. هل يتصور أن يقر الخصم بالأصلين ثم يمكنه إنكار صحة الدعوىٰ فتعلم قطعًا أن ذلك محال».

ثم بين المنهج الثالث فيقول[3]:

«أن لا نتعرض لثبوت دعوانا بل ندعي استحالة دعوىٰ الخصم بأن نبين أنه مفض إلىٰ المحال وما يفضي إلىٰ المحال فهو محال لا محالة، مثاله: قولنا إن صح قول الخصم أن دورات الفلك لا نهاية لها لزم منه صحة قول القائل أن ما لا نهاية له قد

---

(١) المرجع السابق: ص٩.

(٢) المرجع السابق: ص١٠.

(٣) المرجع السابق: ص١٠.

انقضىٰ وفرغ منه ومعلوم أن هذا اللازم محال فيعلم منه لا محالة أن المفضي إليه محال وهو مذهب الخصم فهاهنا أصلان:

(أحدهما) قولنا إن كانت دورات الفلك لا نهاية لها فقد انقضىٰ ما لا نهاية له فإن الحكم بلزوم انقضاء ما لا نهاية له علىٰ القول بنفي النهاية عن دورات الفلك علم ندعيه ونحكم به ولكن يتصور فيه من الخصم إقرار أو إنكار بأن يقول لا أسلم أنه يلزم ذلك.

(الثاني) قولنا أن هذا اللازم محال فإنه أيضًا أصل يتصور فيه إنكار بأن يقول سلمت الأصل الأول ولكن لا أسلم هذا الثاني وهو استحالة انقضاء ما لا نهاية له ولكن لو أقر بالأصلين كان الإقرار بالمعلوم الثالث اللازم منهما واجبًا بالضرورة وهو الإقرار باستحالة مذهبه المفضي إلىٰ هذا المحال».

ثم يقرر سبب الغلط عند كثير من المتكلمين فيقول: «وإذا أنت أمعنت النظر واهتديت السبيل عرفت قطعاً أن أكثر الأغاليط نشأت من ضلال طلب المعنىٰ من الألفاظ ولقد كان من حقه أن يقدر المعاني أولًا ثم ينظر في الألفاظ ثانيًا ويعلم أنها اصطلاحًا لا تتغير بها المعقولات ولكن من حرم التوفيق استدبر الطريق ونكل عن التحقيق».

ثم يحدد مصادر الحكم عنده بستة أشياء[1]، ويبدأ بالمصدر الأول وهو الحسيات فيقول:

---

(١) المرجع السابق: ص١١- ١٣.

«منها الحسيات – أعني المدرك بالمشاهدة الظاهرة والباطنة مثاله أنّا إذا قلنا مثلًا كل حادث فله سبب وفي العالم حوادث فلابد لها من سبب فقولنا في العالم حوادث أصل واحد يجب الإقرار به فإنه يدرك بالمشاهدة الظاهرة حدوث أشخاص الحيوانات والنباتات والغيوم والأمطار، ومن الأغراض الأصوات والألوان وإن تخيل أنها منتقلة فالانتقال حادث، ونحن لم ندع إلا حادثًا ولم نعين أن ذلك الحادث جوهر أو عرض أو انتقال أو غيره، وكذلك يعلم بالمشاهدة الباطنة حدوث الألام والأفراح والغموم في قله فلا يمكنه إنكاره».

ثم يتحدث عن المصدر الثاني وهو «العقل المحض» فيقول:

«فإنّا إذا قلنا العالم إما قديم مؤخر وإما حادث مقدم وليس وراء القسمين قسم ثالث، وجب الاعتراف به علىٰ كل عاقل، مثاله أن نقول كلما لا يسبق الحوادث فهو حادث، أحد الأصلين قولنا أن ما لا يسبق الحوادث فهو حادث.

ويجب علىٰ الخصم الإقرار به؛ لأن ما لا يسبق الحادث إما أن يكون مع الحادث أو بعده ولا يمكن قسم ثالث، ادعىٰ قسمًا ثالثًا كان منكرًا لما هو بديهي في العقل، وإن أنكر ما هو مع الحادث أو بعده ليس بحادث فهو أيضًا منكر للبديهة».

ثم يوضح المصدر الثالث للحكم وهو «التواتر» فيقول:

«مثاله أنّا نقول محمد صلوات الله وسلامه عليه صادق؛ لأن كل من جاء بالمعجزة فهو صادق، وقد جاء هو بالمعجزة فهو إذًا صادق –فإن قيل أنا لا أسلم

أنه جاء بالمعجزة فنقول قد جاءنا بالقرآن والقرآن معجزة فإذًا قد جاء بالمعجزة، فإن سلم الخصم أحد الأصلين وهو أن القرآن معجزة إما بالطوع أو بالدليل وأراد إنكار الأصل الثاني وهو أنه قد جاء بالقرآن وقال لا أسلم أن القرآن مما جاء به محمد ﷺ تسليمًا لم يمكنه؛ لأن التواتر يحصل بالعلم به كما حصل لنا العلم بجوده وبدعواه النبوة وبوجود مكة ووجود موسىٰ وعيسىٰ وسائر الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين».

ثم يبين المصدر الرابع وهو «القياس» فيقول:

«أن يكون الأصل مثبتًا بقياس آخر يستند بدرجة واحدة أو درجات كثيرة إما إلىٰ الحسيات أو العقليات أو المتواترات، فإن ما هو فرع الأصلين يمكن أن يجعل أصلًا في قياس آخر مثاله أنّا بعد أن نفرغ من الدليل علىٰ حدوث العالم يمكننا أن نجعل حدوث العالم أصلًا في نظم قياس مثلًا أن نقول كل حادث فله سبب والعالم حادث فإذًا له سبب فلا يمكنهم إنكار كون العالم حادثًا بعد أن أثبتنا بالدليل حدوثه».

ثم يتحدث عن المصدر الخامس وهو «السمعيات» فيقول:

«مثاله أنا ندعي مثلًا أن المعاصي بمشيئة الله تعالىٰ ونقول كل كائن فهو بمشيئة الله تعالىٰ والمعاصي كائنة فهي إذًا بمشيئة الله تعالىٰ فأما قولنا هي كائنة فمعلوم وجودها بالحس وكونها معصية بالشرع وأما قولنا كل كائن بمشيئة الله تعالىٰ فإذا أنكر الخصم ذلك منعه الشرع مهما كان مقراص بالشرع أو كان ثبت

عليه بالدليل فإنا نثبت هذا الأصل بإجماع الأمة علىٰ صدق قول القائل ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فيكون السمع مانعًا من الإنكار».

ثم يتحدث عن المصدر السادس فيقول:

«أن يكون الأصل مأخذوًا من معتقدات الخصم ومسلماته فإنه وإن لم يقم لنا عليه دليل أو لم يكن حسيًا ولا عقليًا انتفعنا باتخاذه إياه أصلًا في قياسنا وامتنع عليه الإنكار الهادم لمذهبه وأمثلة هذا مما تكثر فلا حاجة إلىٰ تعيينه».

❁ ❁ ❁ ❁

حدد الغزالي -في الكلام السابق- طريقته في التعالم مع الأدلة بثلاثة مناهج وهذه المناهج كلها مأخوذة من الأقيسة المنطقية: القياس الشرطي المنفصل والمتصل والقياس الجملي الكلي والجزئي، أما المصادر الأخرىٰ والتي حددها بست مصادر وهي: الحس والعقل والتواتر والقياس علىٰ أصل مثبت والسمع ومعتقد الخصم، هي مصادر أخذ معظم العلماء السابقين علىٰ الغزالي بها، ولم يتنكروا لها.

إذن الجديد الذي أتي به الغزالي هو المنطق وأقيسته في بناء الصفات، وهو المنعطف الجديد الذي سار فيه بالمقارنة مع المناهج السابقة التي كانت تعتمد علىٰ معطيات مذهب الذرة فحسب، وقد أشار الغزالي إلىٰ نقطة جوهرية هي خطأ

المتكلمين السابقين وفي استنباط المعاني من الألفاظ وبيّن الطريقة الصحيحة وهي تحديد المعاني ثم اختيار الألفاظ المناسبة.

۞ ۞ ۞ ۞

ونحن نستعرض بقية الكتاب في الصفحات التالية وسنرىٰ فيها واضحًا أثر المنطق ومقدماته وأقيسته التي أعتمدها الغزالي وأدخلها في كتب العقائد، كما سنرىٰ –أيضًا– مفردات مذهب الذرة واضحة فيها.

۞ ۞ ۞ ۞

انتقل الغزالي إلىٰ الدعوىٰ الثانية وتدور حول إثبات وجود الله تعالىٰ، واعتمد في إثباته وجوده سبحانه وتعالىٰ علىٰ مفردات مذهب الذرة: الجسم والجوهر، كما استخدم بعض الأقيسة المنطقية ليصل إلىٰ أن الله موجود، وهو في هذا الإثبات موافق لمذهب الذرة، مخالف للمنهجية الإسلامية التي اعتبرت معرفة الإنسان لربه أمرًا لا يحتاج إلىٰ إثبات كما أشرنا في كلامنا عن الباقلاني والجويني.

ثم يتحدث عن الله فيصفه بالقديم فيقول:

«ندعي أن السبب الذي أثبتناه لوجود العالم قديم فإنه لو كان حادثًا لافتقر إلىٰ سبب آخر وكذلك السبب الآخر ويتسلسل إما إلىٰ غير نهاية وهو محال، وإما أن ينتهي إلىٰ قديم لا محالة يقف عنده وهو الذي نطلبه ونسميه صانع ولا بد من الاعتراف به بالضرورة ولا نعني بقولنا قديم إلا أن وجوده غير مسبوق بعدم ليس تحت لفظ القديم إلا إثبات موجد ونفي عدم سابق، فلا تظنن أن القديم معنىً زائد علىٰ ذات القديم فيلزمك أن تقول ذلك المعنىٰ أيضًا قديم بقدم زائد عليه ويتسلسل إلىٰ غير نهاية».

أثبت الغزالي في الكلام السابق أن الله تعالىٰ قديم، وليس لهذه التسمية أصل في القرآن والسنة، وإن كان المعنة المقصود في التسمية موجودًا ومفهومًا عن الله تعالىٰ في مثل قوله تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ﴾[1] ولكن ابتداء الغزالي بهذه الصفة لله تعالىٰ جاء انعكاسًا للمعطيات الفلسفية التي تثبت القدم للكون، فأراد الغزالي إبطال القول السابق فأثبت القدم لله تعالىٰ والحدوث للكون، وأن الله تعالىٰ هو القديم بالنسبة للكون.

إن المشكلة التي عالجها الغزالي في حق الله تعالىٰ من أنه قديم بالنسبة للكون جاءت إلىٰ البناء الثقافي الإسلامي من تداخل بناء ثقافي آخر.

إن معرفة أن هناك خالقًا قديمًا بالنسبة للكون أمر فطري وذلك لأن

---

(١) (سورة الحديد: الآية ٣).

الإنسان يعرف بصورة فطرية أن للكون خالقًا وأن الخالق سابق في وجوده على المخلوق.

ثم يقول في الدعوىٰ الثالثة[1]:

«ندعي أن صانع العالم مع كونه موجودًا لم يزل فهو باق لا يزال؛ لأن ما ثبت قدمه استحال عدمه».

أثبت الغزالي في هذه الدعوىٰ صفة أخرىٰ لله تعالىٰ هي صفة البقاء واستعان من أجل إثباتها بقياس منطقي وهي صفة يعرفها الإنسان بفطرته لله تعالىٰ، وإلا فما قيمة الرب الذي يزول؟

ويؤكد ذلك إقامة إبراهيم عليه السلام الحجة علىٰ قوله في حواره معهم بعدم صلاحية الكواكب للعبادة ومن ضمنها الشمس والقمر نتيجة أفولها وزوالها ولا شك أن إبراهيم عليه السلام سيقيم الحجة عليهم بأمر فطري يقرون به بشكل مسبق[2].

ثم يقول الغزالي في الدعوىٰ الرابعة[3]:

«ندعي أن صانع العالم ليس بجوهر متحيز؛ لأنه قد ثبت قدمه ولو كان متحيزًا لكان لا يخلو عن الحركة في حيزه أو السكون فيه وما لا يخلو عن الحوادث

---

(١) الغزالي. الاقتصاد في الاعتقاد (ص١٩).

(٢) انظر الآيات ٧٦-٧٨ من سورة الأنعام.

(٣) الغزالي. الاقتصاد في الاعتقاد (ص٢٠).

فهو حادث كما سبق». إذن ينفي الغزالي في هذه الدعوىٰ صفة أخرىٰ عن الله تعالىٰ وهي أنه ليس جوهرًا متحيزًا.

ويقول في الدعوىٰ الخامسة:

«ندعي أن صانع العالم ليس بجسم؛ لأن كل جسم فهو متألف من جوهرين متحيزين وإذا استحال أن يكون جوهرًا لاستحال أن يكون جسمًا ونحن لا نعني بالجسم إلا هذا».

ويقول في الدعوىٰ السادسة[1]:

«ندعي أن صانع العالم ليس بعرض؛ لأنّا نعني بالعرض ما يستدعي وجوده ذاتًا تتقوم به تلك الذات جسم أو جوهر، مهما كان الجسم واجب الحدوث كان الحال فيه أيضًا حادثًا لا محالة إذ يبطل انتقال الأعراض وقد بيّنا أن صانع العالم قديم فلا يمكن أن يكون عرضًا».

ثم ينفي الغزالي الجهة عن الله في الدعوىٰ السابعة فيقول[2]:

«ندعي أنه ليس في جهة مخصوصة من الجهات الست ومن عرف معنىٰ لفظ الجهة ومعنىٰ لفظ الاختصاص فهم قطعًا استحالة الجهات علىٰ غير الجواهر والأعراض إذ الحيز معقول وهو الذي يختص الجوهر به ولكن الحيز يصير جهة إذا أضيف إلىٰ شيء آخر متحيز».

---

(١) المرجع السابق. ص٢١.

(٢) المرجع السابق. ص٢٢.

ينزه الغزالي في الدعاوىٰ السابقة: الرابعة، والخامسة، والسادسة، والسابعة الله تعالىٰ أن يكون جوهرًا أو جسمًا أو عرضًا... وهو أمر سليم ومقبول وفطري في الوقت نفسه؛ لأن الجوهر والجسم والعرض أمور مخلوقة، فلا يمكن أن تكون خالقة، والجدير بالذكر أن هذا الكلام عن الله تعالىٰ ليس له أي دور في البناء النفسي للمسلم مع أن أي كلام عن الله في مصادر الوحي كان له دور في البناء النفسي للمسلم.

ثم يشرع في الدعوىٰ الثامنة فيؤول الاستواء في قوله تعالىٰ:

﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ عَلَى ٱلۡعَرۡشِ ٱسۡتَوَىٰ﴾[1].

وقد أصبح التأويل هو الأصل الذي تتعامل به كتب العقائد الأشعرية مع معظم الصفات والأفعال التي أخبرنا الله بها والتي جاءتنا عن طريق الوحي وقد رأينا بداية ذلك عند الجويني.

ثم يتحدث عن رؤية الله سبحانه وتعالىٰ في الدعوىٰ التاسعة فيقرر رؤية الله يوم القيامة خلافًا للمعتزلة، وهو الموقف التقليدي الذي وقفه جميع الأشاعرة.

ثم يتحدث الغزالي عن وحدانية الله -تعالىٰ- فيقول[2]:

«ندعي أنه سبحانه واحد، فإنه كونه واحدًا يرجع إلىٰ ثبوت ذاته ونفي غيره فليس كل نظرٌ في صفة زائدة عن الذات، فوجب ذكره في هذا القطب فنقول

---

(١) (سورة طه: الآية ٥).

(٢) الغزالي. الاقتصاد في الاعتقاد (ص٣٦).

الواحد قد يطلب مراد به أنه لا يقبل القسمة؛ أي: لا كمية له ولا جزء ولا مقدار، والباري تعالىٰ واحد بمعنىٰ سلب الكمية المصححة للقسمة عنه فإنه غير قابل للإنقسام، إذ الانقسام لما له كمية والتقسيم تصرف في كمية بالتفريق والتصغير وما لا كمية له لا يتصور انقسامه، وقد يطلب ويراد به لا نظير له في رتبته كما نقول الشمس واحدة والباري تعالىٰ أيضًا بهذا المعنىٰ واحد فإنه لا ندّ له، فإما أنه لا ضد له فظهر إذًا المفهوم من الضد هو الذي يتعاقب مع الشيء علىٰ محل واحد ولا تجامع وما لا محل له فلا ضد له، والباري سبحانه لا محل له فلا ضد له، وأما قولنا فلا ند له فنعني به أن ما سواه هو خالقه لا غير».

يطرح الغزالي في الدعوىٰ السابقة بعض معاني الواحد مثل عدم قبول الانقسام وأنه لا نظير له، لكنه يغفل عن معنىٰ رئيسي في وحدانيته تعالىٰ وهو ضرورة إفراده بالعبودية والتأليه، وهو المقصود الأصعب تحقيقه في الوحدانية، إضافة إلىٰ أن كلام الغزالي عن الوحدانية لا يغني البناء النفسي للمسلم ويتضح ذلك بمقارنته بكلام القرآن الكريم عندما سأل المشركون: هل يسع الكون إله واحد؟ فقال تعالىٰ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِي تَجْرِي فِي ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾[1].

(١) (سورة البقرة: الآية ١٦٤).

إن الظواهر التي تحدثت عنها آية الجواب من خلق السماوت والأرض، واختلاف الليل والنهار، والسفن الجارية في البحر ونزول المطر وحركة الرياح والسحاب كل هذه الظواهر تجعل المسلم يعظم الله، ويخضع له للنفع الذي يستفيده منها، ويثق بالله لعدم تصادمها مع بعضها؛ لأنه يدبرها تعالىٰ مع اختلافها.

* * * *

إن الدعاوىٰ التي طرحها الغزالي في قطبه الأول تحدثت عن وجود الله وأن الله قديم، وباق وليس جوهرًا ولا جسمًا ولا عرضًا وليس في جهة، وأنه تعالىٰ يرىٰ يوم القيامة، وأنه واحد.

إن بعض الدعاوىٰ السابقة التي طرحها الغزالي يعرفها المسلم بفطرته وهي من مقتضيات الأولهية مثل: وجود الله وأنه –تعالىٰ– قديم وباق وليس جوهرًا وليس جسمًا ولا عرضًا وليس في جهة، ومع ذلك اجتهد الغزالي في إثباتها وإقامة الأدلة عليها، والملاحظ أن طرح الغزالي لهذه الحقائق لم يساهم آية مساهمة في البناء النفسي للمسلم.

أما الدعاوىٰ الباقية وهي استواؤه علىٰ العرش فهي من أفعال الله التي أخبرنا الوحي بها فقد أولها الغزالي وهو الموقف الذي بدأ يترسخ نحو الصفات

والأفعال التي أخبرنا بها الوحي عن الله تعالىٰ، مما جعل هذه الصفة لا تساهم أيضًا في بناء المسلم النفسي.

أما رؤية الله تعالىٰ يوم القيامة فقد كان موقف الغزالي موافقًا لأهل السنة في موقفهم وهو إقرار الرؤية، لكن عرضها كمشكلة تاريخية يقوم علىٰ حشد الأدلة لإثبات وجهة نظره جعلها لا تساهم أية مساهة في بناء المسلم النفسي.

أما دعوىٰ الوحدانية فقد جاء عرضها -كما وضحنا- خاليًا من أية مساهمة في بناء المسلم النفسي.

❁ ❁ ❁ ❁

ثم ينتقل الغزالي إلىٰ القطب الثاني ويخصصه للحديث عن الصفات وفيه سبع دعاوىٰ ويبدأ بالصفة الأولىٰ وهي القدرة فيقول[1]:

«القدرة -ندعي أن محدث العالم قادر؛ لأن العالم فعل محكم مرتب متقن منظوم مشتمل علىٰ أنواع العجائب والآيات، وذلك يدل علىٰ القدرة ونرتب القياس فنقول كل فعل محكم فهو صادر من فاعل قادر والعالم فعل محكم فهو إذا صادر من فاعل قادر ففي أي الأصلين النزاع».

---

(١) المرجع السابق. ص٣٨.

ثم ينتقل إلىٰ الصفة الثانية فيقول[1]:

«العلم –ندعي أن الله سبحانه وتعالىٰ عالم بجميع المعلومات: الموجودات والمعدومات فإن الموجودات منقسمة إلىٰ قديم وحادث والقديم ذاته وصفاته ومن علم غيره فهو بذاته وصفاته أعلم فيجب ضرورة أن يكون بذاته عالمًا وصفاته إن ثبت أنه عالم بغيره ومعلوم أنه عالم بغيره؛ لأن ما ينطبق عليه اسم الغير فهو صفة المتقدم وفعله المحكم المترتب وذلك يدل علىٰ قدرته علىٰ ما سبق فإن من رأىٰ خطوطًا منظومة تصدر علىٰ الاتساق من كاتب ثم استراب في كونه عالمًا بصنعة الكتاب كان سفيهًا في استرابته فإذًا قد ثبت أنه عالم بذاته وبغيره».

ثم ينتقل إلىٰ الصفة الثالثة وهي «الحياة» فيقول[2]:

«الحياة – ندعي أنه تعالىٰ حي وهو معلوم بالضرورة ولم ينكره أحد ممن اعترف بكونه تعالىٰ عالمًا قادرًا فإن كون العالم القادر حيًا ضرورة إذ لا يعني بالحي إلا ما يشعر بنفسه ويعلم ذاته وغيره والعالم بجميع المعلومات والقادر علىٰ جميع المقدورات كيف لا يكون حيًا وذا نظر واضح والنظر في صفة الحياة لا يطول».

ثم ينتقل إلىٰ الصفة الرابعة وهي «الإرادة» فيقول[3]:

«ندعي أن الله تعالىٰ مريد لأفعاله وبرهانه أن الفعل الصادر تكفي ذاته

---

(١) المرجع السابق. ص٤٧.

(٢) المرجع السابق. ص٤٧.

(٣) المرجع السابق. ص٤٧.

بترجيح؛ لأن نسبة الذات إلىٰ الضدين واحدة فما الذي خصص أحد الضدين بالوقوع في حال دون حال وكذلك القدرة لا تكفي فيه إذ نسبة القدرة إلىٰ الضدين واحدة وكذلك العلم لا يكفي خلافًا للكعبي حيث اكتفىٰ بالعلم عن الإرادة؛ لأن العلم يتبع المعلوم وتيعلق به علىٰ ما هو عليه ولا يؤثر فيه ولا يغيره».

ثم يثبت الغزالي صفتين لله تعالىٰ هما السمع والبصر فيقول[1]:

«السمع والبصر –ندعي أن صانع العالم سميع بصير ويدل عليه الشرع والعقل أما الشرع فيدل عليه آيات من القرآن كثيرة كقوله: ﴿ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾ كقول إبراهيم عليه السلام: ﴿لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِى عَنكَ شَيْـًٔا﴾[2] ونعلم أن الدليل غير منقلب عليه في معبوده وأنه كان يعبد سميعًا بصيرًا ولا يشاركه عن موضوعاتها المفهومة السابقة إلىٰ الأفهام إذ أنه يستحيل تقديرها علىٰ الموضوع ولا استحالة في كونه سميعًا بصيرًا بل يجب أن يكون كذلك فلا معنىٰ للتحكم بإنكار ما فهمه أهل الإجماع من القرآن.

وأما المسلك العقلي فهو أن نقول معلوم أن الخالق أكمل من المخلوق ومعلوم أن البصير أكمل ممن لا يبصر والسميع أكمل ممن لا يسمع فيستحيل أن نثبت وصف الكمال للمخلوق ولا نثبته للخالق وهذان أصلان يوجبان الإقرار بصحة دعوانا ففي أيهما النزاع، فإن قيل النزاع في قولكم واجب أن يكون الخالق

---

(١) المرجع السابق. ص٥١.

(٢) (سورة مريم : الآية ٤٢).

أكمل من المخلوق، قلنا هذا مما يجب الاعتراف به شرعًا وعقلًا والأمة والعقلاء يجمعون عليه فلا يصدر هذا السؤال من معتقده ومن اتسع عقله لقبول قادر يقدر علىٰ اختراع ما هو أعلىٰ وأشرف منه فقد انخلع عن غريزة البشرية ونطق لسانه بما ينبو عن قبوله قبله إن كان يفهم ما يقوله ولهذا لا نرىٰ عاقلًا يعتقد هذا الاعتقاد. فإن قيل النزاع في الأصل الثاني وهو قولك أن البصر أكمل وأن السمع والبصر كمال، قلنا هذا أيضًا مدرك ببديهة العقل فإن العقل كمال والسمع والبصر كمال ثان للعلم فإنّا بينا أنه استكمال للعلم والتخيل ومن علم شيئًا ولم ره ثم رآه استفاد مزيد كشف وكمال فكيف يقال أن ذلك حاصل للمخلوق وليس بحاصل للخالق أو يقال أن ذلك ليس بكمال فإن لم يكن كمالًا فهو نقص أو لا هو نقص ولا هو كمال وجميع هذه الأقسام محال فظهر أن الحق ما ذكرناه».

ثم يذكر الغزالي صفة أخرىٰ من صفات الله -تعالىٰ- هي صفة الكلام فيقول[1]:

«الكلام – ندعي أن صانع العالم متكلم كما أجمع عليه المسلمون وأعلم أن من أراد إثبات الكلام بأن العقل يقضي بجواز كون الخلق مرددين تحت الأمر والنهي وكل صفة جائزة في المخلوقات تستند إلىٰ صفة واجبة في الخالق فهو شطط إذ يقال له: إن أردت جواز كونهم مأمورين من جهة الخلق الذي يتصور منهم الكلام فسلم وإن أردت جوازه علىٰ العموم من الخلق والخالق فقد أخذت محل

(١) المرجع السابق. ص٥٣.

النزاع مسلمًا في نفس الدليل وهو غير مسلم، ومن أراد إثبات الكلام بالإجماع أو بقول الرسول ﷺ فقد سام نفسه خطة خسف؛ لأن الإجماع يستند إلىٰ قول الرسول ﷺ ومن أنكر كون الباري متكلمًا فبالضرورة ينكر تصور الرسول إذ معنىٰ الرسول المبلغ لرسالة المرسل، فإن لم يكن الكلام متصورًا في حق من ادعىٰ أنه مرسل كيف يتصور الرسول ومن قال أن رسول الأرض أو رسول الجبل إليكم فلا يصغىٰ إليه لاعتقادنا استحالة الكلام والرسالة من الجبل والأرض ولله المثل الأعلىٰ ولكن من يعتقد استحالة الكلام في حق الله تعالىٰ استحال منه أن يصدق الرسول إذ المكذب بالكلام لابد أن يكذب بتبليغ الكلام ،والرسالة عبارة عن تبليغ الكلام، والرسول عبارة عن المبلغ فلعل الأقوم منهج ثالث وهو الذي سلكناه في إثبات السمع والبصر في أن الكلام للحي إما أن يقال هو كمال أو يقال هو نقص ولا كمال وباطل أن يقال هو نقص أو هو لا نقص ولا كمال فثبت بالضرورة أنه كمال وجد للمخلوق فهو واجب الوجود للخلق بطريق الأولىٰ كما سبق».

إن معظم صفات الله التي تحدث الغزالي عنها في الصفحات السابقة وهي: القدرة، العلم، الحياة، الإرادة، السمع، البصر، الكلام، من الصفات التي يقتضيها تصور الألوهية، ويعرفها الإنسان بفطرته، وأكدتها الآيات القرآنية، وإلا فما قيمة الإله إذا لم يكن قادرًا عليمًا حيًا مريدًا؟ لذلك فإن الإجتهاد في إثباتها إجتهاد بلا مبرر.

والأهم من ذلك أن طريقة عرضها المتباينة بين الغزالي وبين مصادر الوحي الإسلامي هو الذي أفقدها دورها في البناء النفسي للمسلم، ففي حين أن الغزالي عرضها بشكل مجرد، عرضتها مصادر الوحي الإسلامي من خلال ظواهر كونية وحياتيه وشخصية... ويمكن أن نمثل علىٰ ذلك علمه تعالىٰ فقد قال تعالىٰ:

﴿ ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ ۖ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَـٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ ﴾[1].

﴿ ۞ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَـٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَـٰبٍ مُّبِينٍ ﴿٥٩﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ۖ ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾[2].

﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۖ مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَـٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَآ أَدْنَىٰ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا۟ ۖ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾[3].

---

(١) (سورة الرعد: الآيات ٨-١١).

(٢) (سورة الأنعام: الآيتان ٥٩، ٦٠).

(٣) (سورة المجادلة: الآية ٧).

﴿ وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُوا۟ مِنْهُ مِن قُرْءَانٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ ۚ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصْغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرَ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ﴾[1].

إن الآيات السابقة تبين علم الله في مجالات دقيقة تجعل المسلم يعظم الله تعالىٰ علىٰ هذا العلم الدقيق، كما يخضع له –سبحانه وتعالىٰ– فيراقبه في كل تصرفاته؛ لأنه يعلم أنها محصية عليه، كما تزداد ثقته به –سبحانه وتعالىٰ– فيناجيه ويدعوه؛ لأنه ملطع علىٰ أدق حالاته، كما أنه يخاف عقابه.

❁ ❁ ❁ ❁

ثم ينتقل الغزالي إلىٰ القسم الثاني من هذا القطب وهو يتعلق بأحكام عامة مرتبطة بالصفات ويبدأ بالحكم الأول فيقرر أن الصفات السبعة التي ذكرها ليست هي الذات بل هي زائدة، ويرد علىٰ المعتزلة والفلاسفة الذين ينكرون ذلك ويتناول صفة واحدة هي صفة العلم ويفصل في الرد علىٰ المعتزلة وبين أن أصل الخطأ عند المعتزلة أخذهم المعاني من الألفاظ فيقول[2]:

«فإن المفهوم من قولنا عالم هو من له علم واحد فإن العاقل يعقل ذاتًا ويعقلها علىٰ حالة وصفة بعد ذلك فيكون قد عقل صفة وموصوفًا والصفة علم

(١) (سورة يونس: الآية ٦١).

(٢) الغزالي. الاقتصاد في الاعتقاد. (ص٦١).

وله عبارتان: أحدهما طويلة وهي أن نقول هذه الذات قد قام بها علم، والأخرىٰ وجيزة أوجزت بالتصريف والاشتقاق وهي أن الذات عالمة كما نشاهد الإنسان شخصًا ونشاهد نعلًا ونشاهد دخول رجله في النعل فله عبارة طويلة وهو أن نقول: هذا الشخص رجله داخلة في نعله، أو نقول هو منتعل ولا معنىٰ لكونه منتعلًا إلا أنه ذو نعل، ما يظن من أن قيام العلم بالذات يوجب للذات حالة تسمىٰ عالمية هو محض بل العلم هي الحالة فلا معنىٰ لكونه عالمًا إلا كون الذات علىٰ صفة وحال تلك الصفة الحال وهي العلم فقط ولكن من يأخذ المعاي من الألفاظ فلا ب أن يغلط، فإذا تكررت الألفاظ بالاشتقاقات فاشتقاق صفة العالم من لفظ العلم أورث هذا الغلط فلا ينبغي أن يغتر به».

ثم يقرر الاقتصاد في الاعتقاد فيقول[1]:

«فنقول الاقتصاد في الاعتقاد أن يقال كل اختلاف يرجع إلىٰ تباين الذوات بأنفسها فلا يمكن أن يكفي الواحد منها وينوب عن المختلفات فوجب أن يكون العلم غير القدرة وكذلك الحياة وكذا الصفات السبعة أن تكون الصفات غير الذات من حيث أن المباينة بين الذات الموصوفة وبين الصفة أشد من المباينة بين الصفتين».

ثم ينتقل إلىٰ الحكم الثاني وهو أن هذه الصفات قائمة بذاته تعالىٰ فيقول[2]:

---

(١) المرجع السابق. ص٦٣.

(٢) المرجع السابق. ص٦٥.

«إن هذه الصفات كلها قائمة بذاته لا يجوز أن يقوم شيء منها بغير ذاته سواء كان في محل أو لم يكن في محل، وأما المعتزلة فإنهم حكموا بأن الإرادة لا تقوم بذاته تعالىٰ فإنها حادثة، وليس هو محلًا للحوادث ولا يقوم بمحل آخر لأنه يؤدي إلىٰ أن يكون ذلك المحل هو المريد به فهي توجد لا في محل، وزعموا أن الكلام لا يقوم بذاته؛ لأنه حادث ولكن يقوم بجسم هو جماد حتىٰ لا يكون هو المتكلم به بل المتكلم به هو الله سبحانه».

ثم ينتقل إلىٰ الحكم الثالث وهو أن هذه الصفات قديمة فيقول[(١)]:

«إن الصفات كلها قديمة، فإنها إن كانت حادثة كان القديم سبحانه محلًا للحوادث وهو محال، أو كان يتصف بصفة لا تقوم به وذلك أظهر كما سبق ولم يذهب أحد إلىٰ حدوث الحياة والقدرة وإنما اعتقدوا ذلك في العلم بالحوادث وفي الإرداة وفي الكلام ونحن نستدل علىٰ استحالة كونه محلًا للحوادث من ثلاثة أوجه».

ثم يذكر الحكم الرابع ويذكر قولًا جامعًا فيما يتعلق بالصفات وهو[(٢)]:

«أن الأسامي المشتقة لله تعالىٰ من هذه الصفات السبعة صادقة عليه أزلًا وأبدًا، فهو في القديم كان حيًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلمًا وأما ما يشتق له من الأفعال كالرازق والخالق والمعز والمذل فقد اختلف في أنه يصدق في الأزل أم لا

---

(١) المرجع السابق. ص ٦٦.

(٢) المرجع السابق. ص ٧٢.

وهذا إذا كشف الغطاء عنه تبين استحالة الخلاف فيه».

قرر الغزالي في القسم الثاني من القطب الثاني أن الصفات ليست هي الذات بل هي زائدة، كما قرر أن هذه الصفات بذاته لا يجوز أن يقوم شيء منها بغير ذاته، ثم يقرر أن هذه الصفات قديمة، وأن الأسامي المشتقة لله –تعالىٰ– من هذه الصفات السبعة صادقة عليه –تعالىٰ– أزلًا وأبدًا.

إن هذه الإشكاليات والقضايا التي أثارها الغزالي لم تنبع من البناء الثقافي الإسلامي إنما جاءته من بناء ثقافي آخر يعتمد في إقامة حقائقه علىٰ التخيل، وكان الأولىٰ بالغزالي أن لا يستسلم إلىٰ هذا التداخل بين البناءين إنما يتعامل مع البناء الإسلامي بمعطياته وأدواته ومفرداته المقررة فيه، فذلك أولىٰ في التوصل إلىٰ نتائج حقيقة، ويعالج الإشكاليات التي اعتبرها الإسلام إشكاليات: كالشرك والوسائط.

۞ ۞ ۞ ۞

ثم ينتقل إلىٰ القطب الثالث ويبين أنه في أفعال الله تعالىٰ وجملة أفعال جايزة لا يوصف شئ منها بالوجوب ويقدم لذلك بالبحث علىٰ معنىٰ ستة ألفاظ وهي: الواجب والحسن والقبيح والعبث والسفه والحكمه. وبين أن هذه الألفاظ مشتركة ومثار الأغاليط إجمالًا. وبين أن الطريق الأمثل هو تحصيل المعاني أولًا ثم

الالتفات إلىٰ الألفاظ المبحوث عنها والنظر إلىٰ تفاوت الاصطلاحات.

ثم ينتقل إلىٰ تحديد الدعوىٰ الأولىٰ وهي:

«أنه يجوز لله تعالىٰ أن لا يخلق الخلق وإذا خلق فلم يكن ذلك واجبًا عليه وإذا خلقهم فله أن لا يكلفهم وإذا كلفهم فلم يكن ذلك واجبًا عليه».

ثم يعرض وجهة نظر المعتزلة المخالفة فيقول[1]:

«قالت طائفة من المعتزلة يجب عليه الخلق والتكليف بعد الخلق».

ثم يعرض الدعوىٰ الثانية وهي[2]:

«أن لله تعالىٰ أن يكلف العباد ما يطيقونه وما لا يطيقونه وذهبت المعتزلة إلىٰ إنكار ذلك».

ثم يذكر الدعوىٰ الثالثة وهي[3]:

«إن الله تعالىٰ قادر علىٰ إيلام الحيوان البريء، عن الجنايات ولا يلزم عليه ثواب وقالت المعتزلة أن ذلك محال؛ لأنه قبيح».

ثم يذكر الدعوىٰ الرابعة وهي[4]:

«أنه لا يجب عليه رعاية الأصلح لعباده بل له أن يفعل ما يشاء ويحكم بما يريد خلافًا للمعتزلة فإنهم حجروا علىٰ الله تعالىٰ أفعاله وأوجبوا عليه ورعاية

---

(١) المرجع السابق. ص٨٠.

(٢) المرجع السابق. ص ٨١.

(٣) المرجع السابق. ص ٨٣.

(٤) المرجع السابق. ص٨٣.

الأصلح».

ثم يذكر الدعوىٰ الخامسة وهي[1]:

«أن الله تعالىٰ إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب إن شاء أثابهم وإن شاء عاقبهم وإن شاء أعدمهم ولم يحشرهم ولا يبالي لو غفر لجميع الكافرين وعاقب جميع المؤمنين ولا يستحيل ذلك من نفسه ولا يناقض صفة من صفات الإلهية وهذا لأن التكليف تصرف في عبيده ومماليكه أما الثواب ففعل آخر علىٰ سبيل الابتداء».

ثم يذكر الدعوىٰ السادسة وهي[2]:

«أنه لو لم يرد الشرع لما كان يجب علىٰ العباد معرفة الله تعالىٰ وشكر نعمته خلافًا للمعتزلة حيث قالوا أن العقل بمجرده موجب».

ثم يذكر الدعوىٰ السابعة وهي[3]:

«أن بعثة الأنبياء جايزة وليس بمحال ولا واجب وقالت المعتزلة أنه واجب».

إن الدعاوىٰ السابقة التي أوردها الغزالي والتي ذكر منها أن له –تعالىٰ– أن يكلف العباد ما لا يطيقونه، وأن يؤلم الحيوانات وأنه لا يلزمه الثواب، وأنه لا

(١) المرجع السابق. ص٨٤.

(٢) المرجع السابق. ص٨٦.

(٣) المرجع السابق. ص٨٨.

يجب عليه –تعالىٰ– رعاية الأصلح لعباده، وله –تعالىٰ– أن يكلف العباد ولم يجب عليه الثواب وإن أطاعوه فإن شاء أثابهم وإن شاء عاقبهم.

إن التجويز والإيجاب علىٰ الله –تعالىٰ– بخاصة والتكلم عن أفعال الله –تعالىٰ– بعامه لا يكون بالتخيل، وإنما يكون باعتماد الوحي الذي أخبرنا فيه تعالىٰ عن كثير من أفعاله، والتزام ذلك الوحي وعدم تجاوزه تأدبًا معه –تعالىٰ– وحتىٰ لا نخوض في مجال لا نملك أدوات سليمة وصحيحة في التعامل معه.

* * * *

ثم ينتقل الغزالي إلىٰ القطب الرابع ويشمل علىٰ عدة أبواب هي: في إثبات نبوة نبينا ﷺ، وفي ما جاء به من الحشر والنشر والطراط والميزان وأحقية عذاب القبر، وفي الإمامة، وفي بيان من يجب تكفيره في الفرق.



مقارنة دور «العقيدة» عند الغزالي في البناء النفسي للمسلم
بـ «العقيدة من القرآن والسنة»

١- بين الغزالي في بداية كتابه مناهج الأدلة التي انتهجها فأظهر أنه اعتمد الأقيسة المنطقية من ضمن مناهج الأدلة التي اعتمدها واستتبع ذلك إدخال كل مستلزمات العملية المنطقية من مصطلحات: التصور والتصديق، والحد والماهية إلخ...، وهو لا يصرح هنا بذلك لكنه يصرح عنها في كتب أخرىٰ، وألف كتبًا متخصصة توضحها مثل: القسطاس المستقيم، معيار تداخل مذهب الذرة معه.

٢- تحدّث الغزالي في قطبين عن صفات الله تعالىٰ تحت مسميات مختلفة ومنها: وجود الله وأنه تعالىٰ باقٍ وأنه قديم، وأنه ليس بعرض ولا جوهر، وأنه ليس جسمًا وليس في جهة وأنه سميع عليم قدير مريد إلخ...

واستخدام أدلة متعددة من أجل إثباتها مثل: دليل الحدوث، وبعض مصطلحات مذهب الذرة، وبعض الأقيسة المنطقية ومستلزماتها، وبعض الافتراضات العقلية إلخ...

وقد خالف الغزالي المنهج الإسلامي الذي اعتبرها فطرية واكتفىٰ بالدليل السمعي من جهة، كما خالفه في طريقة عرضها من جهة ثانية، وقد كانت النتيجة أن هذه الصفات لم تساهم أية مساهمة في البناء النفسي للمسلم.

٣- أثار الغزالي في دراسته عن الصفات إشكالات جاءت من تداخل البناء الثقافي لمذهب الذرة والمنطق مع البناء الثقافي المشاد حول الكتاب والسنة مثل: الصفات ليست هي الذات بل هي زائدة، وأنها قائمة بذاته وأنها كلها قديمة، وترك الإشكالات التي أثارها المنهج الإسلامي وهي: الشرك، والوسائط في العبادة، والصور الصحيحة للعلاقة بالله تعالىٰ، والتي اعتبرها مشاكل يمكن أن تواجه الإنسان علىٰ مدار التاريخ، والتي يمكن أن يضل المسلم ويزيغ بسببها، مما جعل هذه المشاكل تزداد استفحالًا ورسوخًا في المجتمع الإسلامي وقد تجسدت في التصوف الذي كان الغزالي أبرز دعاته ومروجيه ومرسخيه.

٤- لم يتعرض الغزالي في كتابه إلىٰ ركن الإيمان بالملائكة، مما جعل البناء النفسي للمسلم بكل عناصره يخسر رافدًا أساسيًا من روافد بنائه.

٥- جاء كلام الغزالي عن الكتب والرسل مقتصرًا علىٰ إثبات جواز مبعث الأنبياء وعلىٰ إثبات نبوة محمد ﷺ، وهو كلام ليس له أي دور في البناء النفسي للمسلم، مما جعل عرضه العقائدي يخسر عنصرين رئيسيين في إغناء البناء النفسي للمسلم.

٦- اقتصر الكلام عن اليوم الآخر في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد علىٰ إثبات بعض الأمور التي تقع يوم القيامة مثل: الصراط والميزان وأحقية عذاب القبر، وهو كلام بالمقارنة مع ما ورد في دراستنا عن اليوم الآخر في القرآن والسنة محدود ولا يساهم في إغناء البناء النفسي للمسلم.

٧- اقتصر حديث الغزالي عن القضاء والقدر وتقرير افتراضات مثل: إن لله تعالىٰ أن يكلف العباد ما يطيقونه وما لا يطيقونه، وأن الله إذا كلف العباد فأطاعوه لم يجب عليه الثواب إن شاء أثابهم وإن شاء عاقبهم وإن شاء ألحدهم ولم يحشرهم ولا يبالي لو غفر لجميع الكافرين وعاقب جميع المؤمنين ولا يستحيل ذلك إلخ...

لا أريد أن أناقش كلام الغزالي السابق من حيث سلامته الشرعية؛ لأنه ليس مجال بحثنا، ولكنني أستطيع أن أقرر أن مثل هذا الكلام لا يساهم في البناء النفسي للمسلم، والنتيجة أن البناء النفسي للمسلم خسر رافدًا من روافد بنائه.

الخلاصة: أن كتاب الاقتصاد في الاعتقاد الذي يمثل منعطفًا في البناء الثقافي؛ لأنه أدخل المنطق إلىٰ البنيان الثقافي حول الكتاب والسنة، أدىٰ إلىٰ نتائج جديدة في البناء النفسي للمسلم تتجسد في انحسار الجانب المعنوي.

۞ ۞ ۞ ۞

هل توقف الأمر عن تداخل مذهب الذرة وعلم المنطق الثقافي الإسلامي؟ وهل توقف الأمر عند انسحاب الجانب المعنوي في البناء الثقافي الإسلامي نتيجة التداخل السابق؟

الحقيقة لم يحدث توقف بل تعداه إلىٰ تداخل آخر هو: تداخل الفلسفة مع

البناء الثقافي الإسلامي وإلىٰ نتائج أخرىٰ في البناء النفسي للمسلم.

تداخل الفلسفة كان علىٰ يد الرازي في كتابه «المحصل».

إذن لنر هذا التداخل ولنر نتائجه.



الرازي والمحصل

من هو الرازي؟

هو محمد بن عمر بن الحسين بن علي القرشي التيمي البكري الطبرستاني، أبو المعالي وأبو عبد الله بن خطيب الري المعروف بفخر الدين الرازي.

ولد في الخامس والعشرين من رمضان سنة ٥٤٣هـ بالري، وكان والده ضياء الدين ذا علم مقدمًا في علم الكلام، له فيه كتاب «غاية المرام».

درس الرازي علىٰ والده، وقد عاش فقيرًا في بداية حياته، ثم جاءته النعمة بعد زاوج ابنيه من ابنتي طبيب غني ورثاه.

ارتحل الرزاي في طلب العلم سنين طويلة فتوجه إلىٰ خوارزم، ثم قصد بخارىٰ، ثم ذهب إلىٰ سمرقند وغزنه وبلاد الهند، وكان يلقىٰ الإكرام والاحترام في مواطن نزوله.

توفي يوم الاثنين عيد الفطر سنة ٦٠٦هـ، وقيل إن الكرامية سقوه السم، لذلك أوصىٰ أن يبالغ في إخفاء قبره[1].

كان الرازي ذا ثقافة واسعة، اهتم بعلم الكلام وذكر السبكي أنه حفظ كتاب «الشامل» في علم الكلام لإمام الحرمين، وكان ذا دراية بكتب الفرق، وكان مطلعًا علىٰ تراث الفلاسفة المسلمين، كما كان أصوليًا متبحرًا، وكان مطلعًا علىٰ

(١) السبكي، طبقات الشافعية، ٥/ ٣٥. ابن كثير، البداية والنهاية، ١٣/ ٥٥.

علم الفلك والعلوم الطبيعية وألف في الهندسة، كما ألف في مختلف أنواع العلوم التي عرفها عصره.

المحصل:

جاء الرازي وأدخل الفلسفة في علم الكلام، وأوضح كتاب يوضح هذا الإدخال هو «المحصل» الذي سماه «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين».

وقد ذكر الرازي في مقدمته بأن جمعًا من أفاضل العلماء قد طلبوا منه أن يضيف مختصرًا في علم الكلام مشتملًا علىٰ أحكام الأصول والقواعد.

وقد قسم كتابه إلىٰ أربعة أركان:

الركن الأول: جعله في المقدمات.

الركن الثاني: في المعلومات.

الركن الثالث: في الإلهيات.

الركن الرابع: في السمعيات.

وقد دخلت كثير من القضايا الفلسفية في أركان الكتاب، كما أن الرازي رد علىٰ كثير من المفردات الفلسفية ويتضح ذلك في كل ركن من أركان الكتاب ونحن سنستعرض بعضًا من هذه المفردات الفلسفية لنبرز ونؤكد صحة قولنا.

الركن الأول: في المقدمات[1]:

يبدأ الرازي كلامه بثلاث مقدمات:

الأولىٰ: في العلوم الأولية ويتحدث عن القول في التصورات والتصديقات وهي من علم المنطق، ثم يتحدث في المقدمة الثانية في أحكام النظر وهي من علم الكلام، والمقدمة الثالثة في الدليل وأقسامة وهي من علم الكلام.

إن هذا الركن لا يساهم أية مساهمة في البناء النفسي للمسلم.

الركن الثاني: في تقسيم المعلومات[2]:

يبدأ هذا الركن فيذكر أن المعلوم إما أن يكون موجودًا أو معدومًا ثم ينقل تفصيلًا لقول الفلاسفة والمعتزلة في المعدومات، ثم يبين رأيه أنه لا واسطة بين الموجود والمعدوم. وهذا التقسيم الذي أورده عن المعلومات، يعتمد تقسيم علم الكلام الذي عرفناه في كتاب الشامل لإمام الحرمين الجويني، ويورد الرازي بعد ذلك تقسيم الموجودات كما وردت عند الفلاسفة فيقول[3]:

«الموجود إما أن يكون واجب الثبوت لذاته وهو الله تعالىٰ، وإما أن يكون ممكن الوجود لذاته وهو كل ما عداه».

---

(١) الرازي: «محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين» راجعه وقدم له: طه عبد الرؤوف سعد. الناشر: دار الكتاب العربي، بيروت (ص٢٥- ٧٣).

(٢) المرجع السابق: ص٧٥.

(٣) المرجع السابق: ص٩٣، ٩٤.

ثم يتحدث الرازي عن الواجب لذاته وهو الله تعالىٰ فيذكر له عشر خصائص وهي:

الأولىٰ: الشيء الواحد لا يكون واجبًا لذاته ولغيره معًا.

الثانية: الواجب لذاته لا يتركب عن غيره.

الثالثة: الواجب لذاته لا يتركب عنه غيره.

الرابعة: الواجب لذاته لا يكون وجوده زائدًا علىٰ ماهيته.

الخامسة: الواجب لذاته لا يكون وجوده زائدًا عليه.

السادسة: الواجب لذاته لا يكون مشتركًا بين اثنين.

السابعة: وقوع لفظ الواجب علىٰ الواجب بالذات والواجب بالغير بالاشتراك اللفظي.

الثامنة: الواجب لذاته واجب من جميع جهاته.

التاسعة: الواجب لذاته لا يصح عليه العدم.

العاشرة: الواجب لذاته تجوز أن تعرض له صفات تستلزمها ذاته.

ثم يفصل الحديث عن كل خاصة.

إن إطلاق الواجب لذاته علىٰ الله تعالىٰ تسمية لا أصل لها في مصادر الوحي الإسلامي لكنها جاءت –كما هو واضح– من المعطيات الفسلفية، وإن الخصائص التي وصف الرازي بها ذات الله –تعالىٰ– والتي لجأ فيها إلىٰ السلب إنما نفىٰ عنه تعالىٰ إشكالات طرحتها الفسلفات المختفة في صراعاتها وخلافاتها، وهي علىٰ

عكس المنهج القرآني الذي أجمل في الصفات المنفية عن الله -تعالىٰ- وفصل في الصفات الثبوتية، كما أن طريقة عرضه لتلك الخصائص لا تساهم أية مساهمة في البناء النفسي للمسلم.

ثم يتحدث الرازي عن الممكن لذاته فيقول[1]:

«هو الذي لا يلزم من فرض وجوده ولا من فرض عدمه من حيث هو كحال».

ثم يفصل الكلام فيه ويستغرق حديثه عدة صفحات فيقول:

«فإن قيل القول بالإمكان ممتنع من وجوده:

الأول: أن وجود السواد مثلًا إما أن يكون عين كونه سوادًا أو غيره.

الثاني: أن المحكوم عليه بالإمكان إما أن يكون موجودًا أو معدومًا.

الثالث: وهو أن الشيء لو كان ممكنًا لكان إمكانه إما أن يكون وصفًا عدميًا أو وجوديًا.

ثم يذكر خصائص الممكن وهي:

الأولىٰ: الممكن لا يوجد ولا يعدم إلا بسبب منفصل.

الثانية: الممكن لذاته متساوي الطرفين.

الثالثة: رجحان الممكن لذاته مسبوق بوجوب وملحوق بوجوب.

الرابعة: علة الحاجة إلىٰ المؤثر الإمكان لا الحدوث.

---

(١) المرجع السابق: ص١٠١ وما بعدها.

الخامسة: الممكن حال بقائه لا يستغني عن المؤثر».

إن كلام الرازي السابق عن الممكن والذي يعني في أحد وجوهه الكون لا يساهم أية مساهمة في البناء النفسي للمسلم، مع أنه كان للظواهر الكونية دور كبير في إغناء البناء النفسي للمسلم عند دراستنا للعقيدة من القرآن والسنة؛ لأنه يتضح فيها تدبير الله –تعالىٰ– وحكمته، وقدرته، وعلمه سبحانه وتعالىٰ.

وبعد أن انتهىٰ الرازي من تقسيم الموجودات عند الفلاسفة يكتب فصلًا في تقسيم الموجودات علىٰ رأي المتكلمين، ويذكر خلاله رأي الحكماء في تقسيم الممكنات فيقول[1]:

«الحال قد يكون سببًا لقوام المحل إما بأن يقتضي الحال وجود المحل ثم تصير نفسه حالة فيه أو بأن يقتضي الأثر حلول مؤثرة فيه، وعلىٰ هذين التقديرين لا يلزم منه الدور، فالمحل المتقوم بنفسه المقوم لما يحل فيه يسمىٰ بالموضوع وهو أخص من المحل، فيكون عدمه أعم من عدم المحل.

إذا عرفت هذا فنقول: إما أن يكون في الموضوع وهو العرض، أو لا يكون وهو الجوهر، والجوهر إما أن يكون في المحل وهو الصورة أو يكون محلًا وهو الهيولي أو مركبًا من الصورة والهيولي وهو الجسم فقط بالاستقراء أو لا حالها ولا محل ولا مركبًا منهما، وهو إما أن يكون متعلقًا بالأجسام تعلق التدبير وهو النفس أو لا يكون العقل».

---

(١) المرجع السابق: ص١٢٥، ١٢٦.

ثم ينقل عن أرسطو تعريفه للزمان وردود الفلاسفة عليه.

ثم يتحدث الرازي عن الكميات وآراء الفلاسفة حول هذا الموضوع وخلافهم فيه.

ثم يتحدث الرازي عن تعريفات ومصطلحات فسلفية أخرىٰ مثل:

- إن اعتقاد الضدين يمنع اجتماعهما لنفسهما أو لأمر يرجع إلىٰ الصارف.
- قول البعض أن المعدوم غير المعلوم[١].
- البسيط المحسوس فلا شك أنه قابل للانقسام[٢].
- زعم ابن سينا أن الجسم مركب من الهيولي والصورة[٣].

ثم يتحدث الرازي حديثًا طويلًا عن الأجسام فيبدأه بتقرير أن أهل العلم اختلفوا في حدوث الأجسام فيقول[٤]:

«الوجوه الممكنة فيه لا تزيد علىٰ أربعة:

فإنه إما أن يكون محدث الذات والصفات.

أو قديم الذات والصفات.

أو قديم الذات محدث الصفات.

أو بالعكس».

(١) المرجع السابق: ص ١٤٩.
(٢) المرجع السابق: ص١٦٤.
(٣) المرجع السابق: ص١٦٨.
(٤) المرجع السابق: ص١٧١ - ١٧٣.

ثم ينسب كل قول إلىٰ قائليه فيقول:

«أما الأول: فهو قول الجمهور من المسلمين والنصارىٰ واليهود والمجوس.

أما الثاني: فهو قول أرسطو طاليس وثافرسطس وثاومسطيوس وبرقلس ومن المتأخرين أبي نصر الفارابي وأبي علي ابن سينا، وعندهم أن السماوات قديمة بذاتها وصفاتها المعينة إلا الحركات والأوضاع، فإن كل واحد منها حادث ومسبوق آخر لا إلىٰ أول وأما العناصر والهيولي فهي قديمة بشخصها والجسمية قديمة بنوعها وسائر الصور قديمة بجنسها؛ أي: كانت قبل كل صورة صورة أخرىٰ لا إلىٰ بداية.

أما الثالث: فهو قول الفلاسفة الذين كانوا قبل أرسطو طاليس بالزمان كثاليس وانكاغورس وسقراط وقول جميع الثنوية كالمانوية والديصانية والمرقونية والماهانية، ثم هؤلاء فريقان».

ثم يتحدث الرازي عن تقسيم الأجسام فيقول[1]:

«الجسم إما أن يكون بسيطًا وهو الذي يشابه كل واحد من أجزائه كله في تمام الماهية وإما مركب وهو الذي لا يكون كذلك، أما البسيط فإما فلكي وإما عنصري».

ثم يفصل الحديث عن الجسم الفلكي والأجسام العنصرية والجواهر الروحانية.

---

(١) المرجع السابق: ص١٩٩- ٢٠٢.

ثم يتحدث في أحكام الموجودات عن الوحدة والكثرة فيطرح المسائل التالية فيقول[1]:

«كل موجودين فلا بد وأن يكونا متباينين بنفسيهما ثم المتكلمون أنكروا كون التعين أمرًا ثبوتيًا واحتجوا بأمور»، ويذكر ثلاثة منها.

ثم يتحدث تفصيلًا عن المثلين والغيرين:

«الغيران إما أن يكونا مثلين أو مختلفين:

والمختلفان إما أن يكونا ضدين وهما الوصفان والوجديان اللذان يمتنع اجتماعهما لذاتيهما كالسواد والبياض، وإما أن لا يكونا كذلك كالسواد والحركة، واختلف المتكلمون في الغيرين فالمعتزلة قالوا الشيئان وأصحابها قالوا هما اللذان يمكن أن يفارق أحدهما الآخر إما بمكان أو زمان أو وجود وعدم والخلاف لفظي محض، أما المثلان فحدوهما بأنهما اللذان يشتركان في الصفات الذاتية أو أنهما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر أو يسد مسده وهذه العبارات مختلفة؛ لأن الاشتراك مرادف للتماثل، والقيام مقام الآخر لفظة ومستعارة وحقيقتها التماثل فيكون ذلك تعريفًا للشيء بنفسه، والحلق أن هذه الماهيات متصورة تصورًا أوليًا؛ لأن كل واحد يعلم بالضرورة أن السواد يماثل السواد ويخالف البياض، وتصور المماصلة والمخالفة جزء ماهية هذا البديهي أولىٰ أن يكون بديهيًا.

يستحيل الجمع بين المثلين عندنا وعند الفلاسفة خلافًا للمعتزلة».

(١) المرجع السابق: ص ٢٠٥-٢٠٨.

ثم يتحدث عن العلة والمعلول فيقول[1]:

«كون الشيء مؤثرًا في غيره متصور تصورًا بديهيًا لأنا ببداهة العقول نعلم معنىٰ قولنا قطعت اللحم وكسرت القلم والتقطيع والتكسير تأثير مخصوص، فلما كان تصور التأثير المخصوص بديهيًا كان تصور مسمىٰ التأثير الذي هو جزء ماهية التأثير المخصوص أولىٰ أن يكون بهديهيًا».

ثم يفصل ذلك فيقول: «العدم لا يعلل ولا يعلل به: لأنا إن جعلنا والمعلولية وصفين ثبوتيين استحال كون المعدوم علة ومعلولًا لاستحالة قيام الموجود بالمعدوم، وإن لم نقل به كان التأثير عبارة عن حصول الأثر عن المؤثر وذلك يستدعي أصل الحصول».

❁ ❁ ❁ ❁

نلحظ الركن الثاني مليئًا بالمصطلحات الفلسفية التي مر بعضها معنا سابقًا نتيجة لتداخل مذهب الذرة والمنطق، وجاء بعضها جديدًا من مثل واجب الوجود لذاته، ممكن الوجود لذاته، ممكن الوجود، الهيولي، الصورة إلخ... نتيجة لتداخل مفردات ومصطلحات الفلسفة، وقد زادت هذه المصطلحات غربة الكتب العقائدية عن البيئة الإسلامية من جهة، وزادتها تعقيدًا وصعوبة وربطًا لها

(١) المرجع السابق: ص ٢٠٩- ٢١٢.

بالبيئة الفلسفية من جهة ثانية.

والواضح أن كلام الرازي عن الكون والجسم والزمان والمكان إلخ... ليس له أي دور في البناء النفسي للمسلم مع أن الكلام عن الكون والجسم والمكان في مصارد الوحي الإلهي كان له دور كبير في البناء النفسي للمسلم في كل الأحوال.

۞ ۞ ۞ ۞

الركن الثالث:

يخصص الرازي هذا الركن للإلهيات، الذات والصفات والأفعال والأسماء.

ويتحدث عن الذات الإلهية، ويذكر أن هناك أربعة أدلة علىٰ وجود الصانع سبحانه وتعالىٰ يعددها فيقول[1]:

«قد عرفت أن العالم إما جواهر أو أعراض، وقد يستدل بكل واحد منهما علىٰ وجود الصانع إما بإمكانه أو بحدوثه فهذه وجوه أربعة:

الأول: الاستدلال بحدوث الأجسام وهي طريقة الخليل عليه السلام في قوله: ﴿لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ﴾.

الثاني: الاستدلال بالإمكان وتقريره أن يقيم الدلالة علىٰ أن واجب الوجود

---

(١) المرجع السابق: ص ٢١٣- ٢١٦.

يستحيل أن يكون أكثر من واحد، ثم يشاهد الأجسام كثرة ممكنة وكل ممكن فله مؤثر علىٰ ما مر.

الثالث: حدوث الأعراض مثل ما نشاهد من انقلاب النطفة علقة ثم مضغة ثم لحمًا ودمًا فلابد من مؤثر، وليس هو المؤثر هو الإنسان ولا أبواه ولابد من شيء آخر.

لا يقال: لم لا يجوز أن يكون المؤثر هو القوة المولدة المركوزة في النطفة.

الرابع: إمكان الإعراض وتقريره أن نقول: الأجسام متساوية في الجسمية فاختصاص كل واحد منها بما له من الصفات يكون جائزًا؛ لأن كل ما صح علىٰ الشيء صح علىٰ مثله والإمكان محوج إلىٰ المؤثر علىٰ ما تقدم».

ثم يذكر دليل واجب الوجود علىٰ الله ويفصل ذلك فيقول[1]:

«أما بطلان الدور فلأن الشيء إذا احتاج إلىٰ غيره كان المحتاج إليه متقدمًا في الوجود علىٰ المحتاج، فلو افتقر كل واحد منهما إلىٰ الآخر لكان كل واحد منهما متقدمًا في الوجود علىٰ الآخر فيلزم علىٰ الآخر أن يوكل واحد منهما متقدمًا علىٰ الآخر المتقدم علىٰ نفسه، ومتقدم المتقدم متقدم، فالشيء متقدم علىٰ نفسه هذا خلف، وأما بطلان التسلسل فلأن مجموع تلك الأمور التي لا نهاية لها مفتقر إلىٰ كل واحد منها ممكن والمفتقر إلىٰ الممكن ممكن، فالمجموع ممكن وكل ممكن فله مؤثر فالمجموع له مؤثر والمؤثر إما نفس ذلك المجموع أو أمر داخل فيه أو أمر

---

(١) المرجع السابق: ص٢١٦-٢٢٠.

خارج عنه، والأول باطل؛ لأن المؤثر متقدم علىٰ الأثر فلو كان المجموع مؤثرًا في نفسه يلزم كونه متقدمًا علىٰ نفسه وهو محال، والثاني باطل؛ لأن كل واحد من آحاد ذلك المجموع فإنه لا يكون علة لنفسه ولا لعلته لم يكن علة لذلك المجموع، فثبت أنه لابد لذلك المجموع من علة خارجة عنه والخارج عن جميع الممكنات لا يكون ممكنًا بل يكون واجبًا، فثبت وجوب انتهاء الممكنات بأسرها إلىٰ الواجب ومتىٰ ثبت كونه واجبًا لذاته ثبت أنه أزلي قديم باق أبدي».

إن القضية الأولىٰ التي أثارها الرازي في ركن الإلهيات هي وجود الله تعالىٰ، ويمكن ملاحظة الأمور التالية علىٰ ما دونه حول هذه القضية:

١- حشد الرازي كل الأدلة التي وردت عند سابقيه بدءًا من الأشعري ومرورًا بالباقلاني وانتهاءً بالغزالي، وقد اعتمد دليل الحدوث، كما استفاد من مفردات مذهب الذرة، ومن الأقيسة المنطقية.

٢- أبرز دليل واجب الوجود وفصل في ذلك وهو الدليل الجديد الذي جاء به إثباتًا لوجود الله.

٣- سار الرازي في الاتجاه الخاطئ نفسه الذي سار فيه السابقون وهو اعتباره قضية وجود الله قضية تحتاج إلىٰ إثبات مخالفًا تقرير الإسلام أنها قضية فطرية، حيث ينشأ الإنسان علىٰ معرفة بربه -تعالىٰ- وموافقًا الاتجاه الفلسفي الذي يعتبر أنها قضية مجهولة لابد من إثباتها.

٤- إن تفحص الأدلة التي عرضها الرازي في قضية وجود الله يبين أنها خالية

من أي دور في بناء نفسي للمسلم، وهذا مخالف للمنهج الإسلامي الذي رأيناه في حديثنا عن العقيدة والذي يتبين فيه أن أي حديث عن الله – تعالىٰ– يكون له دور في البناء النفسي للمسلم.

❁ ❁ ❁ ❁

ثم يتحدث في القسم الثاني من الركن الثالث عن صفات الله السلبية[1]، فيذكر أن الله –تعالىٰ– لا يتحد بغيره ولا يحل في غيره، وليس في شيء من الجهات، ولا يجوز قيام الحدوث بذات الله تعالىٰ، والاتفاق علىٰ استحالة الألم عليه، والاتفاق علىٰ أنه تعالىٰ ليس موصوفًا بالألوان والطعوم والروائح.

ثم يتحدث عن الصفات الثبوتية[2]، فيذكر اتفاق العقلاء علىٰ أنه تعالىٰ قادر، وعلىٰ أنه عالم، وعلىٰ أنه تعالىٰ حي، وأنه تعالىٰ مريد وسميع وبصير ومتكلم وعالم بكل المعلومات وقادر علىٰ كل المقدورات.

ثم ينتقل الرازي إلىٰ تقرير أنه تعالىٰ بعلم قادر بقدرة حي بحياة خلافًا للفلاسفة والمعتزلة.

ثم يتحدث عن مشكلتين قد أثيرتا من قبل وقد تعرض لهما كل المؤلفين في

(١) المرجع السابق: ص٢٢٣ وما بعدها.

(٢) المرجع السابق: ص ٢٣٣ وما بعدها.

كتب العقيدة وهما:

مشكلة كلام الله –تعالىٰ– ومشكلة رؤية الله تعالىٰ.

❁ ❁ ❁ ❁

إذن نلاحظ أن حديث الرازي عن صفات الله –تعالىٰ– بنوعيها السلبي والثبوتي حديث عادي في مضمونه مقارب لما سبقه من الكتابات، وتغلب عليه المصطلحات التي استعملها سابقوه من مؤلفي الأشعرية إلا أنه ينح إلىٰ المصطلحات الفلسفية في بعض الأحيان وإلىٰ مناقشة بعض القضايا الفسلفية في ثنايا عرضه للصفات، إضافة إلىٰ أن كلامه لا دور له في البناء النفسي للمسلم، مع أن الكلام عن صفات الله تعالىٰ في مصادر الوحي الإسلامي له دور أساسي في البناء النفسي للمسلم كما لاحظنا في دراستنا للعقيدة.

❁ ❁ ❁ ❁

ثم يتحدث الرازي في القسم الثالث من الركن الثالث عن أفعال[1] الله – تعالىٰ– فينقل قول الأشعري أنه لا تأثير لقدرة العبد في مقدوره، كما ينقل أنه –

(١) المرجع السابق: ص ٢٨٠ – ٢٩٨.

تعالىٰ- مريد بجميع الكائنات، ثم ينقل قول الفلاسفة أنه تعالىٰ واحد محض لا يصدر عنه إلا الواحد، وقولهم: الموجود إما خير محض كالعقول والأفلاك، أو الخير غالب فيه كما في هذا العالم.

قم يحدد المراد بالحسن والقبح، ثم يقرر أنه لا يجب علىٰ الله -تعالىٰ- شيء، وأنه لا يجوز أن يفعل شيئًا لغرض.

ثم يخصص القسم الرابع من الركن الثالث للكلام في أسماء الله تعالىٰ.



ويمكن تدوين الملاحظات التالية علىٰ قضية الصفات التي أوردها الرازي:

١- جاء كلام الرازي عن صفات الله الثبوتية مثل: الله عالم حي قدير إلخ... مشابهًا لكلام السابقين من حيث الحرص علىٰ إثباتها من جهة، وتبيين المشاكل التاريخية التي علقت ببعضها مثل: رؤية الله في اليوم الآخر بالأبصار مثل: أن الصفات ليست عين الذات ولا غيرها من جهة ثالثة.

٢- إن اعتبار الرازي أن الصفات الثبوتية قضية تحتاج إلىٰ إثبات وإلىٰ حشد الأدلة توجه مخالف للنهج القرآني الذي اعتبرها قضية فطرية في أصلها، وعندما تحدث عنها القرآن الكريم قصد أن يكون لها دور في البناء النفسي للمسلم، وقد رأينا مصداق ذلك في دراستنا للعقيدة من القرآن والسنة.

٣- جاء كلام الرازي المفصل عن الصفات السلبية متساوقًا مع التوجيهات الفلسفية التي تفصل في صفات الله السلبية.

٤- جاء كلام الرازي عن أفعال الله تعالىٰ من خلال المشاكل الفلسفية المثارة حول الموضوع مثل: لا تأثير لقدرة العبد في مقدوره إلخ....

٥- لم يكن للصفات الثبوتية أو السلبية أو أفعال الله التي عرضها الرازي أي دور في البناء النفسي للمسلم.

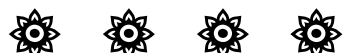
❁ ❁ ❁ ❁

الركن الرابع:

ثم يتحدث الرازي في الركن الرابع الذي جعله تحت عنوان السمعيات، فيذكر تعريف المعجز ثم يقرر أن محمدًا رسول الله خلافًا لليهود والنصاري والمجوس وجماعة من الدهرية، ثم يتحدث عن عصمة الأنبياء وعن جواز الكرامات، ثم يتحدث في القسم الثاني عن المعاد ويطرح آراء بعض الفلاسفة مثل أرسطو وأفلاطون فينقل عن أرسطو رأيه في أن النفوس البشرية متحدة بالنوع وأنها حادثة علىٰ رأية خلافًا لأفلاطون، ويذكر اتفاق الفلافة علىٰ امتناع عدم الارواح ثم يذكر أحكامًا أخرىٰ متعلقة بالنفس ومعادها.

ثم يتحدث في القسم الثالث من الركن الرابع عن الإيمان وتعريفه في اللغة والشرع، وعن القول في صاحب الكبيرة وأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص وعن معنىٰ الكفر.

ثم يتحدث في القسم الرابع عن الإمامة وعن أجناس الشيعة وغيرهم.



مقارنة دور العقيدة عند الرازي في البناء النفسي للمسلم

بـ «العقيدة من القرآن والسنة»

١- جعل الرازي كتابه كما لاحظنا أربعة أركان، جعل الركنين الأولين في المقدمات والموجودات.

وإذا تفحصنا الأول وجدناه قد جمع فيه خليطًا من علم المنطق وعلم الكلام.

وإذا تفحصنا الثاني وجدناه قد جمع فيه حشدًا من الفلسفة والمنطق، ولا يساهم الركنان في أي إغناء للبناء النفسي عند المسلم.

٢- خصص الرازي الركن الثالث من كتابه للإلهيات التي تشمل الذات والصفات والأفعال والأسماء، وقد ناقشنا كلامه عند استعراضنا لهذا الركن وتوصلنا إلىٰ أنه لا يساهم في أي إنماء للبناء النفسي عند المسلم.

٣- اقتصر حديث الرازي عن الرسل في إثبات نبوة محمد ﷺ وفي الحديث عن عصمة الأنبياء وفي تعريف المعجزة، ولم يساهم الحديث بهذه الصورة في إغناء البناء النفسي للمسلم بالصورة المناسبة.

٤- ردّ الرازي في حديثه عن اليوم الآخر علىٰ آراء بعض الفلاسفة وكان كلامه محدودًا فيه ولا يقدم أي إغناء للبناء النفسي للمسلم بالصورة التي يفترض أن يقدمها ذلك الحديث.

٥- لم يرد أي حديث عن الملائكة ولا عن الكتب ولا عن القضاء والقدر في ثنايا كتاب الرازي مما جعل البناء النفسي للمسلم يخسر عناصر متعددة من عناصر بنائه.

٦- لم يرد أي حديث عن المشاكل التي اعتبرها القرآن مشاكل تواجه الإنسان وهي:

أ- الشرك.

ب-التوسيط.

جـ- الحلول والاتحاد ووحدة الوجود.

مما جعلها تستفحل في المجتمع كما هو من دراسة خطها البياني الصاعد، فقد زادت رقعة الطرق الصوفية في المجتمع الإسلامي، وزادت البدع، ولم يحدث أي رصد لها في هذا الكتاب، لذلك لم يكن له أي دور في مواجهتها، والتقليل من أخطارها.

الخلاصة التي يمكن أن نتنهي إليها من خلال مقارنة ما دونه الرازي في كتاب «المحصل»، أن هذا الكتاب يكوّن مرحلة جديدة في تداخل مؤثرات جديدة هي الفلسفة في البنية الثقافية الإسلامية، وقد جاءت نتيجتها مزيدًا من الخسارة في البناء المعنوي للمسلم حتىٰ وصل الأمر إلىٰ حد انعدام أي دور للعقيدة في البناء النفسي للمسلم.

۞ ۞ ۞ ۞

والآن بعد أن رأينا أن البناء الثقافي الإسلامي تداخل مع مذهب الذرة أولًا، ثم مع المنطق ثانيًا، ثم مع الفلسفة ثالثًا، وبعد أن رصدنا أثر هذا التداخل في مجال البناء النفسي للمسلم من خلال كتب العقائد، وكانت الحصيلة انحسارًا للجانب المعنوي في المرحلة الأولىٰ مع مذهب الذرة، وفقرًا في المرحلة الثانية مع المنطق، وانعدامًا في المرحلة الثالثة مع الفلسفة، ننتقل الآن لنرصد أثر التداخل في مراحله الثلاث في فرع آخر من فروع البناء الثقافي الإسلامي وهو الفقه، وحتىٰ نرصد التداخل ونتائجه علىٰ البناء النفسي للمسلم، سنرىٰ الفقه في نشأته علىٰ يد أبي حنيفة ومالك بن أنس، ثم استكمال بنائه علىٰ يد الشافعي وأحمد بن حنبل وأثر هذا الاستكمال في البناء النفسي للمسلم، ثم سنبين معالم تداخل مذهب الذرة والمنطق والفلسفة مع البناء الفقهي، ثم سنرصد آثار ذلك التداخل علىٰ البناء النفسي للمسلم.

إذن لنر الفقه في نشأته وتطوره وآثاره في البناء النفسي للمسلم.

❁ ❁ ❁ ❁

فتح المسلمون بلدانًا كثيرة في المشرق والمغرب، ودانت لهم شعوب وأعراق مختلفة، وبرزت مشاكل متعددة في مختلف المجالات الاقتصادية، والاجتماعية والعمرانية، والإدارية إلخ......

برز الفقه الإسلامي معطيًا أجوبة شرعية، وحلولًا لهذه المشاكل الطارئة، وقد ظهرت القضايا التي تحتاج حلولًا منذ اللحظة الأولىٰ لوفاة الرسول ﷺ فقد ارتد قسم كبير من الجزيرة العربية؛ لأنهم رفضوا دفع فريضة الزكاة وتباينت وجهات النظر في كيفية مواجهة المرتدين: هل نقاتلهم أم ندعهم؛ لأنهم قالوا: لا إله إلا الله محمد رسول الله؟ واستشهد كثير من حفاظ القرآن في حروب الردة وتعددت الآراء في جمع القرآن: هل نجمعه من حفاظه حفاظًا عليه من الضياع؟ أم نتركه متفرقًا في أماكن مختلفة كما تركه الرسول ﷺ؟.

فتح المسلمون أرض العراق فتدارس الخليفة مع أهل الرأي والمشورة: هل نوزع السواد علىٰ المسلمين أم نبقيه في أيدي أهله ونأخذ منهم الخراج، حفاظًا علىٰ جيش المسلمين من أن ينشغل به؟؟ وهكذا برزت مشاكل لا حصر علىٰ مستوىٰ الدولة والفرد والأسرة والعبادة إلخ.......

وكان لا بد من جواب علىٰ كل ما هو مطروح، وقد بدأ نشاط المجتمع

الإسلامي الفائق حين استطاع أن يحل هذه المشاكل ويعطي الأجوبة المناسبة.

كما ظهرت حيوية الشرع الإسلامي عندما استطاع أن يستوعب المشاكل الجديدة ويعطي الافتاءات المناسبة لها.

كما تبينت فاعلية العقلية الإسلامية عندما ابتكرت العلوم والقواعد التي تقنن عملية استصدرا الأحكام.

لذلك نما الفقه نموًا كبيرًا، فحبرت فيه ملايين الصفحات، ووضعت المتون في مختلف القضايا الشرعية، وهكذا دواليت حتىٰ أصبحت حضارتنا موصوفة بأنها حضارة فقه.

وقد تعدّدت المذاهب، ولم يخل عصر من فقهاء مبدعين، وقد تنازع الفقه مدرستان: الرأي والحديث، وقد نقل ذلك الشهرستاني فقال[1]:

«ثم المجتهدون من أئمة الأمة محصورون في صنفين، لا يتعدون إلىٰ ثالث: أصحاب الحديث وأصحاب الرأي.

وإنما سموا أصحاب الحديث؛ لأن عنايتهم لتحصيل الأحاديث ونقل الأخبار وبناء الأحكام علىٰ النصوص ولا يرجعون إلىٰ القياس الجلي والخفي ما وجدوا خبرًا أو أثرًا....

وإنما سموا أصحاب الرأي؛ لأن أكثر عنايتهم لتحصيل القياس، والمعنىٰ المستنبط من الأحكام، وبناء الحوادث عليها، وربما يقدمون القياس الجلي علىٰ

(١) الشهرستاني. الملل والنحل. (ج٢، ص١١-١٢).

آجار الأخبار».

ونحن سنتعرف معالم المدرستين:

الأولىٰ: أصحاب الرأي من خلال علمين هما:

أبو حنيفة ومالك رحمهما الله.

الثانية: أصحاب الحديث من خلال علمين هما:

الشافعي وأحمد بن حنبل رحمهما الله.

❁ ❁ ❁ ❁

ولد أبو حنيفة النعمان بن ثابت بالكوفة سنة ٨٠ من الهجرة وتوفىٰ علىٰ الأرجح سنة ١٥٠ من الهجرة، وهو فارسي النسب، وقد كان جده من «كابل» أسر عند فتح المسلمين البلاد، وقد دعا علي بن أبي طالب رضي الله عنه عندما رأىٰ «ثابت» بالبركة فيه وفي ذريته.

نشأ أبو حنيفة في الكوفة في بيت إسلامي، وقد كانت أسرته من أهل اليسار تحترف التجارة، وقد توجه إلىٰ حفظ القرآن الكريم، ثم ألم بعلوم عصره، وتثقف بكل الثقافة الإسلامية الموجودة آنذاك، ثم اتجه إلىٰ الفقه فلزم حماد بن أبي سلمان ثماني عشرة سنة إلىٰ أن مات، وتخرج عليه، ثم استقل بالبحث والدرس، وتولىٰ حلقته بعذ ذلك وعمره أربعون سنة.

وقد عرض عليه العمل في القضاء مع الأمويين والعباسيين لكنه رفض ذلك.

تلقىٰ أبو حنيفة العلم عن شيوخ عصره ويوضح ذلك في حوار مع أبي جعفر المنصور ورد في تاريخ بغداد فجاء فيه:

«دخل أبو حنيفة يومًا علىٰ المنصور، وعنده عيسىٰ بن موسىٰ، فقال للمنصور: هذا عالم الدين اليوم، فقال له: يا نعمان، عمن أخذت العلم؟ قال: عن

أصحاب عمر عن عمر، وعن أصحاب علي وعن أصحاب عبد الله (أي ابن مسعود)، وما كان في وقت ابن عباس أعلم منه، قال: لقد استوثقت لنفسك».

وقد تلقىٰ أبوحنيفة فقه النخغي وفقه الشعبي وهذان قد أخذا عن شريح وعلقمة بن قيس، ومسروق بن الأجدع وأولئك تلقوا فقه الصحابيين عبد الله ابن مسعود وعلي بن أبي طالب، وهما عماد الفقه الكوفي، وقد تلقىٰ حماد فقه إبراهيم، وهو فقه الشعبي، لكنه يظهر أنه كان الغالب عليه فقه إبراهيم وهو فقه أهل الرأي؛ لأن الشعبي كان أقرب إلىٰ فقهاء الأثر منه إلىٰ فقهاء الرأي.

وقد نقل تلاميذه فقهه ومن أبرزهم: أبي يوسف الذي وصلنا من كتبه: الخراج والآثار واختلاف أبي حنيفة وابن أبي ليلىٰ والرد علىٰ سير الأوزاعي.

ثم جاء من بعده محمد بن الحسن الشيباني الذي دون الفقه الحنفي، وكتبه بعد المرجع الأول لفقه أبي حنيفة وأبرز كتبه: المبسوط، الزيادات والجامع الصغير، والسير الصغير، والسير الكبير، وتسمىٰ الأصول وسميت بظاهر الرواية؛ لأنها رويت عن رواية الثقات، فهي ثابتة عنه ويلحق بهذا القسم: كتاب الآثار وقد جمع فيه الآثار التي يحتج بها الحنفية، وكتاب الرد علىٰ أهل المدينة، وقد رواه عنه الشافعي في الأم وتعقبه بالرد والانتصاف لأهل المدينة في كثير من مواضعه.

وقد نسب إلىٰ أبي حنيفة قوله إن القرآن هو المعنىٰ[1]، واستدلوا علىٰ شيء

---

(١) الشهرستاني. الملل والنحل. ج٢، (ص١١- ١٢).

من ذلك بأن قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة تجزئ، ولكن شيئًا من ذلك لم يثبت قوله عن أبي حنيفة، وقد قال صاحباه أبو يوسف ومحمد بن الحسن أنه لا تقبل القراءة بغير العربية إلا في حالة العجز عن العربية.

ويستفاد من كلام الفقهاء الذين بينوا الأصول في المذهب الحنفي أن بيان السنة للقرآن ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

القسم الأول: بيان التقرير، وهو أن يجيء البيان من السنة مبينًا لمعنىٰ الآية.

القسم الثاني: بيان التفسير، وهو بيان ما فيه خفاء كالمجمل في القرآن والمشترك فيه.

القسم الثالث: بيان التبديل وهو النسخ.

ونحن من أجل معرفة صورة أبي حنيفة الفقهية لا بد من أن ندرس مصادر الفقه عن أبي حنيفة.

مصادر الفقه عند أبي حنيفة:

وقد وضح أبو حنيفة مصادر فقهه، وحدد منهجه في الإفتاء، فقال[1]: «آخذ بكتاب الله فما لم أجد فبسنة رسول الله ﷺ، فإن لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله، أخذت بقول أصحابه، آخذ بقول من شئت منهم وأدع من شئت منهم، ولا أخرج عن قولهم إلىٰ قول غيرهم، فإذا ما انتهىٰ الأمر وجاء إلىٰ إبراهيم والسعبي وابن سيرين والحسن وعطاء وسعيد بن المسيب وعد رجالًا آخرين

(١) السرخسي. في المبسوط. ١/ ٧٢.

فقوم اجتهدوا فأجتهد كما اجتهدوا».

ويمكن أن نجمل مصادر فقه أبي حنيفة بالمصادر التالية: الكتاب، والسنة، فتوىٰ الصحابي، الإجماع، القياس، الاستحسان، العرف.

١- **القرآن الكريم**: هو كتاب الله الذي أنزله جبريل علىٰ محمد ﷺ وهو المصدر الأول لاستصدار الأحكام عند أبي حنيفة.

٢- **السنة الشريفة**: هي ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قول أو فعل، وتأتي في المرتبة الثانية، ويقدم أبو حنيفة السنة القولية علىٰ الفعلية، وقد اتهم أبو حنيفة بتقديم القياس علىٰ السنة.

ويرد علىٰ ذلك[1]: «إنا نأخذ أولًا بكتاب الله، ثم السنة ثم بأقضية الصحابة، ونعمل بما يتفقون، فإن اختلفوا حكمنا علىٰ حكم بجامع العلة بين المسألتين حتىٰ يتضح المعنىٰ». ويروىٰ أن أبا جعفر المنصور كتب إليه: «بلغني أنك تقدم القياس علىٰ الحديث»، فرد عليه أبو حنيفة برسالة جاء فيها[2]: «ليس الأمر كما بلغك يا أمير المؤمنين انما أعمل أولا بكتاب الله، ثم بسنة رسول الله ﷺ، ثم بأقضية أبي بكر وعمر وعثمان وعلي رضي الله عنهم، ثم أقيس بعد ذلك إذا اختلفوا، وليس بين الله وبين خلقه قرابة».

والأحاديث عند أبي حنيفة مقسومة حسب رواتها إلىٰ أحاديث متواترة،

(١) تاريخ بغداد، ج١٣،ص ٣٦٨.

(٢) الشعراني. الميزان. ج١، (ص،١٥).

وأحاديث مشهورة وأحاديث آحاد.

والأحاديث المتواترة[1] توجب العلم اليقيني وهي حجة عند أبي حنيفة، ولم يعرف عنه أنه أنكر خبرًا علىٰ تواتره، أما الأحاديث المشهورة[2] فقد أجمع علماء التخريج علىٰ مذهب أبي حنيفة علىٰ أن الحديث المشهور يزاد به علىٰ كتاب الله تعالىٰ.

أما أحاديث الآحاد فقد اشتراط أبو حنيفة عدة شروط للعمل بها منها: عرضها علىٰ الأصول المجتمعة عنده، وعرضها علىٰ عمومات الكتاب وظواهره، وعلىٰ أن لا تخالف السنة المشهورة، وأن لا تعارض أخبارًا مثلها وعند التعارض يرجح أحد الخبرين علىٰ الآخر لوجوه منها: كون أحد الراويين فقيهًا بخلاف الآخر. ومن أصوله أن لا يعمل الراوي بخلاف خبره، ومن أصوله عدم الأخذ بخبر الآحاد فيما تعم به البلوىٰ، ومن أصوله أن لا يترك أحد المخالفين في الحكم من الصحابة الاحتجاج بالخبر الذي رواه أحدهم، ومن أصوله في خبر الآحاد: أن لا يسبق طعن من السلف عليه.

٣- فتوىٰ الصحابة:

أقر أبو حنيفة في مصادر عدة أنه يأخذ بقول الصحابة إذا لم يجد حكمًا في القرآن والسنة، فهل كان يأخذ بقول الصحابي علىٰ الإطلاق كما كان يفعل أحمد

(١) الشعراني. الميزان.ج٢، (ص،٥٢).

(٢) محمد أبو زهرة. أبو حنيفة.(ص،٢٧٦).

بن حنبل؟ أم أن هناك قيودًا يأخذ بها؟

يوضح فخر الإسلام البزدوي ويجيبنا علىٰ السؤال السابق فيقرر أن تقليد الصحابي موضع خلاف فيقول: «قال أبو سعيد البردعي: تقليد الصحابي واجب يترك به القياس، وعلىٰ هذا أدركنا مشايخنا، وقال الكرخي: لا يجب تقليده إلا فيما لا يترك بالقياس»[1].

خلاصة القول أن ما يستخرج الكرخي من الفروع عن أبي حنيفة أن فتوىٰ الصحابي فيما للرأي فيه مجال لا يصح تقليده علىٰ رأي أبي حنيفة، وما لا مجال للرأي فيه يجب اعتبار قوله فيه؛ لأن مثل ذلك لا يكون إلا عن نقل، فاحترامه حينئذ من قبيل الأخذ بالسنة، إذ أن فتواه حينئذ تكون عن سماع النبي ﷺ لا محالة، فيجب التقليد علىٰ أنه حديث حجة، وينتهي التحليل إلىٰ القول أن أبا حنيفة لا يتقيد بقول الصحابي ما دام رأيًا.

٤- الإجماع:

الإجماع هو «اتفاق المجتهدين من الأمة الإسلامية في عصر علىٰ الحكم في أمر من الأمور».

والإجماع نوعان: قولي وسكوتي.

والإجماع القولي هو الإجماع علىٰ حكم من الأحكام قولًا واعلانًا، وأما الإعلان السكوتي فهو أن يذهب واحد من أهل الحل والعقد أو الاجتهاد في عصر

(١) البزدوي. الأصول. (ج٣،ص٢٩٧).

إلىٰ حكم قبل استقرار المذهب عن تلك المسألىٰ، وينشر ذلك في أهل عصره، وتمضي مدة التأويل ولم يظهر له مخالف.

وصورة أخرىٰ للإجماع السكوتي فيما يتصل بالأفعال، مثال ذلك أن يفعل واحد من أهل الإجماع فعلًا، ويعلم به أهل زمانه، ولا ينكره عليه أحد وتمضي مدة التأويل والتفسير[1].

ودليل الإجماع قول الرسول ﷺ: «**لا تجتمع أمتي علىٰ ضلالة**». وما روي موقوفًا علىٰ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن»[2].

فلا يدخل في الإجماع المنحرفون من أصحاب البدع والفساق، ولا أهل الأهواء كالخوارج.

٥- القياس:

القياس هو بيان حكم أمر غير منصوص علىٰ حكمه بأمر معلوم حكمه بالكتاب أو السنة أو الإجماع لاشتراكه معه في علة الحكم[3].

كان أبو حنيفة يكثر من القياس؛ لأنه تتلمذ علىٰ فقيه رأي وهو إبراهيم النّخعي، ولأن بيئة العراق يقل فيها الحديث الشريف، وكان العلماء يفضلون

(١) أبو زهرة. أبو حنيفة. (ص،٣١٧).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده.

(٣) أبو زهرة. أبو حنيفة. (ص،٣٣٠) وما بعدها.

الرأي والاجتهاد علىٰ أن يخطئوا في النقل عن الرسول ﷺ، أو يكذبوا عليه ﷺ، بالإضافة إلىٰ استنباطهم الحكم قبل وقوع الحادثة حيث قال أبو حنيفة اننا نستبعد للبلاء قبل نزوله.

٦- الاستحسان:

كان أبو حنيفة يأخذ بالاستحسان ويكثر منه[1]، ودليل الاستحسان قوله تعالىٰ:

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾[2].

وقوله ﷺ: «خير دينكم اليسر»[3].

وتعريف الاستحسان هو ترك القياس والأخذ بما هو أوفق للناس. وقيل: الاستحسان طلب السهولة في الأحكام فيما يبتلىٰ فيه الخاص والعام، وقيل: الأخذ بالسعة وابتغاء الدعة.

ومن التعريفات الدقيقة للاستحسان ما قاله أبو الحسن الكرخي وهو: أن يعدل المجتهد عن أن يحكم في المسألة بمثل ما حكم في نظائرها لوجه أقوىٰ يقتضي العدول عن الأول.

٧- العرف:

---

(١) أبو زهرة. أبو حنيفة. (ص، ٣٤٨) وما بعدها.

(٢) (سورة البقرة، الآية ١٨٥).

(٣) .

العرف هو: «ما استقر من النفوس من جهة العقول، وتلقته الطباع السليمة بالقبول».

وقد جرىٰ أبو حنيفة علىٰ الأخذ بالقياس ما لم يكن هناك نص، فإذا قبح القياس أخذ بالاستحسان، فإذا كان الاستحسان لا يلبي طبيعة الوصول إلىٰ الحكم السليم رجع إلىٰ ما يتعامل به المسلمون، وتعامل الناس في هذا الموضع هو العرف الجاري بينهم، استنادًا إلىٰ قول عبد الله بن مسعود عن العرف: «ما رآه المسلمون حسنًا فهو عند الله حسن»[1]، ويقول السرخسي شارح المبسوط: الثابت بالعرف كالثابت بالنص.

ولا بد لمن يتصدىٰ للحكم بالعرف من أن يكون عالمًا بالكتاب والسنة من ناحية، وعليمًا بأحوال الناس خبيرًا بمجتمعهم من ناحية أخرىٰ وذلك تلافيًا للإفتاء بأمر أقره العرف وحرمه النص.

لماذا صنف أبو حنيفة في مدرسة الرأي؟

وقد جاء تصنيف أبي حنيفة في مدرسة الرأي نتيجة عدة عوامل أبرزها:

الأول: موقفه من الاستحسان:

فقد كان يكثر من الأخذ به كمصدر من مصادر الفقه حتىٰ إن تلامذته ينقلون عنه أنه عندما كان يقول: «أستحسن» يسبق الجميع، في حين أن مدرسة الحديث كما سيتبين معنا كانت تعتبر الاستحسان «تلذذًا» كما قال الشافعي عنه.

---

(١) الموفق المكي. مناقب أبي حنيفة. (ج١، ص٨٢).

الثاني: موقفه من حديث الآحاد:

ويتضح ذلك من خلال الشروط التي وضعها للعمل به والتي أوردناها في حديثنا عن السنة، في حين أن مدرسة الحديث كانت تأخذ به في مجال العمل والاعتقاد.

الثالث: إكثاره من القياس:

لأنه تتلمذ علىٰ أعلامه في الكوفة وأبرزهم حماد الذي نقل فقه الرأي عن إبراهيم النخعي، مع أن مدرسة الحديث ربطت القياس بالنص، وأنه لا بد من أصل من أجل القياس عليه كما قنن الشافعي ذلك في كتاب «الرسالة».

الرابع: موقفه من قول الصحابي:

فقد كان لا يتقيد به مادام رأيًا، في حين أن مدرسة الحديث كانت تحرص علىٰ الأخذ بقول الصاحبي وتفضل قول الصحابي علىٰ اجتهادها، وتحرص علىٰ ألا تنتقل إلىٰ رأيها ما دام هناك قول صحابي.

العوامل التي جعلت أبا حنيفة يجنح إلىٰ مدرسة الرأي؟

هناك عدة عوامل جعلته يجنح إلىٰ مدرسة الرأي نابعة من بيئة عصره وأبرزها:

١-عدم جمع الأحاديث الشريفة حيث بدأ جمعها في عصره لكن الجمع استكمل في القرن الثالث الهجري.

٢-بُعد العراق موطن أبي حنيفة عن المصادر الحديثية، حيث كان ذلك

متوافرًا في البيئة الحجازية بشكل طبيعي.

٣- عدم تحديد الأصول الفقهية حيث تم ذلك بشكل أولي علىٰ يد الشافعي من بعده.

٤- عدم وضوح كيفية التعامل مع الفقه، وكان من أوائل الذين مارسوا هذا الأمر فكان لا بد من إعمال الرأي.

* * * *

مالك بن أنس

ولد مالك سنة ٩٣هـ وتوفي ١٧٩هـ. نشأ وترعرع في المدينة، ومن أبرز أعماله التي قام بها جمعه للموطأ وقد تتلمذ مالك علىٰ عدة شيوخ كان من أبرزهم ربيعة الرأي ويحيىٰ بن سعيد وهما فقيها رأي.

فقد نقل ابن لهيعة قاضي مصر أن مالك نفسه فقيه رأي، فقد جاء في أحد الأخبار: «قدم علينا أبو الأسود محمد بن عبد الرحيم بن نوفل يتيم عروة بن الزبير فقيل له: من للرأي بعد ربيعة بالمدينة فإن يحيىٰ بن سعيد في العراق؟ فقال: الغلام الأصبحي»[1].

وقد عدد ابن قتيبة فقهاء الرأي في كتاب المعارف[2] فذكر منهم مالكًا بالإضافة إلىٰ ابن أبي ليلىٰ، وأبي حنيفة، وربيعة الرأي وأبي يوسف القاضي، ومحمد بن الحسن.

ومما يؤكد صحة تصنيفه بأنه من أصحاب الرأي تحري مصادر الفقه عنده فقد ذكرت كتب المالكية أن مصادر الفقه عنده هي:

القرآن الكريم، والسنة، والإجماع، والقياس، والعرف، والمصالح المرسلة،

---

(١) ابن عبد البر، الانتقاء، (ص،٢٦). والزواوي، المناقب، (ص،١٢).

(٢) ابن قتيبية. المعارف. (ص٢١٦- ٢١٩).

والاستحسان، وسد الذرائع، وينفرد عن كل المذاهب باعتماد أهل المدينة كمصدر من مصادر الفقه.

ونحن سنتناول المصادر التي جعلته يصنف في أهل الرأي وهي: المصالح المرسلة والاستحسان، وسد الذرائع، وموقفه من حديث الآحاد، والقياس، وعمل أهل المدينة.

١- المصالح المرسلة والاستصلاح:

اعتمد المذهب المالكي كثيرًا علىٰ المصالح المرسلة والعرف والاستحسان الذي يخالف القياس وأكثر اعتماده علىٰ هذه الأسس الثلاثة فيما يرىٰ الشيخ أبو زهرة وليس أكثر اعتماده علىٰ القياس، بل كانت المصالح هي الغالبة سواء جاء في الشكل المناسب الذي يشهد له الدليل من الشارع، أم جاءت مصلحة مرسلة لا يشهد الشارع لها بالإلغاء ولا بغيره، وسواء أجاءت تلك المصلحة أصلا قائمًا بذاته لا يوجد ما يخالفه، أم جاءت مخالفة لأصل ثابت فسميت استحسانًا.

وقد كان مالك يعتبر الاستحسان تسعة أعشار العلم فقد نقل الشاطبي في الموافقات عن أصبغ أنه قال: سمعت أن القاسم يقول ويروي عن مالك أنه قال: «الاستحسان تسعة أعشار العلم».

٢- سد الذرائع:

اعتمد مالك كثيرًا علىٰ سد الذرائع، والذرائع[1] هي الوسائل.

(١) مصطفى الشكعة. الآئمة الأربعة. (ص،٤١٥).

وسد الذرائع يقصد به النظر إلىٰ ثمرات الأفعال ونتائج الأعمال، فإذا كانت الوسيلة تؤدي إلىٰ فعل الخير فهي مباحة وحلال، وإذا كانت تنتهي إلىٰ الشر والضرر فهي ممنوعة وحرام، وقد كان للفقه المالكي تطبيقات اتسمت بسعة الأفق، واستهدفت النفع العام بما يخدم مصالح الناس والتيسير عليهم.

٣- حديث الآحاد:

طرح مالك بن أنس العمل بكثير من أحاديث الآحاد.

فقد ذكر ابن حزم: في الموطأ نيف وسبعون حديثًا قد ترك مالك العمل بها، وقد نقل ابن العربي فقال: ومشهور قول مالك، والذي عليه المعول أن الحديث إن عضدته قاعدة أخرىٰ قال به، وإن كان وحده تركه، ثم ذكر مسألة مالك في ولوغ الكلب قال: ترك العمل بهذا الحديث؛ لأنه عارض أصلين: أحدهما: قوله تعالىٰ: ﴿فَكُلُواْ مِمَّآ أَمۡسَكۡنَ عَلَيۡكُمۡ﴾[1].

الثاني: أن علة الطهارة هي الحياة، وهي قائمة في الكلب.

وقال مالك: سمعت من ابن شهاب أحاديث كثيرة، ما حدثت بها قط، ولا أحدث بها، فقال الفروي: فقلت له: لم؟ قال: ليس العمل عليها.

وقال الداودي: قلت له -أي: لمالك- حدثني بحديث الملطَي[2]، قال: لا، قلت: سفيان يرويه عنك، قال: صدق، ولو كنت حدثت أحدًا لحدثتك، إن

(١) (سورة المائدة، الآية٤).

(٢) المطلى: القشرة الرقيقة بين عظم الرأس ولحمه، وفيها نصف دية الموضحة.

العمل ببلدنا ليس عليه.

وقال القايم بن مسرور لمالك أرايت يا أبا عبد الله أحاديث تحدثت بها ليس عليها رأيك لأي شيء أقررتها؟ فقال: لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما فعلت، ولكنها انتشرت عند الناس فإن سألني عنها أحد، ولم أحدث بها، وهي عند غيري، اتخذني غرضًا، وروىٰ البياضي عنه أنه قال: لقد ندمت ألا أكون طرحت أكثر مما طرحت من الحديث[1].

إذن نلحظ من أقوال مالك السابقة طرحه لكثير من أحاديث الآحاد؛ لأنها خالفت العمل في المدينة، وإظهاره الحرج في روايتها وتمنيه ألا يكون رواها.

٤- تقديم القياس علىٰ حديث الآحاد:

قدم مالك القياس علىٰ حديث الآحاد وإن كان مسندًا صحيحًا، يقول ابن رشد المالكي في المقدمات: «وحجة تقديم القياس -أي علىٰ حديث الآحاد- أنه موافق للقواعد من جهة تضمنه لتحصيل المصالح، أو درء المفاسد، والخبر المخالف -أي للمصالح يمنع ذلك -فيقدم الموافق للقواعد- من قياس وغيره - علىٰ المخالف لها»[2].

٥- الإجماع[3]:

---

(١) عبد الغني الدقر. مالك بن أنس. (ص١٦٠- ١٦١) .

(٢) عبد الغني الدقر. مالك بن أنس. (ص١٦١).

(٣) عبد الغني الدقر. مالك بن أنس. (ص١٧١).

أخذ مالك بالإجماع لكن فهمه للإجماع مخالف للآخرين، فقد نقل الغزالي في المستصفىٰ: قال مالك: الحجة في إجماع أهل المدينة فقط.

وقد تردد ذكر الإجماع عن مالك كثيرًا، ويقدم في صدر كل مسألة يحتج فيها بالإجماع قوله: «الأمر الذي لا اختلاف فيه عندنا».

وقد رد الشافعي ردودًا قوية علىٰ إجماع أهل المدينة في كتاب «اختلاف مالك»، وفي «الأم» وبين أن مالك خالف في اعتماده إجماع أهل المدينة كثيرًا من الأحاديث الصحيحة التي أقرها مالك نفسه.

وقد بين الشافعي أن إجماع أهل المدينة لا يعني عدم وجود مخالف بل يعني إجماع الفقهاء السبعة.

٦- القياس:

وما يدل علىٰ رسوخ الرأي في مذهب مالك توسعه في القياس فهو لا يقيس علىٰ الأحكام المنصوص عليها وحسب، حتىٰ يكون حملًا علىٰ النص مباشرة، بل يقيس علىٰ المقيس، فإذا استنبط فرعًا من أصل بالقياس فقد صلح هذا الفرع أن يكون أصلًا يمكن أن نقيس عليه[١].

❁ ❁ ❁ ❁

(١) عبد الغني الدقر. مالك بن أنس. (ص١٨٧).

والآن بعد أن استعرضنا مدرسة الرأي ممثلة في أبي حنيفة ومالك، رأينا أنها لا تأخذ بحديث الآحاد وبفتوىٰ الصحابي إلا بشروط معينة، كما انها تكثر من الأخذ بالقياس وبالاستحسان الذي يعتبر نوعًا من إعمال الرأي، وكل هذه الأمور تمثل من وجهة نظر دراستنا التي تقوم علىٰ رصد الجانب النفسي؛ لأن عدم الأخذ بحديث الآحاد يعني حجبًا لبعض سنة الرسول ﷺ عند المسلم، وسيؤدي ذلك إلىٰ تقليل حجم الاقتداء بالرسول ﷺ وسينجم عن ذلك الافتقار في البناء النفسي للمسلم، كما أن عدم الأخذ بفتوىٰ الصحابىٰ سيبعد المسلم عن جيل الصحابة الذين هم خير رهط عرفتهم البشرية، وسيبعده بالتالي عن خير كثير في مجال البناء النفسي والاقتداء، وسيؤدي كذلك به إلىٰ الافتقار في المجال النفسي.

هذا ما قامت عليه مدرسة الرأي؟ فهل ترسخت هذه القواعد أم أن تعديلًا طرأ علىٰ مسارها؟

الحقيقة أن تعديلًا طرأ علىٰ المسار الفقهي العام علىٰ يد الشافعي؟ فما هو هذا التعديل؟ وما هي أبعاده؟

❁ ❁ ❁ ❁

الشافعي

حياته:

الشافعي هو محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب ابن بخيت بن عبد يزيد بن هاشم بن عبد المطلب بن عبد مناف ولد في غزة بالشام، علىٰ ذلك اتفق الجمهرة الكبرىٰ من مؤرخي الفقهاء، واتفقت الروايات علىٰ أنه ولد عام ١٥٠هـ، والواضح من سلسلة نسبه أنه ولد من أب قرشي مطلبي، أما أمه فهي من الأزد وليست قرشية.

نشأ الشافعي في أسرة فقيرة كانت تعيش في فلسطين، وتذكر الروايات أن الشافعي نشأ يتيمًا، وأن أمه انتقلت به إلىٰ مكة وعمره سنتان خشية أن يضيع نسبه الشريف.

ظهر الذكاء علىٰ الشافعي منذ صغره، فاتجه إلىٰ حفظ القرآن الكريم، ثم اتجه إلىٰ استحفاظ أحاديث الرسول ﷺ ثم اتجه إلىٰ التمكن في اللغة العربية، فخرج إلىٰ البادية، ولزم هذيلًا، وتعلم الرماية وأغرم بها، وأجادها.

ثم اتجه إلىٰ المدينة فلزم «مالك بن أنس» وروىٰ عنه الموطأ، ثم عمل في اليمن وتعرض لمحنة نقل علىٰ أثرها إلىٰ بغداد ولكنه نجا منها بقوة حجته وبشهادة محمد بن الحسن الشيباني وكان ذلك عام ١٨٤هـ.

ثم جمع الفقه من الإمام محمد بن الحسن الشيباني في بغداد وهو حامل فقه

العراقيين ثم قرأ كتبه عليه، ثم عاد إلىٰ مكة وهو يحمل وقر بعير من سماعه من الشيباني بعد أن أقام مدة سنتين في بغداد تيسر له فيها الجمع بين فقه الحجازيين وفقه العراقيين.

ثم أقام في مكة نحو تسع سنوات وأخذ يلقي دروسه في الحرم المكي، وكانت شخصية الشافعي قد نضجت في هذه الأثناء.

وتمثل الشافعي الفقهين: الحجازي والعراقي، وأدام النظر فيهما ورسم مدرسته التي استفادت منها وتجاوزتهما، وألف الراسلة التي تعتبر فاتحة علم جديد هو أصول الفقه[1].

ثم قدم الشافعي بغداد عام ١٩٥هـ، ومكث فيها سنتين، ثم عاد إليها وأقام فيها أشهرًا وغادرها إلىٰ مصر فوصل إليها سنة ١٩٩هـ، وهناك نشر علمه وفقهه، ومات فيها آخر ليلة من رجب سنة ٢٠٤هـ.

دور الشافعي في الفقه:

قام الشافعي بترتيب ساحة الفقه علىٰ عدة أصعدة ومستويات فقام بتنظيم العلاقة بين عدد من المصادر الشرعية وعلىٰ رأسها القرآن والسنة، كما قام بتنوير العلاقة بين القرآن والسنة، وبتقنين قواعد أصول الفقه، وبترسيم علاقة النص عامة باللغة العربية، ولكن أبرز ما قام فيه هو ما يتعلق بالمنافحة عن حجية السنة

---

(١) علم أصول الفقه علم خاص بالأمة الإسلامية لا يوجد مثيل له في الأمم الأخرى، وتجري محاولات في الغرب لتوليد مثل هذا العلم في بيئتهم الثقافية.

وبالرد علىٰ الطاعنين في تلك الحجية، وتوضيح حجية حديث الآحاد وشروط رواته، وشروط الأخذ بالحديث المرسل وبإرساء بعض مصطلحات علم الحديث ويشرح علم الناسخ والمنسوخ، وبالتوفيق بين الأحاديث المختلفة، وبتحديد مصادر الحكم الشرعي، وتقنين قواعد الرأي، كما نقد كثيرًا من أساليب السابقين في الاستنباط ورفض بعض أصولهم مثل الاستحسان، كما رد علىٰ مالك في رفضه الأخذ ببعض الأحاديث الصحيحة.

إن هذه الأعمال التي قام بها الشافعي في خدمة السنة والحديث وفي مجال تعديل موقف مدرسة الرأي من السنة جعلته يأخذ بحق لقب «ناصر السنة»، وهو ما يعني في مجال دراستنا إغناء نفسية المسلم عن طريق مزيد من الربط المفصل له بالرسول ﷺ وشخصيته، وسنرىٰ توضيح ذلك في الصفحات التالية.

السنة:

حجية السنة:

أورد الشافعي عدة أبواب في كتاب الرسالة نافح فيها عن حجية السنة، كما أورد عدة براهين في كتاب «جماع العلم» وفي مواضع متفرقة من كتبه الأخرىٰ أثبت فيها حجية السنة وقد كان الشافعي في براهينه وحججه التي أوردها يرد علىٰ فئات تنكر هذه الحجية، وتعتبر القرآن الكريم مصدرها الوحيد في التعرف عغلىٰ الأحكام وفي إثباتها.

وقد فصل الشافعي في ردوده علىٰ المنكرين، كما أقام الأدلة علىٰ لزوم اتباع سنة الرسول ﷺ، وذلك من أجل استكمال المسلم إيمانه.

ونحن سنعرض وجهة نظر الشافعي وسنبين بعضًا من براهينة وأدلته التي أقامها من خلال الأبواب التي خصصها في الرسالة.

١- بيان فرض الله في كتابه اتباع سنة نبيه[1]:

قال الشافعي: «وضع الله رسوله من دينه وفرضه وكتابه الموضع الذي أبان جل ثناؤه أنه جعل علمًا لدينه، بما افترض من طاعته، وحرم من معصيته، وأبان من فضيلته، بما قرن من الإيمان برسوله مع الإيمان به.

فقال تبارك وتعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَإِذَا كَانُوا۟ مَعَهُۥ

(١) الشافعي. الرسالة (ص٧٣- ٧٥).

عَلَىٰٓ أَمۡرٍ جَامِعٍ لَّمۡ يَذۡهَبُواْ حَتَّىٰ يَسۡتَـٔۡذِنُوهُ ﴾[1].

فجعل كمال أبتداء الإيمان، الذي ما سواه تبع له: الإيمان بالله ثم برسوله.

فلو آمن عبد به ولم يؤمن برسوله: لم يقع عليه اسم كمال الإيمان أبدًا، حتىٰ يؤمن برسوله معه وهكذا سن رسول الله في كل من امتحنه للإيمان ».

٢- فرض الله طاعة رسوله مقرونة بطاعة الله ومذكورة وحدها[2]:

قال الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ ضَلَّ ضَلَٰلٗا مُّبِينٗا ﴾[3].

وقال: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمۡ تُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيۡرٞ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا ﴾[4].

فقال بعض أهل العلم: أولو الأمر: أمراء سرايا رسول الله. والله أعلم وهكذا أخبرنا.

وهو يشبه ما قال، والله أعلم؛ لأن كل ما كان حول مكة من العرب لم يكن يعرف إمارة، وكانت تأنف أن يعطي بعضها بعضا طاعة الإمارة.

---

(١) (سورة النور، الآية٦٢).

(٢) الشافعي. الرسالة (ص٧٩-٨١).

(٣) (سورة الأحزاب، الآية٣٦).

(٤) (سورة النساء، الآية٥٩).

فلما دانت لرسول الله بالطاعة لم تكن ترىٰ ذلك يصلح لغير رسول الله.

فأمروا أن يطيعوا أولي الأمر الذين أمرهم رسول الله، لا طاعة مطلقة، بل طاعة مستثناه، فيما لهم عليهم، فقال: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ﴾ يعني: إن اختلفتم في شيء.

وهذا –إن شاء الله– كما قال في أولي الأمر، إلا أنه يقول: ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ﴾ يعني –والله أعلم– هو وأمراؤهم الذين أمروا بطاعتهم «فردوه إلىٰ الله والرسول» يعني –والله أعلم– إلىٰ ما قال الله والرسول إن عرفتموه، فإن لم تعرفوه سألتم الرسول عنه إذا وصلتم، أو من وصل منكم إليه.

لأن ذلك الفرض لا منازعة لكم فيه. لقول الله تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤۡمِنٖ وَلَا مُؤۡمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمۡرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلۡخِيَرَةُ مِنۡ أَمۡرِهِمۡۗ﴾[1].

ومن تنازع ممن بعد رسول الله رد الأمر إلىٰ قضاء الله، ثم قضاء رسوله، فإن لم يكن فيما تنازعوا فيه قضاء، نصًا ولا في واحد منهما: ردوه قياسًا علىٰ أحدهما، كما وصفت من ذكر القبلة والعدل والمثل، مع قال الله في غير آية مثل هذا المعنىٰ».

٣- ما أمر الله من طاعة الرسول[2].

قال الله جل ثناؤه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوۡقَ أَيۡدِيهِمۡۚ

(١) (سورة الأحزاب:الآية٣٦).

(٢) الشافعي. الرسالة. (ص٨٢- ٨٣).

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَـٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾[1].

وقال: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ ۖ﴾[2].

فأعلمهم أن بيعتهم رسوله بيعته، وكذلك أعلمهم أن طاعتهم طاعته.

وقال: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴾[3].

نزلت هذه الآية فيما بلغنا – والله أعلم- في رجل خاصم الزبير في أرض، فقضىٰ النبي بها للزبير.

وهذا القضاء سنة من رسول الله، لا حكم منصوص في القرآن.

والقرآن يدل – والله أعلم- علىٰ ما وصفت؛ لأنه لو كان قضاء بالقرآن كان حكمًا منصوصًا بكتاب الله، وأشبه أن يكونوا إذا لم يسلموا لحكم كتاب الله نصًا غير مشكل الأمر: أنهم ليسوا بمؤمنين، إذا ردوا حكم التنزيل، إذ لم يسلموا له».

٤- ما أبان الله لخلقه من فرضه علىٰ رسوله اتباع ما أوحىٰ إليه، وما شهد له به من اتباع ما أمر به، ومن هداه، وأنه هاد لمن اتبعه[4].

قال الشافعي: قال الله جل ثناؤه لنبيه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ وَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ

---

(١) (سورة الفتح، الآية١٠).

(٢) (سورة النساء، الآية٨٠).

(٣) (سورة النساء، الآية٦٥).

(٤) الشافعي. الرسالة. (ص٨٥-٨٧).

وَٱلْمُنَٰفِقِينَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١﴾ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴾[1].

وقال: ﴿ٱتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[2].

وقال: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾[3].

فأعلم الله رسوله منة عليه بما سبق في علمه، من عصمته إياه من خلقه، فقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ﴾[4].

وشهد له جل ثناؤه باستمساكه بما أمره به، والهدىٰ في نفسه، وهداية من اتبعه، فقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[5].

وقال: ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ

---

(١) (سورة الأحزاب: الآيتان ١-٢).

(٢) (سورة الأنعام: الآية ١٠٦).

(٣) (سورة الجاثية: الآية ١٨).

(٤) (سورة المائدة: الآية ٦٨).

(٥) (سورة الشورى: الآية٥٢).

وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ (1).

فأبان الله أنه قد فرض علىٰ نبيه اتباع أمره، وشهد له بالبلاغ عنه، وشهد به لنفسه، ونحن نشهد له به، تقربًا إلىٰ الله بالإيمان به وتوسلًا إليه بتصديق كلماته».

ليس من شك بأن تأكيد الشافعي علىٰ حجية السنة كان قمعًا لفئات بدأت ترفع رأسها وتتطاول علىٰ السنة مثل: الخوارج والمعتزلة، وليس من شك بأن تفصيل الشافعي في تبيين فرضية سنة النبي ﷺ، وبأن طاعة الرسول مقرونة في أكثر من موضع بطاعة الله، وبأن طاعة الرسول ﷺ هي اتباع رسوله، كل هذا التفصيل الذي أورده الشافعي يعني حث المسلم علىٰ المزيد من الاتباع والاقتداء بالرسول ﷺ، ويعني بالتالي من الاغتناء النفسي الذي سيحصل عليه المسلم نتيجة هذا الاتباع والاقتداء.

عرض السنة علىٰ القرآن:

ثم يذكر الشافعي شبهة يرد عليها، ومفادها أن السنة يجب أن تعرض علىٰ القرآن الكريم فإن وافقته أخذ بها وإن خالفته أبعدت فعرض وجهة النظر فقال(2):

«أفتجد حجة علىٰ من روىٰ أن النبي قال: «ما جاءكم عني فاعرضوه علىٰ كتاب الله، فما وافقه فأنا قلته، وما خالفه فلم أقله؟»».

---

(1) (سورة النساء: الآية ١١٣).

(2) الشافعي. الرسالة. (ص،٢٢٤).

ثم يرد علىٰ وجهة النظر فيقول[1]:

«ما روىٰ هذا أحد يثبت حديثه في شيء صغر ولا كبر، فيقال لنا: قد ثبتم حديث من روىٰ هذا في شيء وهذا أيضًا رواية منقطعة عن رجل مجهول، ونحن لا نقبل مثل هذه الرواية في شيء».

قال: فهل علىٰ النبي رواية بما قلتم؟ فقلت لهم نعم:

أخبرنا سفيان قال أخبرنا سالم أبو النظر أنه سمع عبيد الله من أبي رافع يحدث عن أبيه أن النبي قال: «**ألفّين أحدكم متكئًا علىٰ أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه –فيقول: لا أردي، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه**».

قال الشافعي: فقد ضيق رسول الله علىٰ الناس أن يردوا أمره بفرض الله عليهم اتباع أمره».

ثم يبين أن السنة أنشأت أحكامًا جديدة[2] مثل تحريم عمة الزوجة وخالتها وكل ذي ناب من السباع وهي أحكام لم ترد في القرآن الكريم.

ليس من شك بأن طرح الشافعي الحقيقة السابقة وهي رفضه الفكرة القائلة بعرض السنة علىٰ القرآن، وأن السنة يمكنها أن تنشئ أحكامًا مستقلة إبراز لحقائق بدأ بعض الزائغين يلتفون حولها من جهة، وتعظيم لدور السنة الذي يعني مزيدًا من الإغناء النفسي من جهة ثانية.

---

(١) المرجع السابق. (ص٢٢٥- ٢٢٦).

(٢) المرجع السابق. (ص ٢٢٦- ٢٣٢).

حديث الآحاد:

كان حديث الآحاد موضع نقاش واختلاف بين المسلمين وقد أثبت الشافعي حجية خبر الآحاد، وأورد حديثًا في ذلك فقال[1]:

أخبرنا سفيان عن عبد الملك بن عمير عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن النبي قال: «**نضر الله عبدًا سمع مقالتي فحفظها ووعاها وأداها، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلىٰ من هو أفقه منه، ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم: إخلاص العمل لله، والنصيحة للمسلمين، ولزوم جماعتهم، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم**».

فلما ندب رسول الله إلىٰ استماع مقالته وحفظها وأدائها أمرًا يؤديها، والمرء واحد: دل علىٰ أنه لا يأمر أن يؤدي عنه إلا ما تقوم به الحجة علىٰ ما أدىٰ إليه؛ لأنه إنما يؤدي عنه حلال، وحرام يجتنب، وحد يقام، ومال يؤخذ، ويعطي، ونصيحة في دين ودنيا.

ودل علىٰ أنه قد يحمل الفقه غير فقيه، يكون له حافظًا، ولا يكون فيه فقيهًا.

وأمر رسول الله بلزوم جماعة المسلمين مما يحتج به في أن إجماع المسلمين –إن شاء الله– لازم».

ثم ينقل الشافعي وقائع متعددة عن رسول الله ﷺ تبين أن المسلمين قبلوا خبر الواحد فيذكر منها حديث الرجل الذي قبل امرأته وهو صائم وأرسلها كي

---

(١) المرجع السابق. (ص٤٠١).

تسأل عن ذلك وأجابتها أم سلمة رضي الله عنها بأن الرسول يفعل ذلك فأجاب الزوج: لست مثل رسول الله يحل الله لرسوله ما شاء، وقد أدىٰ ذلك إلىٰ غضب الرسول، وقوله: ألا أخبرتيها أني أفعل ذلك.

وقد عقب الشافعي علىٰ قول الرسول «ألا أخبرتيها أني أفعل ذلك» فقال: «دلالة علىٰ أن خبر أم سلمة عنه مما يجوز قبوله؛ لأنه لا يأمرها بأن تخبر عن النبي إلا وفي خبرها ما يكون الحجة لمن أخبرته».

ثم ينقل حديث تحويل القبلة فيقول[1]: أخبرنا مالك عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: «بينما الناس بقباء في صلاة الصبح إذ أتاهم آت فقال: إن رسول الله قد أنزل عليه قرآن، وقد أمر أن يستقبل القبلة، فاستقبلوها، وكانت وجوههم إلىٰ الشام فاستداروا إلىٰ الكعبة».

ثم يعقب الشافعي عليه فيقول[2]:

«وأهل قباء أهل سابقة من الأنصار وفقه، وقد كانوا علىٰ قبلة فرض الله عليهم استقبالها».

ولم يكن لهم أن يدعوا فرض الله في القبلة إلا بما تقوم عليهم الحجة، ولم يلقوا رسول الله، ولم يسمعوا ما انزل الله عليه في تحويل القبلة، فيكونون مستقبلين بكتاب الله وسنة نبيه سماعًا من رسول الله، ولا بخبر عامة، وانتقلوا بخبر واحد،

(١) المرجع السابق. (ص٤٠٦).

(٢) المرجع السابق. (ص٤٠٦-٤٠٨).

إذا كان عندهم من أهل الصدق، عن فرض كان عليهم، فتركوه إلىٰ ما أخبرهم عن النبي أنه أحدث عليهم من تحويل القبلة.

ولم يكونوا ليفعلوه –إن شاء الله– بخبر إلا عن علم بأن الحجة تثبت بمثله، إذا كان من أهل الصدق.

ولا ليحدثوا أيضًا مثل هذا الحديث العظيم في دينهم إلا عن علم بأن لهم إحداثه.

ولا يدعون أن يخبروا رسول الله بما صنعوا منه.

ولو كان ما قبلوا من خبر الواحد عن رسول الله في تحويل القبلة، وهو فرض: مما يجوز لهم، لقال لهم –إن شاء الله– رسول الله قد كنتم علىٰ قبلة، ولم يكن لكم تركها إلا بعد علم تقوم عليكم به حجة من سماعكم مني أو خبر عامة، أو أكثر من خبر واحد عني».

ثم ينقل حديث وصول نبأ تحريم الخمر إلىٰ بعض الصحابة وهم يشربونها فيقول[1]:

«أخبرنا مالك عن إسحاق عن عبد الله بن أبي طلحة عن أنس بن مالك قال: كنت أسقىٰ أبا طلحة وأبا عبيدة بن الجراح وأبي بن كعب شرابًا من فضيخ وتمر، فجاءه آت فقال: إن الخمر قد حرمت، فقال أبو طلحة: قم يا أنس إلىٰ هذه الجرار فاكسرها، فقمت إلىٰ مهراس لنا، فضربتها بأسفله حتىٰ تكسرت».

---

(١) المرجع السابق. (ص ٤٠٨).

ثم يعقب الشافعي علىٰ تصرفهم في إراقة الخمر فيقول[1]:

«وهؤلاء في العلم والمكان من النبي وتقدم صحبته بالموضع الذي لا ينكره عالم».

وقد كان الشراب عندهم حلالًا يشربونه، فجاءهم آت وأخبرهم بتحريم الخمر، فأمر أبو طلحة، وهو مالك الجرار: بكسر الجرار، ولم يقل هو ولا هم ولا واحد منهم: نحن علىٰ تحليلها حتىٰ نلقىٰ رسول الله، مع قربه منا، أو يأتينا خبر عامة.

وذلك أنهم لا يهرقون حلالًا، إهراقة سرف، وليسوا من أهله.

والحال في أنهم لا يدعون إخبار رسول الله ما فعلوا، ولا يدع، لو كان ما قبلوا من خبر الواحد ليس لهم: أن ينهاهم عن قبوله».

ثم يذكر حديثًا آخر عن مناداة علي بن أبي طالب في منىٰ بالنهي عن الصوم فينقل الحديث فيقول[2]:

«أخبرنا عبد العزيز عن ابن الهاد عن عبد الله بن أبي سلمة عن عمرو ابن سليم الزرقي عن أمه قالت: بينما نحن بمنىٰ إذا علي بن أبي طالب علىٰ جمل يقول: إن رسول الله يقول: إن هذه أيام طعام وشراب، فلا يصومن أحد فاتبع الناس وهو علىٰ جمله يصرخ فيهم بذلك».

---

(١) المرجع السابق. (ص ٤٠٩-٤١٠).

(٢) المرجع السابق.(ص ٤١١).

ثم يعقب الشافعي علىٰ الحديث فيقول[1]:

«ورسول الله لا يبعث بنهيه واحدًا صادقًا إلا لزم خبره عن النبي بصدقة عن المنهيين عن ما أخبرهم أن النبي نهىٰ عنه».

ومع رسول الله الحاج، وقد كان قادرًا علىٰ أن يبعث إليهم فيشافههم، أو يبعث إليهم عددًا، فبعث واحدًا يعرفونه بالصدق.

وهو لا يبعث بأمره إلا والحجة للمبعوث إليهم، وعليهم قائمة بقبول خبره عن رسول الله.

فإذا كان هكذا، فما وصف من مقدرة النبي علىٰ بعثه جماعة إليهم: كان ذلك –إن شاء الله– فيمن بعده ممن لا يمكنه ما أمكنهم وأمكن فيهم:- أولىٰ أن يثبت به خبر الصادق».

ثم ينقل الشافعي واقعة إرسال الرسول ﷺ عمالًا في نواحي مختلفة فيقول[2]:

«وقد فرق النبي عمالًا علىٰ نواحي، عرفنا أسماءهم والمواضع التي فرقهم عليها: فبعث قيس بن عاصم، والزبرقان بن بدر، وابن نويرة:- إلىٰ عشائرهم: بعلمهم بصدقهم عندهم».

وقدم عليهم وفد البحرين فعرفوا من معه، فبعث معهم ابن سعيد بن العاص.

(١) المرجع السابق. (ص ٤١٢).

(٢) المرجع السابق. (ص٤١٥-٤١٨).

وبعث معاذ بن جبل إلىٰ اليمن، وأمره أن يقاتل من أطاعه من عصاه، ويعلمهم ما فرض الله عليه، ويأخذ منهم ما وجب عليهم، لمعرفتهم بمعاذ، ومكانه منهم وصدقة».

❁ ❁ ❁ ❁

إن إثبات الشافعي لحجية خبر الآحاد ودون شروط أخرىٰ كالتي يشترطها أبو حنيفة ومالك، يعني تفاعل المسلم مع قطاع آخر من سنة الرسول ﷺ، وبخاصة إذا علمنا أن الشافعي يجعل حديث الآحاد يخصص ظاهر القرآن الكريم وهو علىٰ عكس أبي حنيفة ومالك اللذين لا يجعلان حديث الآحاد يقوىٰ علىٰ ذلك، مما يعمل مزيدًا من الأحاديث وبالتالي تصبح فرصة الاقتداء والاغتناء النفسي أكثر.



حجية الحديث المنقطع:

ثم يتحدث عن حجية الحديث المنقطع فيقول[1]:

«فقال: فهل تقوم بالحديث المنقطع حجة علىٰ من علمه؟ وهل يختلف المنقطع؟ أو هو وغيره سواء؟»

قال الشافعي: فقلت له: المنقطع مختلف: فمن شاهد أصحاب رسول الله من التابعين، فحدث حديثًا منقطعًا عن النبي:- اعتبر عليه بأمور منها: أن ينظر إلىٰ ما أرسل من الحديث، فإن شركه فيه الحفاظ المأمونون فأسندوه إلىٰ رسول الله بمثل معنىٰ ما روىٰ:- كانت هذه دلالة علىٰ صحة من قبل عنه وحفظ.

وإن انفرد بإرسال حديث لم يشركه فيه من يسنده وقبل ما ينفرد به من ذلك.

ويعتبر عليه بأن ينظر: هل يوافقه مرسل غيره ممن قبل العلم عنه من غير رجاله الذين قبل عنهم؟

فإن وجد ذلك كانت دلالة يقوي له مرسله، وهي أضعف من الأولىٰ.

وإن لم يوجد ذلك نظر إلىٰ بعض ما يروىٰ عن أصحاب رسول الله قولًا له، فإن وجد يوافق ما روىٰ رسول الله كانت في هذه دلالة علىٰ أنه لم يأخذ مرسله إلا عن أصل يصح، إن شاء الله.

---

(١) المرجع السابق. (ص ٤٦١-٤٦٤).

وكذلك إن وجد عوام من أهل العلم يفتون بمثل معنىٰ ما روي عن النبي قال الشافعي: ثم يعتبر عليه: بأن يكون إذا سمىٰ من روىٰ عنه لم يسمّ مجهولًا ولا مرغوبًا عن الرواية عنه، فيستدل بذلك علىٰ صحته فيما روىٰ عنه.

ويكون إذا شرك أحدًا من الحفاظ في حديث لم يخالفه، فإن خالفه وجد حديثه أنقص:- كانت في هذه دلائل علىٰ صحة مخرج حديثه.

ومتىٰ خالف ما وصفت أضر بحديثه، حتىٰ لا يسع أحدًا منهم قبول مرسله.

قال: وإذا وجدت الدلائل بصحة حديثه بما وصفت أحببنا أن نقبل مرسله.

ولا نستطيع أن نزعم أن الحجة تثبت به ثبوتها بالمتصل».

ثم يكمل فيقول[1].

«وذلك: أن معنىٰ المنقطع مغيب، يحتمل أن يكون حمل عن من يرغب عن الرواية عنه إذا سمي، وإن بعض المنقطعات –وإن وافقه مرسله مثله- فقد يحتمل أن يكون مخرجها واحدًا، من حيث لو سُمي لم يقبل، وإن قول بعض أصحاب النبي –إذا قال برأيه لو وافقه- يدل إلىٰ صحة مخرج الحديث، دلالة قوية إذا نظر فيها، ويمكن أن يكون إنما غلط به حين سمع قول بعض أصحاب النبي يوافقه ويحتمل مثل هذا فيمن وافقه من بعض الفقهاء».

أما مرسل التابعي فيقول عنه[1]: «فإما من بعد كبار التابعين الذين كثرت

(١) المرجع السابق. (ص ٤٦٤- ٤٦٥).

مشاهدتهم لبعض أصحاب رسول الله –فلا أعلم منهم واحدًا يقبل مرسله. لأمور: أحدها: أنهم أشد تجوزًا فيمن يروون عنه. والآخر: أنهم توجد عليهم الدلائل فيما أرسلوا بضعف مخرجه. والآخر كثرة الإحالة. كان أمكن للوهم وضعف من يقبل عنه».

ثم يذكر بعض العلماء الذين يؤتون من بعض الخصال[2]:

«رأيت الرجل يقنع بيسير العلم، ويريد إلا أن يكون مستفيدًا إلا من جهة قد يتركه من مثلها أو أرجح، فيكون من أهل التقصير في العلم».

«ورأيت من عاب هذه السبيل ورغب في التوسع في العلم، من دعاه ذلك إلىٰ القبول عن من لو أمسك عن القبول عنه كان خيرًا له».

ورأيت الغفلة قد تدخل علىٰ أكثرهم، فيقبل عن من يرد مثله وخيرًا منه ويُدخل عليه، فيقبل عن من يعرف ضعفه، إذا وافق قولًا يقوله! ويرد حديث الثقة إذا خالف قولًا يقوله!!

ويدخل علىٰ بعضهم من جهات.

ومن نظر في العلم بخبرة وقلة غفلة استوحش من مرسل كل من دون كبار التابعين، بدلائل ظاهرة فيها.

قال: فلم فرقت بين التابعين المتقدمين الذين شاهدوا أصحاب رسول الله

(١) المرجع السابق. (ص ٤٦٥).

(٢) المرجع السابق. (ص ٤٦٦– ٤٦٧).

وبين من شاهد بعضهم دون البعض؟

فقلت: لبعد إحالة من لم يشاهد أكثرهم.

قال: فلم لم تقبل المرسل منهم ومن كل فقيه دونهم؟

قلت: لما وصفت».

إن أخذ الشافعي بالحديث المنقطع وإعماله له، وبالشرط التي طرحها يوسع دائرة الارتباط بالرسول ﷺ، ويوسع -بالتالي- فرصة الاغتناء النفسي عند المسلم.

اختلاف الحديث:

ثم يتطرق إلىٰ اختلاف الأحاديث وظن تعارضها ويصور المشكلة علىٰ لسان محاور فيقول الشافعي[1]:

«قال الشافعي: قال لي قائل: فإنا نجد من أحاديث رسول الله أحاديث في القرآن مثلها نصًا، وأخرىٰ في القرآن مثلها جملة، وفي الأحاديث منها أكثر مما في القرآن وأخرىٰ ليس منها شيء في القرآن، وأخرىٰ متفقة، وأخرىٰ مختلفة: ناسخة ومنسوخة، وأخرىٰ مختلفة: ليس فيها دلالة علىٰ ناسخ ولا منسوخ وأخرىٰ فيها نهي لرسول الله، فتقولون: ما نهىٰ عنه حرام، وأخرىٰ لرسول الله فيها نهي، فتقولون: نهيه وأمره علىٰ الاختبار لا علىٰ التحريم. ثم نجدكم تذهبون إلىٰ بعض المختلفة من الأحاديث دون بعض فلا تقيسون عليه.

(١) المرجع السابق. (ص ٢١٠).

فما حجتكم في القياس وتركه؟ ثم يفترقون بعد: فمنكم من يترك من حديثه الشيء ويأخذ الشيء ويأخذ بمثل الذي ترك وأضعف إسنادًا منه؟».

ثم يذكر بعض القواعد التي تبين عدم تعارض الأحاديث واتفاقها وتوضيحها معالم الإسلام فيقول(١):

«فقلت له: كل ماسن رسول الله مع كتاب الله من سنة فهي موافقة كتاب الله في النص بمثله، وفي الجملة بالتبيين عن الله، والتبيين يكون أكثر تفسيرًا من الجملة.

وما سن مما ليس فيه نص كتاب الله فبفرض الله طاعته عامة في أمره تبعناه.

وأما الناسخة والمنسوخة من حديثه فهي كما نسخ الله الحكم في كتابه بالحكم غيره من كتابه عامة في أمره، وكذلك سنة رسول الله تنسخ بسنته.

وذكرت له بعض ما كتبت في «كتابي» قبل هذا من إيضاح ما وصفت.

فاما المختلفة التي لا دلالة علىٰ أيها ناسخ وأيها منسوخ: فكل أمره متفق صحيح، لا اختلاف فيه.

ورسول الله عربي اللسان والدار، فقد يقول القول عامًا يريد به العام، وعامًا يريد به الخاص، كما وصفت لك في كتاب الله وسنن رسول الله قبل هذا.

ويسأل عن الشيء فيجيب علىٰ قدر المسألة ويؤدي عنه المخبر عنه الخبر متقصىٰ، والخبر مختصرًا، والخبر فيأتي ببعض معناه دون بعض.

---

(١) المرجع السابق.(ص،٢١٢- ٢١٥).

ويحدث عنه الرجل الحديث قد أدرك جوابه، ولم يدرك المسألة فيدله علىٰ حقيقة الجواب، بمعرفته السبب الذي يخرج عليه الجواب.

ويسن في الشيء وفيما يخالفه أخرىٰ، فلا يخلص بعض السامعين بين اختلاف الحالتين اللتين سنّ فيهما.

ويسنّ سنة في نص معناه، فيحفظها حافظ، ويسن في معنىٰ ويخالفه في معنىٰ ويجامعه في معنىٰ:- سنة غيرها؛ لاختلاف الحالين، فيحفظ غيره تلك السنة فإذا أدىٰ كلٌّ ما حفظ رآه بعض السامعين اختلافًا، وليس منه شيء مختلف.

ويسن بلفظ مخرجه عام جملة بتحريم شيء أو بتحليله، ويسن في غيره خلاف الجملة، فيستدل علىٰ أنه لم يرد بما حرم ما أحل، ولا بما أحل ما حرم.

ولكل هذا نظير فيما كتبنا من جمل أحكام الله.

ويسن السنة ثم ينسخها بسنته، ولم يدع أن يبين كلما نسخ من سنته بسنته، ولكن ربما ذهب علىٰ الذي سمع من رسول الله الآخر، وليس يذهب ذلك علىٰ عامتهم حتىٰ لا يكون فيهم موجودًا إذا طلب.

وكل ما كان كما وصفت وأمشي علىٰ ما سنه، وفُرّق بين ما فرق بينه منه.

وكانت طاعته في تشبيعه علىٰ ما ينه واجبة، ولم يقل: ما فرق بين كذا وكذا؟».

ثم يذكر بعض الأمثلة بناء علىٰ طلب محاوره فيقول[1]:

---

(١) المرجع السابق. (ص ٢١٩).

«قال: فقال لي قائل: فمثّل لي كل صنف مما وصفت مثالًا، تجمع لي فيه الإتيان علىٰ ما سألت عنه، بأمر لا تكثر علي فأنساه، وابدأ بالناسخ والمنسوخ من سنن النبي، واذكر منها شيئًا مما معه القرآن، وإن كررت بعض ما ذكرت؟

فقلت له: كان أول ما فرض الله علىٰ رسوله القبلة أن يستقبل بيت المقدس في الصلاة، فكان بيت المقدس القبلة التي لا يحل لأحد أن يصلي إلا إليها، في الوقت الذي استقبلها فيه رسول الله، فلما نسخ الله قبلة بيت المقدس ووجّه رسوله والناس إلىٰ الكعبة:- كانت الكعبة القبلة التي لا يحل لمسلم أن يستقبل المكتوبة في غير حال من الخوف: غيرها، ولا يحل أن يستقبل بين المقدس أبدًا.

وكل كان حقًا في وقته بيت المقدس من حين استقبله النبي إلىٰ أن حول عنه:- الحق في القبلة، ثم البيت الحرام الحق في القبلة إلىٰ يوم القيامة».

ثم يذكر مثالًا آخر فيقول[1]:

«قال: وذكرت له قول الله تعالىٰ: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾[2] و ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾[3] وأن رسول الله لما سنّ القطع علىٰ من بلغت سرقته ربع دينار فصاعدًا، والجلد علىٰ الحرين البكرين، ودرون الثيبين الحرين والمملوكين:- دلت سنة رسول الله علىٰ أن الله أراد بها

(١) المرجع السابق. (ص ٢٢٣).

(٢) (سورة المائدة الآية٣٨).

(٣) (سورة النور الآية٢).

الخاص من الزناة والسرّاق، وإن كان مخرج الكلام عامًا في الظاهر علىٰ السرّاق والزناة».

ثم يقدم مثالًا آخر فيقول[1]:

«قال: فابن لي جملًا أجمع لك أهل العلم- أو أكثرهم- عليه من سنة مع كتاب الله يحتمل أن تكون السنة مع الكتاب دليلًا علىٰ أن الكتاب خاص وإن كان ظاهرة عامًا.

فقلت له: نعم، ما سمعتني حكيت في «كتابي».

قال: فأعد منه شيئًا.

قلت: قال الله: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّٰتُكُمْ وَخَٰلَٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِىٓ أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمْ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِى فِى حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِى دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا۟ دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَٰبِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا۟ بَيْنَ ٱلْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ ۖ كِتَٰبَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ ۚ وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَآءَ ذَٰلِكُمْ﴾[2].

(١) الشافعي. الرسالة. (ص ٢٢٦).

(٢) (سورة النساء: الآيتان ٢٣-٢٤).

قال: وذكر الله من حرم، ثم قال: «وأحل لكم ما وراء ذلكم» فقال رسول الله: «لا يجمع بين المرأة وعمتها وبين المرأة وخالتها» فلم أعلم مخالفًا في اتباعه».

ثم يذكر وجهًا آخر فيقول[1]:

«أخبرنا مالك عن ابن شهاب عن أنس بن مالك: «إن النبي ركب فرسًا فصرع عنه، فجُحش شقه الأيمن، فصلىٰ صلاة من الصلوات وهو قاعد، وصلينا وراءه قعودًا، فلما انصرف قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا صلىٰ قائمًا فصلوا قيامًا، وإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذا قال سمع الله لمن حمده:- فقولوا ربنا ولك الحمد، وإذا صلىٰ جالسًا فصلوا جلوسًا أجمعون.

أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أنها قالت: صلىٰ رسول الله في بيته وهو شاك، فصلىٰ جالسًا، وصلىٰ وراءه قوم قيامًا، فأشار إليهم: أن اجلسوا، فلما انصرف قال: إنما جعل الإمام ليؤتم به، فإذا ركع فاركعوا، وإذا رفع فارفعوا، وإذل صلىٰ جالسًا فصلوا جلوسًا».

قال: وهذا مثل حديث أنس، وإن كان حديث أنس مفسرًا وأوضح من تفسير هذا.

أخبرنا مالك عن هشام بن عروة عن أبيه: «إن رسول الله خرج في مرضه، فأتىٰ أبا بكر وهو قائم يصلي بالناس، فاستأخر أبو بكر، فأشار إليه رسول الله: أنت كما أنت، فجلس رسول الله إلىٰ جنب أبي بكر، فكان أبو بكر يصلي بصلاة

(١) الشافعي. الرسالة. (ص ٢٥١).

رسول الله وكان الناس يصلون بصلاة أبي بكر». (وبه يأخذ الشافعي) قال: وذكر إبراهيم النخعي عن الأسود بن يزيد عن عائشة عن رسول الله وأبي بكر: مثل معنىٰ حديث عروة: «إن النبي صلىٰ قاعدًا وأبو بكر قائمًا، يصلي بصلاة النبي، وهم وراءه قيامًا».

قال: فلما كانت صلاة النبي في مرضه الذي مات فيه قاعدًا والناس خلفه قيامًا:- استدللنا أن أمره الناس في بالجلوس سقطته عن الفرس: قبل مرضه الذي مات فيه، فكانت صلاته في مرضه الذي مات فيه قاعدًا والناس خلفه قيامًا:- ناسخة بأن يجلس الناس بجلوس الإمام.

وكان في ذلك دليل بما جاءت به السنة وأجمع عليه الناس: من أن الصلاة قائمًا إذا أطاقها المصلي، وقاعدًا إذا لم يطق، وأن ليس للمطيق القيام منفردًا أن يصلي قاعدًا.

فكانت سنة النبي أن صلىٰ في مرضه قاعدًا ومن خلفه قيامًا، مع أنها ناسخة لسنته الأولىٰ قبلها:- موافقة سنته في الصحيح والمريض وإجماع الناس: أن يصلي كل واحد منهما فرضه، كما يصلي المريض خلف الإمام الصحيح قاعدًا والإمام قائمًا.

وهكذا نقول: يصلي الإمام جالسًا ومن خلفه الأصحاء قيامًا، فيصلي كل واحد فرضه. ولو وكّل غيره كان حسنًا.

وقد أوهم بعض الناس فقالا: لا يؤمنّ أحد بعد النبي جالسًا، واحتج

بحديث رواه منقطع عن رجل مرغوب الرواية عنه، لا يثبت بمثله حجة علىٰ أحد، فيه: «لا يؤمن أحد بعدي جالسًا».

ثم ينقل الشافعي جملًا من اختلاف الأحاديث والجمع بينها تشغل صفحات كثيرة.

وهذا يبرز حرص الشافعي علىٰ الاستفادة من كل الأحاديث طالما أنها صحيحة وذلك من خلال التوفيق بينها.

القياس:

قنن الشافعي القياس فعرفه فقال[1]:

«قلت: كل ما نزل بمسلم ففيه حكم لازم، أو علىٰ سبيل الحق فيه دلالة موجودة، وعليه إذا كان فيه بعينه حكم:- اتباعه، وإذا لم يكن بعينه طلب الدلالة علىٰ سبيل الحق فيه بالاجتهاد. والاجتهاد القياس».

ثم يذكر الشافعي وجهين للقياس فيقول[2]:

«والقياس من وجهين: أحدهما أن يكون الشيء في معنىٰ الأصل، فلا يختلف القياس فيه. وأن يكون الشيء له في الأصول أشباه فذلك يلحق بأولاها به وأكثرها شبهًا فيه، وقد يختلف القايسون في هذا».

ثم يضرب بعض الأمثلة علىٰ قياسه فيقول[1]:

(١) المرجع السابق. (ص ٤٧٧).

(٢) المرجع السابق. (ص ٤٧٩).

«قال: فأوجدني ما أعرف أن العلم من وجهين: أحدهما إحاطة بالحق في الظاهر والباطن، والآخر إحاطة بحق في الظاهر دون الباطن:- مما أعرف؟

فقلت له: أرأيت إن كنا في المسجد الحرام نرىٰ الكعبة:- أكلفنا أن نستقبلها بإحاطة؟

قال: نعم.

قلت: وفرضت علينا الصلوات والزكاة والحج وغير ذلك:- أكلفنا الإحاطة في أن نأتي بها علينا بإحاطة؟

قال: نعم».

ثم يوضح الوجه الآخر فيقول[2]:

«قلت: وكلفنا في أنفسنا أين ما كنا أن نتوجه إلىٰ البيت بالقبلة؟

قال: نعم.

قلت: أفتجدنا علىٰ إحاطة من أنا وقد أصبنا البيت بتوجهنا؟

قال: أما كما وجدتكم حين كنتم ترون فلا، وأما أنتم فقد أديتم ما كلفتم.

قلت: والذي كلفنا في طلب العين المغيب غير الذي كلفنا في طلب العين الشاهد؟

قال: نعم».

---

(١) المرجع السابق. (ص ٤٨٠).

(٢) المرجع السابق. (ص ٤٨١).

القياس كما يوضح الشافعي مرتبط بأصل شرعي، وهذا يعني أن الحكم الصادر له دوره في الإغناء النفسي طالما أنه مرتبط بقرآن أو سنة.

الاستحسان:

لم يرض الشافعي الأخذ بالاستحسان، لأنه جنوح إلىٰ الرأي، وبعد عن النص، فقال: «الاستحسان تلذذ».

ثم يحدد طريق الاجتهاد وهو القياس فيقول عنه[1]:

«ولا يقوله فيه إلا عالم بالأخبار، عاقل للتشبيه عليها.

وإذا كان هذا هكذا أكان علىٰ العالم أن لا يقول إلا من جهة العلم، -الخبر اللازم- بالقياس بالدلائل علىٰ الصواب، حتىٰ يكون صاحب العلم أبدًا متبعًا خبرًا وطالب الخبر بالقياس، كما يكون متبع البيت بالعيان، وطالبًا قصده بالاستدلال بالأعلام مجتهدًا.

ولو قال بلا خبر لازم ولا قياس كان أقرب من الإثم من الذي قال وهو غير عالم، وكان القول لغير أهل العلم جائزًا.

ولم يجعل الله لأحد بعد رسولالله أن يقول إلا من جهة علم مضىٰ قبله، وجهة العلم بعد الكتاب والسنة والإجماع والآثاؤ، وما وصفت للقياس عليها.

ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها، وهو العلم بأحكام كتاب الله: فرضه، وأدبه، ناسخة ومنسوخه، وعامه، وخاصه، وإرشاده.

---

(١) المرجع السابق. (ص ٥٠٧).

ويستدل علىٰ ما احتمل التأويل منه بسنن رسول الله، فإذا لم يجد فبإجماع المسلمين، فإن لم يكن إجماع فبالقياس.

ولا يكون لأحد أن يقيس إلا أن يكون عالمًا بما مضىٰ قبله من السنن وأقاويل السلف، وإجماع الناس، واختلافهم، ولسان العرب.

ولا يكون له أن يقيس حتىٰ يكون صحيح العقل، وحتىٰ يفرق بين المشتبه، ولا يعجل بالقول به، دون تثبيت ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه؛ لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة، ويزداد به تثبيتًا فيما اعتقد من الصواب.

وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده، والإنصاف من نفسه، حتىٰ يعرف من أين قال ما يقول، وترك ما يترك. ولا يكون بما قال أعنىٰ منه بما خالفه، حتىٰ يعرف فضل ما يصير إليه علىٰ ما يترك، إن شاء الله.

فأما من تم عقله ولم يكن عالمًا بما وصفنا فلا يحل له أن يقول بقياس، وذلك أنه لا يعرف ما يقيس عليه، كما لا يحل لفقيه عاقل أن يقول في ثمن درهم ولا خبرة له بسوقه».

ذكر الشافعي عدة أدلة في إبطال الاستحسان وهي[(١)]:

(أ) قال الله تعالىٰ: ﴿ أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴾[(٢)]، وقال النبي ﷺ: «**ما تركت شيئًا مما أمركم الله به إلا وقد أمرتكم به، ولا شيئًا مما نهاكم عنه إلا وقد**

(١) أبو زهرة. الشافعي. (ص ٢٥٦) وما بعدها.

(٢) (سورة القيامة: الآية ٣٦).

نهيتكم عنه، وإن الروح الأمين قد ألقىٰ في روعي أنه لن تكوت نفس حتىٰ تستوفىٰ رزقها فأجملوا في الطلب»، وقد أمر رسول الله ﷺ بلزوم جماعة المسلمين، ومعنىٰ ذلك لزوم قول جماعتهم، فهذه الآية وهذان الحديثان يدلان علىٰ أن النبي قد بين الشرع كله، فبين كل ما أمر الله به، وكل ما نهىٰ الله عنه، وأنه سبحانه وتعالىٰ لم يترك الأمر سدىٰ في شأن من شؤون الجماعة الإسلامية فيما يتعلق بالأوامر والنواهي، فكل شيء قد بين بالنص عليه أو بالإشارة إليه، فلا اجتهاد إلا فيما كان له نص قائم أو قياس علىٰ نص وحمل عليه، ولإلا كان ثمة نقص في البيان، وذلك غير صحيح؛ لأن الله لم يترك الناس سدىٰ، والنبي قد بين كل الأوامر والنواهي، فالاجتهاد إذن بالاستحسان باطل[1].

(ب) قال الله سبحانه وتعالىٰ:﴿ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ ﴾[2]، وقال الله عز وجل:﴿ ٱتَّبِعۡ مَآ أُوحِيَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ [3]، وقال تعالىٰ:﴿ مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدۡ أَطَاعَ ٱللَّهَ ﴾[4]، وقال عز مِنْ قائل:﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمۡ عَنۡهُ فَٱنتَهُواْ ﴾[5]، وقال عز مِنْ قائل: ﴿ وَأَنِ ٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ ﴾[6]، فدلت هذه الآيات كلها علىٰ أن المؤمن يتبع كتاب الله وسنة

---

(١) الشافعي. الأم. ج٧.ص٢٧١.

(٢) (سورة النساء: الآية٥٩).

(٣) (سورة الأنعام: الآية١٠٦).

(٤) (سورة النساء: الآية٨٠).

(٥) (سورة الحشر: الآية٧).

(٦) (سورة المائدة: الآية٤٩).

رسوله، ولا يتبع شيئًا سواهما، فكل ما جاء به بالنص أو الدلالة، التفصيل والإجمال، بالبيان الكلي أو الجزئي، فهو واجب الاتباع، ولا شيء سواهما يجب اتباعه، والقياس اتباع للكتاب والسنة، لأنه حمل في المعنىٰ علىٰ ما يدلان عليه، والاجماع حجة مستمدة من السنة النبوية، فالعمل به اتباع لها، ولما كان الاستحسان ليس فيه إحالق لواحد منهما، وليس هناك نص يسوغ الأخذ به، فالاجتهاد بطريقة تزيد علىٰ ما جاء في الكتاب، وما جاءت به السنة، وليس لأحد اتباع غيرهما، ولا الإلزام بغير أحكامهما التي تثبت منهما بالنص، أو الاستنباط علىٰ وجه صحيح من أوجه الاستنباط[1].

(ج)إن النبي ﷺ، وهو الذي لا ينطق عن الهوىٰ ما كان يفتي في أمور الشريعة باستحسانه، فقد كان يجيئه الأمر لم ينزل فيه قرآن، ولم يوح بحكمه إليه فلا يفتي باستحسانه، وكان يستفتىٰ فيما لا قرآن فيه فلا يجيب حتىٰ ينزل عليه وحي.

جاءته امرأة أوس بن الصامت تشكو إليه أوسًا، فلم يجبها حتىٰ أنزل الله عز وجل: ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ

(١) الشافعي. الأم.(ج٦،ص٣٠٣)، (ج٧،ص٣٧١).

﴿وَٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٞ ٣ فَمَن لَّمۡ يَجِدۡ فَصِيَامُ شَهۡرَيۡنِ مُتَتَابِعَيۡنِ مِن قَبۡلِ أَن يَتَمَآسَّاۖ فَمَن لَّمۡ يَسۡتَطِعۡ فَإِطۡعَامُ سِتِّينَ مِسۡكِينٗاۚ ذَٰلِكَ لِتُؤۡمِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦۚ وَتِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۗ وَلِلۡكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[1]. فالنبي ﷺ عندما شكت إليه من ظاهر منها زوجها بأن حرمها علىٰ نفسه بمثل قوله أنت علي كظهر أمي، لم يفت باستحسانهم ولم يقرر ما كان عليه العرب، وهو التحريم، بل انتظر نزول الوحي، وهو في ذلك أسوة حسنة[2].

(د) إن النبي ﷺ قد استنكر علىٰ الصحابة الذين غابوا عنه، وأفتوا باستحسانهم، فقد كان إذا بعث سرية أمر بطاعة الله ورسوله وأميرهم، ما أطاع الله ورسوله، وقد كان منهم في بعض مغازيهم أمور أنكرها، فقد أنكر إحراقهم لرجل لاذ بشجرة، وأنكر قتل من قال: وأسلمت لله تحت حد السيف، فلو كان الاجتهاد بالاستحسان من غير الاعتماد علىٰ نص، أو قياس سائغًا جائزًا، ما استنكر النبي ﷺ مسلكهم، ولاعتبرهم مجتهدين أخطأوا طلب الحق.

(هـ) إن الاستحسان لا ضابط له، ولا مقاييس يقاس بها الحق من الباطل، فلو جاز لكل مفت أو حاكم أو مجتهد أن يستحسن ما لا نص فيه، لكان الأمر فرطًا ولاختلف الأحكام في النازلة الواحدة علىٰ حسب استحسان كل مفت، فيقال في الشيء ضروب من الفتيا والأحكام، لا ضابط لها ولا مقاييس تبين الحق فيها، ولا معرفة وجه الصواب منها، وما هكذا تفهم الشرائع، ولا

(١) (سورة المجادلة: الآيات ١-٤).

(٢) الشافعي. الأم. (ج٧.ص٢٧١).

تفسر الأحكام الدينية»[1].

(و) إن الاستحسان لو كان مقبولًا من المجتهد العالم بالكتاب والسنة وطرائق القياس لجاز لغيره ممن ليس عندهم علم الكتاب والسنة وخلاف العلماء واجتماعهم والقياس، لأن أساسه العقل، والعقل متوافر، بل إن من غير العلماء بالكتاب والسنة من لهم عقول تفوق عقول هؤلاء، ولهم إبانة خير من إبانتهم».

ثم يبين الشيخ محمد أبو زهرة أن الاستحسان عند المالكية مخالف لما هو عند الحنفية، وأنه -أي استحسان المالكية- ينصب عليه استنكار الشافعي، يقول أبو زهرة[2]:

«لننتقل بعد ذلك إلىٰ الاستحسان عند المالكية، وعندهم نجد تعريفات كثيرة له، وكل واحد منها يذكر له حقيقة تقارب ما يدل عليه تعريف الآخر، ولقد وجدنا بعض هذه التعريفات يتفق مع تعريف الاستحسان عند الحنفية، فابن العربي يقول في أحكام القرآن: الاستحسان عندنا وعند الحنفية، هو العمل بأقوىٰ الدليلين[3].

ولكن يظهر أن ابن العربي ذكر ذلك التعريف تقريبًا للاصطلاح بين المذهبين. ولكن يظهر أن حقيقة الاستحسان المالكي تخالف حقيقة الاستحسان

---

(١) الشافعي. الأم. (ج٧، ص٢٢٣).

(٢) أبو زهرة. الشافعي. (ص٢٦٤- ٢٦٦).

(٣) الشاطبي، الموافقات، (ج٤،ص٢٠٨). والاعتصام، (ج٢،ص٣١٩). وبهذا التعريف أخذ البلخي.

الحنفي كما سيتبين، وإن وجدت جزيئات ينطبق عليها تعريف المذهبين، ولذلك قال ابن العربي في موضع آخر في تعريفه: «والاستحسان إيثار ترك مقتضىٰ الدليل عن طريق استثناء، والترخيص لمعارضة ما يعرض به في بعض مقتضياته وقسمه أقسامًا عدة منها أربعة، وهي ترك الجليل وإيثار التوسعة».

وترىٰ من هذا التعريف وتلك الأقسام أن الاستحسان ترخص من مقتضىٰ الدليل للعرف، أو المصلحة، أو رفع الحرج والمشقة، ولقد عرفه الشاطبي، وابن الأنباري بأنه استعمال مصلحة جزئية في مقابل قياس كلي، ويقصر ابن الأنباري الاستحسان في مذهب مالك علىٰ هذا، فيما يظهر له، ولذا يقول ردًا علىٰ تعريف ابن العربي: الذي يظهر من مذهب مالك القول بالاستحسان لا علىٰ المعنىٰ السابق، بل هو استعمال مصلحة جزئية في مقابل قياس كلي، فهو يقدم الاستدلال المرسل علىٰ القياس، ومثاله لو اشترىٰ سلعة بالخيار، ثم مات فاختلف ورثته في الإمضاء والرد، وقال أشهب: القياس الفسخ، ولكنا نستحسن إذا قبل البعض الممضي نصيب الرد، إذا امتنع البائع من قبوله أن نمضيه.

ويقارب ذلك التعريف أيضًا تعريف ابن رشد له، إذ يقول: الاستحسان الذي يكثر استعماله حتىٰ يكون أعم من القياس، هو أن يكون طرحًا لقياس يؤدي إلىٰ غلو في الحكم ومبالغة فيه، فعدل عنه في بعض المواضع لمعنىٰ يؤثر في الحكم يختص به ذلك الموضع. ذلك التعريف يبين معنىٰ قول مالك رضي الله عنه:

إن المغرق في القياس يكاد يفارق السنة »[1].

ولا شك أن اتجاه هذه التعريفات الأخيرة مصوب نحو غاية واحدة وهو ألا يتقيد الفقيه المجتهد عند بحث الجزئيات بتطبيق ما يؤدي إليه اطراد القياس، بل يترك لتقديره الفقهي ما يراه المصلحة أو الأمر الحسن في هذه القضية الجزئية، ما دام لا يخالف نصًا من كتاب أو سنة، وحينئذ تتقارب هذه التعريفات من التعريف الذي ذكره بعض المالكية بقوله: إنه دليل ينقدح في نفس المجتهد لا تساعده العبارة عنه، ولا يقدر علىٰ إظهاره؛ أي: أن الاستحسان ما يسمىٰ في عرفنا الحاضر الاتجاه إلىٰ روح القانون والاعتماد في ذلك علىٰ كمال دراسة المجتهد، وإلمامه التام كلها وجزئها وليس كونه لا تساعده العبارة أنه لا يمكنه إقامة الدليل علىٰ وجه المصلحة فيه، بل معناه أنه لا يمكن إظهار الأصل الفقهي الخاص الذي يعتمد عليه، ولقد قال مالك رضي الله عنه في الاستحسان علىٰ هذا التفسير: إنه تسعة أعشار العلم، والخلاصة أن المالكية في جملة آرائهم يعرفون الاستحسان بأنه أخذ بمصلحة جزئية يرجحونها في مسألة جزئية علىٰ الأخذ في هذه المسألة بمقتضىٰ القياس المطرد، ما دام لا نص في كتاب أو سنة.

ولقد يتقارب الاستحسان من المصالح المرسلة، ولكن الشاطبي في الاعتصام يفرق بينهما، فيقول: فإن قيل هذا من باب المصالح المرسلة لا من باب الاستحسان، قلنا نعم، إلا أنهم صوروا الاستحسان تصوير الاستثناء من القواعد

(١) الاعتصام. (ج٢) (ص٣٢٠- ٣٢١).

بخلاف المصالح المرسلة؛ أي: أن الاستحسان يكون استثناء في مقابل دليل كلي، بخلاف المصالح المرسلة. فإنها تكون حيث لا يكون ثمة دليل سواها. والاستحسان علىٰ هذا النحو المالكي ينصب عليه استنكار الشافعي؛ لأنه مسلك في استخراج الأحكام غير الكتاب والسنة والإجماع والقياس، وقد حصر الشافعي مسالك الاستدلال في هذه الأمور الأربعة لا يعدوها المجتهد».

واضح أن الشافعي اتخذ هذا الموقف العنيف من الاستحسان؛ لأنه جنوح إلىٰ الرأي دون ضابط، وابتعاد عن الأصلين القرآن والسنة؛ لأن الابتعاد عنهما يمكن أن يترك آثارًا سيئة شتىٰ، أحدها من وجهة دراستنا: الافتقار المعنوي.

فتوىٰ الصحابي:

يأخذ الشافعي في جديده وقديمه بقول الصاحبي ويقدمه علىٰ القياس فقال في كتاب الأم:

«ما كان الكتاب والسنة موجودين فالعذر عمن سمعها مقطوع إلا باتباعها فأن لم يكن ذلك صرنا إلىٰ أقاويل أصحاب رسول الله ﷺ، أو واحد منهم، ثم كان قول أبي بكر أو عمر أو عثمان،إذا صرنا فيه إلىٰ التقليد كان أحب إلينا، وذلك إذا لم نجد دلالة في الاختلاف تدل علىٰ أقرب الاختلاف من الكتاب والسنة فنتبع القول الذي معه الدلالة؛ لأن قول الإمام مشهور بأنه يلزم الناس، ومن لزم قوله الناس كان أشهر من أن يفتي الرجل أو النفر، وقد يأخذ بفتياه أو يدعها، وأكثر المفتين يفتون للخاصة في بيوتهم ومجالسهم، ولا تعنىٰ العامة بما قالوا عنايتهم بما

قال الإمام، وقد وجدنا الأئمة يبتدئون، فيسألون عن العلم من الكتاب والسنة فيما أرادوا أن يقولوا فيه، ويقولون فيخبرون بخلاف قولهم فيقبلون من المخبر، ولا يستنكفون عن أن يرجعوا لتقواهم الله وفضلهم في حالاتهم، فإذا لم يوجد عن الأئمة، فأصحاب رسول الله ﷺ في الدين في موضع الأمانة أخذنا بقولهم، وكان اتباعهم أولىٰ بنا من اتباع من بعدهم».

يتضح من قول الشافعي المذكور أعلاه أنه يأخذ بأقوال أصحاب الرسول ﷺ، وكان يبدأ في تقديم أقوال أبي بكر وعمر وعثمان؛ لأن أقوالهم مشهورة ومكان تمحيص، فإن لم يوجد للأئمة المذكورين قول أخذ بقول أحد الصحابة؛ لأن اتباعهم أولىٰ من اتباع من بعدهم.

ولا شك أن الأخذ بفتوىٰ الصحابي أمر طيب؛ لأنه يزيد من الاغتناء النفسي للمسلم؛ لأنه ربط للمسلم بالصحابة بالإضافة إلىٰ الربط السابق بالرسول ﷺمن خلاف تفصيلات السنة التي مرت معنا.

❁ ❁ ❁ ❁

اختلاف مالك والشافعي:

دون الشافعي فصلًا في «الأم» سماه «اختلاف مالك والشافعي»[1] وقد جمع في هذا الفصل الأحاديث التي أقر مالك بصحتها وعمل بخلافها، وقد استنكر ذلك الشافعي أعظم استنكار، وتسائل كيف يمكن أن نقر بصحة حديث ونرفض العمل به؟ واعتبر ذلك مخالفة صريحة لسنة رسول الله ﷺ. ولا يحق لأحد بحال من الأحوال أن يعمل مثل هذا العمل، وليس من شك بأن هذا الموقف المناصر للسنة من الشافعي في وجه مالك يصب في خانة الاغناء النفسي؛ لأنه تأكيد علىٰ سنة رسول الله ﷺ وربط مهم بشخصه ﷺ.

❁ ❁ ❁ ❁

إن الشافعي كما رأينا زاد ارتباط الفقه بالسنة، ونصر مدرسة الحديث في وجه مدرسة الرأي من خلال عدة وقائع هي:

التأكيد علىٰ حجية السنة والرد علىٰ القائلين بضرورة عرض السنة علىٰ القرآن، والأخذ بأحاديث الآحاد، وجعل القياس مرتبطًا بأصل من آية أو حديث، والأخذ بفتوىٰ الصحابي وتقديمها علىٰ القياس، ورفضه الاستحسان؛

(١) تذكر الروايات أن الشافعي وهو تلميذ مالك كتب هذا الفصل وأخفاه فترة من الزمن، تهيبًا من رد فعل الناس، ولكن وجد أن الصدع بالحق أولى فأخرجه.

لأنه ابتعاد عن الأصلين: القرآن والسنة.

إن كل هذه المعطيات تغني البناء النفسي عند المسلم من وجهة نظر دراستنا، لأنها تجعل ارتباطه بالرسول أشد وتجعل استفاءه من معين سلوكه والاقتداء به أقوىٰ، مما يمكن أن نعتبره إشارة إيجابية، واتجاهًا سليمًا صحح الأمور بعد الجنوح القليل من مدرسة الرأي، وسار فيها بالاتجاه الذي يجب أن تسير فيه، وهو ما يؤكد حيوية العقل الإسلامي، الذي استشعر الجانب المرضي ورسم له دواء من جهة، ويؤكد أن مسيرة الفقه أخذت مسارها الصحيح علىٰ يد الشافعي.

والآن كيف سارت الأمور عند أحمد بن حنبل؟ هل حافظ علىٰ المسار الذي خطه الشافعي وعلىٰ الإيجابيات التي توصل إليها؟ هذا ما سنجد جوابه في دراستنا عن أحمد بن حنبل.



أحمد بن حنبل

أحمد بن حنبل من أسرة شيبان، أبوه محمد بن حنبل، وجده حنبل بن هلال، وكان مقام أسرة شيبات في البصرة لذلك عرف أحمد بن حنبل بأنه بصري، انتقل جده إلىٰ خرسان، وكان واليًا علىٰ سرخس في العهد الأموي ثم والىٰ الدعوة العباسية، وأبوه محمد كان قائدًا، وكانت أسرته بعد انتقالها إلىٰ بغداد تعمل للخلافة العباسية.

ولدأحمد ببغداد سنة ١٦٤ من الهجرة في شهر ربيع الأول، وتذكر الروايات أن أباه مات وهو طفل فقامت أمه علىٰ تربيته، وترك أبوه ببغداد عقارًا يسكنه وآخر يعطيه كسبًا قليلًا يبعده عن سؤال الناس.

إن نسبه الكريم من جهة وحاله الذي يجد فيه الكفاف من جهة أخرىٰ والهمة العالية من جهة ثالثة، هذه العوامل نسجت شخصية أحمد بن حنبل وكان لها أثر كبير في بنائه النفسي.

نشأ أحمد بن حنبل في بغداد التي كانت تزخر بأنواع الفنون والمعارف والرجال فقد كانت حاضرة العالم الإسلامي، فاتجه إلىٰ حفظ القرآن الكريم والحديث والسنة.

وقد اشتهر أحمد بين طلبة العلم، بالتقوىٰ والصبر والجلد، وقد اتجه أحمد بن حنبل في أول شبابه إلىٰ الحديث، فجمع حديث بغداد واستمر مقيمًا فيها من عام ١٧٩هـ إلىٰ ١٨٦هـ، ثم ارتحل يجمع الحديث من البلاد الأخرىٰ فسافر إلىٰ البصرة والحجاز واليمن، فدون كل ما سمعه واجتمع له المسند الذي يعتبر من أضخم كتب الحديث.

ولم يتوقف جهد أحمد بن حنبل عند جمع الحديث وتمحيص الروايت بل اتجه إلىٰ فقه الحديث والاستنباط وأصول الاستخراج ويدل علىٰ ذلك إعجابه بالشافعي ودعوته أقرانه إلىٰ الاستماع إليه.

ويتضح في شخصية أحمد أمران: حرصه علىٰ الاقتداء برسول الله ﷺ وتطبيق سننه جميعها، والثاني: اختيار سبيل الصحابة في فتاويهم ومواقفهم.

وقد امتحن أحمد بن حنبل علىٰ يد المأمون وخلفائه وصمد لهذا الامتحان، ونال شهرة واسعة بعد أن رفع المتوكل المحنة عن أهل السنة، وتوفي لاثنتي عشرة خلت من ربيع الأول عام ٢٤١هـ، وقد نقلت الروايات أن جنازته شهدها ما يقرب من ثمان مائة ألف شخص.

هذه خلاصة لحياة أحمد بن حنبل فما هي آراؤه الفقهية؟ وما دوره في استكمال خطوات تدعيم السنة التي بدأها الشافعي؟

وحتىٰ نستطيع أن نتبين دوره سنستعرض موقفه من السنة، ومن حديث الآحاد، ومن الحديث المرسل، ومن العمل بالحديث الضعيف، ومن فتوىٰ

الصحابي، ومن فتوىٰ التابعي، وسنرىٰ أثر أخذه بالحديث وبفتوىٰ الصحابي في فقهه.

❁ ❁ ❁ ❁

السنة:

حدد أحمد بن حنبل موقفه من السنة فقال في أحد كتبه التي تتحدث عن السنة[1]:

«إن الله جل ثناؤه وتقدست أسماؤه بعث محمدًا بالهدىٰ، ودين الحق ليظهره علىٰ الدين كله، ولو كره المشركون، وأنزل عليه كتابه بالهدىٰ والنور لمن اتبعه، وجعل رسول الله علىٰ ما أراد من ظاهره وباطنه، وخاصة وعامة، ناسخة ومنسوخة، وما قصد له الكتاب، فكان رسول الله هو المعبر عن كتاب الله الدال علىٰ معانيه، شاهده في ذلك أصحابه الذين ارتضاهم الله لنبيه واصطفاهم له، ونقلوا ذلك عنه، فكانوا أعلم الناس برسول الله ﷺ، وبما أراد الله من كتابه بمشاهدتهم، وما قصد له الكتاب فكانوا هم المعبرين عن ذلك بعد رسول الله ﷺ».

إذن نظم أحمد بن حنبل السنة تنظيمًا كبيرًا متابعًا الشافعي في ذلك، فهو

(١) أبو زهرة. أحمد بن حنبل. (ص،٢٢١).

يعتبر أن الذي يحق له تفسير القرآن الكريم هم الرسول ﷺ والصحابة، وأنه لا بد من أثر في ذلك.

لا شك أن هذا التنظيم للسنة سيكون له آثاره الكبيرة في بناء المسلم النفسي لأنه استمرار للمنهج الصحيح الذي طرحه الإسلام والذي سدّده الشافعي في مواجهة مدرسة الرأي.

حديث الآحاد:

إن الفيصل بين فقهاء الرأي وفقهاء الأثر هو الموقف من حديث الآحاد، فقد اعتبر فقهاء الأثر أن حديث الآحاد مخصص لعموم القرآن، في حين أن فقهاء الرأي يردون حديث الآحاد بعموم القرآن ويبررون ذلك بتصرف أبي بكر وعمر وعائشة رضي الله عنهم نقل ذلك عنهم أبو زهرة فقال[1]:

«قد بينا في هذا الجزء من بحثنا أن أحمد يجعل السنة مفسرة لظاهر القرآن، وأنها مبينة لمعناه، وأن أحاديث الآحاد ترتفع إلىٰ مرتبة تخصيص عام القرآن، وأن ذلك في الواقع قد يعد هو فيصل التفرقة بين الفقهاء الذين غلب عليهم الرأي، والفقهاء الذين غلب عليهم الأثر فإن الذين غلب عليهم الرأي لا يأخذون بأخبار الآحاد في مقام تعرض له القرآن، ولو بصيغة العموم؛ أي: يجعلون عمومات القرآن في عمومها، ويجعلون مرتبة الآحاد في مرتبة تخصيصها، أما الفقهاء الذين غلب عليهم الأثر فيخصصون عام القرآن بالخبر مطلقًا، وقد وضح

(١) المرجع السابق. (ص،٢٢٧).

منزعهم الشافعي في رسالته، وأحمد في كتابه الناسخ والمنسوخ، وابن تيمية وابن القيم فيما كتبا من كتب تعرضت لذلك كمنهاج السنة لابن تيمية، وأعلام الموقعين لابن القيم».

لكن أحمد بن حنبل يأخذ بكل سنة صحيحة ولا يردها ويجعلها مخصصة لعموم القرآن أو مقيدة لطلقة أو منشئة لحكم جديد، وينقل عن ذلك ابن القيم فيقول[1]:

«لو ساغ رد سنن الرسول ﷺ لما فهمه الرجل من ظاهر الكتاب لردت بذلك أكثر السنن، وبطلت بالكلية، فما من أحد يحتج عليه بسنة صحيحة تخالف مذهبه ونحلته إلا يمكنه أن يتشبث بعموم آية أو إطلاقها، ويقول هذه السنة مخالفة لهذا العموم، أو هذا الإطلاق، فلا يقبل وهؤلاء الروافض ردوا حديث: «**نحن معاشر الأنبياء لا نورث**» بعموم آية: ﴿ **يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوۡلَٰدِكُمۡۖ لِلذَّكَرِ مِثۡلُ حَظِّ ٱلۡأُنثَيَيۡنِۚ** ﴾[2] وما من أحد رد بها فهمه من القرآن إلا وقد قبل أضعافها مع كونها كذلك».

ليس من شك بأن موقف ابن حنبل من حديث الآحاد يعتبر استمرارًا لموقف الشافعي، وتدعيمًا لمدرسة الحديث في مواجهة مدرسة الرأي، وتسديدًا لمسيرة الفقع، وبالتالي إغناء لبناء المسلم النفسي.

(١) أبو زهرة. أحمد بن حنبل. (ص،٢٣٠).

(٢) (سورة النساء: الآية١١).

الحديث المرسل:

واعتبر ابن حنبل المرسل حجة لكنه قدم فتوىٰ الصاحبي عليه واعتبره من الأحاديث الضعيفة، وقدمه علىٰ القياس، وقد نقل ذلك عنه أبو زهرة فقال[1]:

«وقد اعتبر أحمد المرسلات من الأحاديث حجة، ولكنه أخرها عن فتوىٰ الصحابة، ووضعها في قرن مع الأحاديث الضعيفة، وهو بهذا خالف شيخه، ووافقه، فخالفه في أن المرسل مؤخر عن فتوىٰ الصحابة، فهو يقدمها عليه، إذ يعتبر فتاوىٰ الصحابىٰ من السنن علىٰ ما سنبين إن شاء الله تعالىٰ عند الكلام فيها».

كان ابن حنبل لا يأخذ الحديث عمن يتعمد الكذب، لكن يروي عمن عرف منه الغلط للاعتبار به والاعتضاد يقول ابن تيمية[2]:

«وهذه طريقة أحمد بن حنبل، لم يرو في سنده عمن يعرف أنه يتعمد الكذب، لكن يروي عمن عرف منه الغلط للاعتبار به، والاعتضاد».

العمل بالحديث الضعيف:

استقرت الأحاديث عند علماء الحديث إلىٰ ثلاثة أقسام:

الصحيح والحسن والضعيف:

لكن الأحاديث كانت في زمن ابن حنبل تقسم إلىٰ قسمين صحيح

(١) أبو زهرة. أحمد بن حنبل. (ص،٢٤١).

(٢) المرجع السابق. (ص،٢٤٤).

وضعيف، وكان الضعيف يشمل الحسن، لذلك احتوىٰ مسند أحمد بن حنبل علىٰ كثير من الضعيف وكان ابن حنبل يعمل بالضعيف إذا لم يكن هناك تحليل وتحريم.

فقد روي عنه أنه قال: «لا ترىٰ أحدًا ينظر في الرأي إلا وفي قلبه غل، والحديث الضعيف أحب إلىٰ من الرأي»، وقال عبد الله: سألته عن الرجل يكون في بلد لا يجد فيه إلا صاحب حديث لا ندري صحيحه من سقيمه، وصاحب رأي فمن يسأل؟ قال: «يسأل صاحب الحديث، ولا يسأل صاحب الرأي».

ولقد ذكر ابن الجوزي أن أحمد كان يقدم الحديث الضعيف علىٰ القياس، ولقد روي عنه أنه قال لابنه عبد الله: «يا بني لا أخالف ما ضعف من الحديث إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه»[(١)].

الخلاصة: أنه كان يقدم الحديث علىٰ الرأي والقياس ولو كان ضعيفًا.

فتوىٰ الصحابي:

كانت فتاوىٰ الصحابة عند ابن حنبل علىٰ درجات:

أولها: إذا لم يعرف خلافًا بينهم في تلك الفتوىٰ يأخذ به.

ثانيها: إذا اختلفوا اختار أقربها إلىٰ السنة، ذكر ابن القيم فقال[(٢)]:

«من أصوله (أي: أحمد) أنه إذا اختلف الصحابة تخير من أقوالهما كان

---

(١) المرجع السابق. (ص ٢٥١).

(٢) المرجع السابق. (ص ٢٥٨).

أقربها إلىٰ الكتاب والسنة ولم يخرج عن أقوالهم، فإن لم يتبين فيه موافقة أحد الأقوال حكىٰ الخلاف فيها، ولم يجزم بقول، قال اسحق بن إبراهيم بن هانيء في مسائله لأبي عبد الله: يكون الرجل في قومه فيسأل عن الشيء فيه اختلاف، قال: يفتي بما وافق الكتاب والسنة، وإذا لم يوافق الكتاب والسنة أمسك عنه».

ثالثها: إذا اختلفوا رجح أقوال الخلفاء، قال ابن القيم[1]:

«إذا قال الصحابي قولًا، فإما أن يخالفه صحابي آخر، أو يخالفه، فإن خالفه مثله لم يكن قول أحدهما حجة علىٰ الآخر، وإن خالفه أعلم منه، كما إذا خالف الخلفاء الراشدون أو بعضهم غيرهم من الصحابة في حكم، فهل يكون الشق الذي فيه الخلفاء الراشدون أو بعضهم حجة علىٰ الآخرين، فيه قولان للعلماء، وهما روايتان عن الإمام أحمد، والصحيح أن الشق الذي فيه الخلفاء الراشدون أو بعضهم أرجح وأولىٰ أن يؤخذ به من الشق الآخر، فإن كان الأربعة في شق، فلا شك أنه الصواب، وإن كان أكثرهم في شق فالصواب فيه أغلب، وإن كانوا اثنين فشق أبي بكر وعمر أقرب إلىٰ الصواب، فإذا اختلف أبو بكر وعمر، فالصواب مع أبي بكر، وهذه جملة لا يعرف تفصيلها إلا من له خبرة والاطلاع علىٰ ما يختلف فيه الصحابة وعلىٰ الراجح من أقوالهم».

إذا كان أحمد يأخذ بفتوىٰ الصحابي ويقدمها علىٰ الضعيف والمرسل الذي يرسله التابعي لا الصحابي.

---

(١) المرجع السابق. (ص ٢٥٨).

هل كان يأخذ بفتوىٰ الصحابي علىٰ أنها السنة أو أنها اجتهاد من الصحابة واجتهادهم أولىٰ من اجتهاده؟

كان يأخذ أقوالهم لا أنها من قبيل النقل بل علىٰ أنها المرجح الثاني لفهم الدين والشرع الاسلامي لأنهم أقرب إلىٰ الرسول، يذكر أبو زهرة فيقول[1]:

«وعندي لا نستطيع أن نقول أن أحمد كان يعتبر كل فتاوىٰ الصحابة من قبيل النقل، ونستطيع أن نقول إنه كان يأخذ بأقواهم علىٰ أنها المرجع الثاني لفهم الدين والشرع الإسلامي، بعد أقوال النبي ﷺ؛ لأنهم أقرب إلىٰ الرسول وقد عاينوا، وشاهدوا، وأثنىٰ الله عليهم، وعلىٰ من اتبعهم بإحسان إلىٰ يوم الدين، فأقوالهم تقبل، فإن كان طريقها التوقف لا محالة فهي أثر، وإن كان للرأي فيها مجال، فهو رأي مقتبس من هدي النبي ﷺ لصحبتهم له عليه السلام، وتقبلهم هديه، وإدراكهم لمرامي التنزيل، فاتباعهم سنة، وإن لم تكن كل أقوالهم أحاديث أو في قوة الأحاديث».

وقد حرر ابن القيم كلامًا في الموضوع نفسه فقال[2]:

«إن الصحابي إذا قالا قولًا، أو حكم بحكم، أو أفتىٰ بفتيا، فله مدارك ينفرد بها عنا، ومدارك نشاركه فيها، فإنما ما يختص به، فيجوز أنه سمعها من النبي ﷺ، شفاهًا، أو من صحابي آخر عن النبي ﷺ، وإن ما انفردوا به من العلم عنا أكبر

(١) المرجع السابق. (ص ٢٦٤).

(٢) المرجع السابق. (ص ٢٦٥).

من أن يحاط به، فلم ير كل منهم كل ما سمع، وأين ما سمعه الصديق رضي الله عنه، والفاروق، وغيرهم من كبار الصحابة إلىٰ ما رووه، فلم يرو عن صديق الأمة مائة حديث، وهو لم يغب عن النبي ﷺ في شيء من مشاهده، بل صحبه من حين بعث، بل قبل البعث إلىٰ أن توفي، وكان أعلن الأمة به ﷺ، وبقوله وفعله، وهديه وسيرته، وكذلك أجلة الصحابة، روايتهم قليلة جدًا إلىٰ ما سمعوه من نبيهم، وشاهدوا، ولو رووا كل ما سمعوه وشاهدوه، لزاد علىٰ رواية أبي هريرة أضعافًا مضاعفة. فإنما صحبه نحو أربع سنين، وقد روىٰ عنه الكثير، فقول القائل لو أن عند الصحابي في هذه الواقعة شيئًا قول لم يعرف سيرة القوم وأحوالهم، فإنهم كانوا يهابون الرواية عن رسول الله ﷺ، ويعظمونها، وينقلونها خوف الزيادة والنقص، ويحدثون بالشيء الذي سمعوه من النبي ﷺ مرارًا ولا يصرحون بالسماع، ولا يقولون قال رسول الله ﷺ، فتلك الفتوىٰ التي يفتي بها أحدهم لا تخرج عن ستة وجوه:

(أحدها) أن يكون سمعها من النبي ﷺ.

الثاني) أن يكون سمعها ممن سمعها.

(الثالث) أن يكون فهمها من آية من كتاب الله فهمًا خفي علينا.

(الرابعه) أن يكون قد اتفق عليه ملؤهم، ولم ينقل إلينا إلا قول المفتي بها وحده.

(الخامس) أن يكون لكمال علمه باللغة، دلالة اللفظ علىٰ الوجه الذي انفرد

به عنا، أو لقرائن حالية اقترنت بالخطاب، أو لمجموع أمور فهمها علىٰ طول الزمان من رؤية النبي ﷺ، ومشاهدة أفعاله وأحواله، وسيرته وسماع كلامه والعلم بمقاصده، وشهود تنزيل الوحي، ومشاهدة تأويله بالفعل فيكون فهم ما لا نفهمه نحن وعلىٰ هذه التقادير الخمسة تكون فتواه حجة علينا يجب اتباعها.

(السادس) أن يكون فهم ما لم يره عن النبي ﷺ وأخطأ في فهمه، وعلىٰ هذا التقدير لا يكون قوله حجة، ومعلوم قطعًا أن وقوع احتمال من خمسة أغلب علىٰ الظن من وقوع احتمال واحد معين. هذا ما لا يشك فيه عاقل، وذلك يفيد ظنًا غالبًا قويًا علىٰ أن الصواب في قوله. وليس المطلوب إلا الظن الغالب، والعمل به متعين، وكفىٰ العارف هذا الوجه».

لا شك أن أخذ أحمد بن حنبل بفتاوىٰ الصحابة علىٰ أنهم المرجع الثاني لفهم الدين بعد الرسول ﷺ أخذ قيم وسديد؛ لأنه ربط للمسلم بخير جيل عرفته البشرية، ولذلك آثاره الكبيرة في مجالات متعددة ومنها: البناء النفسي للمسلم.

فتوىٰ التابعي:

كان أحمد بن حنبل يقبل فتوىٰ كبار التابعين ابتعادًا عن الرأي، يذكر أبو زهرة فيقول[1]:

«ومهما يكن ذلك الاختلاف، ومهما تكن الروايات عن أحمد في هذا فإن المشهور عند الحنابلة المقرر عنه علمائهم أن أحمد رضي الله عنه كان في كثير من

(١) المرجع السابق. (ص ٢٧٠).

الأحيان يباعد الاجتهاد بالرأي تورعًا، حتىٰ أنه كان إذا لم يجد أثرًا ولو ضعيفًا لم يعرف وضعه، أخذ بفتاوىٰ علماء الأثر كفتاوىٰ مالك رضي الله عنه، والثوري وسفيان بن عيينة والأوزاعي وغيرهم، ومن كان شأنه كذلك فلا بد أنه يقبل فتاوىٰ بعض كبار التابعين كسعيد بن المسيب وغيره من فقهاء المدينة السبعة الذين انتهىٰ إليهم فقه عمر وابن عمر وزيد، يأخذ بهذه الأقوال علىٰ أنها أصل فقهي، بل بالاحتياط والاستئناس، كما كان شأنه في الخبر الضعيف فقد احتاط، فأخذ به، وإنه لم يعتبره صحيح النسبة ولم يحكم بصدقه، فأخذ به؛ لأنه أحب إليه من القياس ولأنه أحوط».

إن أخذ أحمد بن حنبل بفتوىٰ التابعي خطوة جديدة بالمقارنة مع الأصول التي أخذ بها الشافعي، وهي تدعيم لمسيرة البناء النفسي؛ لأنها ربط للمسلم بجيل آخر من المسلمين ورثوا خيرًا عظيمًا من الصحابة، وبالتالي سيكون له أثره في إغناء المسلم النفسي.

القياس:

قال أحمد: «لا يستغني أحد عن القياس»، ولم ينف أحمد القياس نفيًا كاملًا ولم يغال فيه مغالاة العراقيين.

وقد بين أبو زهرة موقف ابن حنبل المعتدل من القياس فقال[1]:

«ولقد كان لأحمد المحدث والفقيه موقف حسن، فكان بين ذلك قوامًا، فلم

---

(١) المرجع السابق. (ص ٢٨٤).

ينف القياس نفيًا باتًا كما فعل الظاهرية الذين حكموا بالنصوص دون سواها، وسهل لهم طريقهم أنهم لم يبتلوا باستفتاء الناس، فلم يقصدوهم، كما قصدوا أبا حنيفة ومالكًا والشافعي وأحمد، ولم يغال في القياس مغالاة العراقيين الذين خالفوا أبا حنيفة وتلاميذه، أخذ أحمد بالقياس وقرره كما جاء في الروضة لابن قدامة الحنبلي أن أحمد رضي الله عنه قال: «لا يستغني أحد عن القياس» وهي كلمة حق بالنسبة للمفتي الذي يتصدىٰ للإفتاء، فإنه مضطر إليه لا محالة؛ لأن الناس يجدّ لهم من الحوادث ما يقتضي قياسًا غير منصوص علىٰ منصوص، ولا يستطيع الفقيه أن يجد لكل حادثة نصًا من الكتاب أو السنة أو فتاوىٰ الصحابة، وما دام لا يجد شيئًا من ذلك فإما ألا يفتي، فيكون الناس في حرج شديد، ولا يعلمون أحكام الدين في أعمالهم، وإما أن يقيس دفعًا للحرج وإجابة لداعي الإرشاد والهداية، ولا يغني في هذا فتيلًا».

إذن تابع أحمد بن حنبل الشافعي في الأخذ بالقياس الذي يقيس فيه علىٰ نص من كتاب أو سنة.

أثر إحاطة ابن حنبل بالمأثور عله فقهه:

بين أبو زهرة أثر إحاطة أحمد بن حنبل بالأحاديث علىٰ حسن الاستنباط في مذهبه، وتوسعة باب القياس، واستغنائه عن الفقه التقديري والافتراضي، وإثراء ثروته الفقهية فقال[1]:

---

(١) المرجع السابق. (ص،٢٧٥).

«وذلك لأن إحاطة أحمد رضي الله عنه بكل الأحاديث أو بجلها أعطاه ثروة من الأقضية والأحكام جعلته يحسن الاستنباط فيجد أحكام الحوادث منصوصة، وفوق ذلك وسع باب القياس، فأصبحت الأمور التي تقع ولا يجد لها نصًا، يستطيع بعلمه بالنصوص الكثيرة، بالأقضية والفتاوىٰ المروية أن يجد لها الشبيه ويحسن التنظير بين المسائل، وأن يسعفه حفظ الكثر من المأثور، فيتخير منها أقرب الأشياء والأمثال بالواقعة النازلة، وليس كذلك الذي يكون علمه بالحديث ليس جامعًا، فإن التنظير لا يكون عنده إلا بمقدار ما حفظ، فيقيس علىٰ أمور قد يكون الشبه ليس في قوة أمر آخر غير مطلع عليه، والشبه فيه أقوىٰ، والأوصاف المناسبة فيه أظهر والعلل الضابطة فيه أقوىٰ وأبين، القياس عليه أهدىٰ سبيلًا من غيره.

وإذا كان الجامع بالأحاديث والأخبار من شأنه أن يسهل سبل القياس، ويجعله أحكم وأقرب إلىٰ مرامي الشارع ومقاصده العامة المبثوثة في نصوص الرسول وأعماله وأقواله، فإن العلم بالفتاوىٰ المضادة وأقضيته علمًا جامعًا يمد الفقيه بعناصر الفقه كاملة، ويعطيه أحكامًا لأشتات من الحوادث في الأقاليم المتباينة، وقد واجه الإسلام حضارات مختلفة.

وذلك لأن الصحابة بعد فتح الأمصار تفرقوا فيها، فتفرقوا في اليمن والشام ومصر والعراق وفارس وغيرها من الأقاليم الإسلامية، وقد واجهوا في هذه الأقاليم الحضارات المختلفة للبلاد المفتوحة، ورأوا الأحداث التي وقعت من امتزاج الحضارات المختلفة بعضها ببعض في صدر الإسلام، واستنبطوا

أحكام هذه الحوادث من المروي عن رسول الله ﷺ، فقد كان منهم القضاة والمفتون الذين يرجع إليهم في بيان الأحكام الشرعية في كل ما يجد من الحوادث، وعلىٰ ذلك تكون أقضية الصحابة وفتاويهم، وكذلك أقضية كبار التابعين وفتاويهم، صورًا ناقلة لأشكال الحضارات والمدنيات التي تواردت علىٰ العقل الإسلامي، وتفتحت لأحكامها مصادر الفقه الإسلامي، واستنطقها أولئك العلية من الصحابة وكبار التابعين.

فإذا كان أحمد رضي الله عنه قد أوتي علمًا جامعًا بفتاوىٰ الصحابة وكبار التابعين الذين يرتضي آراءهم ومنهجهم فقد وجد ألوانًا من الحوادث تغنيه في الفتوىٰ عن الفرض والتقدير الذي وسع الفقه الحنفي، وإذا كان من فرق بين الأمرين، فهو أن هذه الفتاوىٰ التي أمدت بالاستنباط، وفتحت فقهه موضوعها حوادث واقعة حية متنوعة الألوان والأشكال، أما الحوادث المفروضة فإنها ليست قوة من الحياة، وهي ذاتها لون واحد؛ لأن خيال الفقيه في التفريغ يكون مقيدًا بنوع ما وجد حكمه وجنسه، إن هو مربوط بموضوعه، وفوق ذلك فإن أحمد يجد الحادثة وعلاجها الذي اهتدىٰ إليه من التمس علمه من رسول الله ﷺ من غير توسط أحد، وعلىٰ هذا نستطيع أن نقول أن أحمد رضي الله عنه بجمعه لفتاوىٰ الصحابة وأقضيتهم وفتاوىٰ كبار التابعين وأقضيتهم قد أمد الفقه الحنبلي بحوادث كثيرة وأحكامها، وفي ذلك ثروة فقهية، وتوسيع المذهب، كما وسع الفرض والتقدير المذهب الحنفي».

أثر اعتماد ابن حنبل علىٰ فتاوىٰ الصحابة في فقهه:

كما بين أبو زهرة أثر اعتماد أحمد بن حنبل علىٰ فتاوىٰ الصحابة في اكتشافه أصول الاستنباط مثل: القياس والمصالح المرسلة والاستصحاب والنظر إلىٰ مقاصد الشريعة وإثبات حجية هذه الأصول، بين ذلك فقال[1]:

«وإن فتاوىٰ الصحابة أمدته بنوع آخر من العلم، فقد أمدته بالطريقة التي كان يعالج بها الصحابة المسائل التي تعرض لهم، والدعاوىٰ التي تعرض عليهم، وليس عندهم نص عن النبي ﷺ أو لم يتعرض القرآن لبيان الحكم تفصيلًا، ومن طريقة معالجتهم يعرف مناهج الاستنباط، ومصادر الشريعة ومواردها، فمن مواردهم في معالجة الحوادث واستنباط أحكامها عرف أن القياس حجة: - وأصل من أصول الاستنباط عند عدم النص، ومن مناهجهم عرف أن المصالح المرسلة سبيل قويم من سبيل الاستدلال إن لم يكن نص، ومن طرائقهم علم أن الاستصحاب حجة، وأن الأشياء علىٰ أصل الإباحة العفو، حتىٰ يقوم الدليل الذي يطلب أو يمنع، ومن طرائقهم عرف أن الذرائع طريق الحكم الصحيح علىٰ الشيء طلبًا ومنعًا، وأن النظر إلىٰ المآلات واجب، كما أن النظر إلىٰ الفعل في ذات نفسه واجب أيضًا.

وهكذا كان علم أحمد الجامع بفتاوىٰ الصحابة وأقضيتهم مددًا غزيرًا لما وصل إليه من فقه، وكانت فتاوىٰ الصحابة التي جمعها، وسهل سبيل معرفتها

(١) المرجع السابق.(ص،٣٧٧- ٣٧٨).

لتلاميذه وأتباعهم فيها الغذاء الصالح الذي عالجوا به المسائل من بعد إمامهم، ونموا مذهبه، حتىٰ صار بهذه القوة والمرونة اللتين تراهما واضحتين في الكتب المدونة فيه قديمًا وحديثًا».

ثم وضح أبو زهرة أن نتيجة ذلك كانت نجاة مذهب أحمد بن حنبل من الأزمات التي مرت بها بعض المذاهب الأخرىٰ بسبب اعتماده علىٰ فتاوىٰ الصحابة وأقضيتهم.

❁ ❁ ❁ ❁

نرىٰ -إذن- من خلال استعراضنا للفقه عند أحمد بن حنبل أنه استمر في السير علىٰ منهج الشافعي من ناحية نصرة السنة وتعظيم دورها في البناء الفقهي، كما استمر في الأخذ بحديث الآحاد في القول والعمل وجعله مخصصًا لعموم القرآن موافقًا في ذلك الشافعي، ومخالفًا لمواقف مالك وأبي حنيفة، ونجد أنه خالف الشافعي في تقديمه فتوىٰ الصاحبي علىٰ الحديث المرسل الذي يعتبره من الأحاديث الضعيفة، كما أنه قدّم الحديث علىٰ الرأي والقياس ولو كان ضعيفًا، وهو في أخذه بفتوىٰ الصحابىٰ كان يعتبرها من قبيل النقل؛ لأنه كان يعتبرهم المرجع الثاني لفهم الدين والشرع الإسلامي بعد الرسول ﷺ، كما كان يأخذ بفتوىٰ التابعي ابتعادًا عن الرأي.

إن المسار السابق الذي أخذه الفقه عند أحمد بن حنبل يعتبر استكمالًا للمسار السليم الذي افتتحه الشافعي وتعميقًا له من ناحية تعميق الارتباط بأقوال الرسول ﷺ وبفتاوي الصحابة رضي الله عنهم، وبفتاوي التابعين رحمهم الله، إن هذا المسار أعطىٰ الفقه الحنبلي سعة لم تشهدها المذاهب الأخرىٰ، وقدرة حسنة علىٰ الإستنباط، وتوسعة في باب القياس، واستغناء عن الفقه التقديري والافتراضي، كما أن الأخذ بفتوىٰ الصحابة جعله يكتشف أصول الاستنباط مثل: المصالح المرسلة والاستصلاح والنظر إلىٰ مقاصد الشريعة، كما أنه جنبه الأزمات التي مرت بها المذاهب الأخرىٰ ومنها إجازة الحيلة.

وربما جاء هذا المسار السليم الذي اتبعه أحمد بن حنبل ناتجًا من أنه اشتغل بجمع الحديث فتوفر له أكبر مسند عرفه التاريخ وجاء من أنه رفض أن تدون فتاويه وأصر علىٰ ربط المسلمين بحديث رسول الله ﷺ.

والسؤال الآن: ما أثر هذا المسار علىٰ البناء النفسي للمسلم في مجال دراستنا؟ إن أثره كان مزيدًا من الإغناء النفسي للمسلم؛ لأن أحمد بن حنبل ربطه بكل تفصيلات السنة من حديث آحاد وحديث ضعيف ابتعادًا عن الرأي، كما أنه زاد علىٰ سابقية تأكيده علىٰ الأخذ بفتوىٰ الصحابىٰ؛ لأنها ربط للمسلم بخير جيل عرفته البشرية، كما أنه زاد في أخذ فتوىٰ التابعي ابتعادًا عن الرأي ونهلًا من منابع الخير المتبقية، ولا شك أن هذه القواعد التي ألزم أحمد بن حنبل نفسه جاءت نتيجة وعيه بأهمية دور السنة وبإدراكه قيمة الصحابة والتابعين في بناء المسلم،

وأورثت فقهه غنًىٰ نفسيًا، مما جعل المسلم يغتني نفسيًا بغنىٰ الفقه الذي يأخذ به.

والآن بعد أن رأينا كيف كانت مسيرة الفقه علىٰ يد أبي حنيفة ومالك، وكيف تم تصحيحها علىٰ يد الشافعي، وكيف اكتملت علىٰ يد أحمد بن حنبل، فهل بقيت هذه المسيرة في اكتمالها؟ أم أنها انتكست بعد ذلك؟

الحقيقة إن مسيرة الفقه انتكست، وخضعت لما خضعت له فروع الثقافة الأخرىٰ، فتداخل معها مذهب الذرة والمنطق والفلسفة كما حدث مع العقائد بالضبط، فلنرصد ذلك ولنر نتائجه.



الفقه بعد أحمد بن حنبل

رأينا في الصفحات السابقة بداية نشوء الفقه، ثم رأينا تكوين مدراسة: الرأي والحديث، وكيف تصدىٰ الشافعي لمدرسة الرأي، ونصر السنة والحديث، ثم استكمل أحمد بن حنبل تلك المناصرة فأرسىٰ الاستفادة من أقضية الصحابة وفتاوىٰ التابعين فجاء فقهه أرحب وأكثر إغناء لبناء المسلم النفسي.

وكان الأجدىٰ علىٰ المسلمين لو أنهم أخذوا الفقه حسب نهايته التي انتهىٰ إليها، وتطوراته التي صار إليها لكن واقع الأمر غير التمني، فقد أخذ الفقه من كل إمام حسب ما دونه دون أن يستفاد من مسيرة الفقه المتنامية نحو الأصوب، وتمسك كل فريق بإمامه، ونشأت المذاهب الفقهية، ثم تولد التعصب المذهبي، ولذلك أسبابه التاريخية التي ليست من مجال بحثنا الآن، ولم تقف الأمور عند هذا الحد في مسيرة الفقه، بل تعرض الفقه لما تعرضت له كل الفروع الثقافية الإسلامية من تداخل مذهب الذرة معه، ثم المنطق، ثم الفلسفة، ولم يقف الأمر عند التداخل فحسب، بل كان لهذا التداخل آثاره التي انعكست في انحسار كثير من الإيجابيات كسبها الفقه أثناء تطوره الصاعد وبخاصة في مجال البناء النفسي للمسلم.

ونحن سنرصد أولًا تداخل هذه المذاهب مع الفقه أولًا، ثم نتائج هذا التداخل في مجال البناء النفسي ثانيًا.

المرحلة الأولىٰ: تداخل مذهب الذرة:

كان دخول مذهب الذرة إلىٰ الفقه من خلال كتب أصول الفقة، ومع أن أصول الفقه علم ذو نشأة إسلامية، وهو علم تنفرد به أمتنا إلا أن المؤرخين أصبحوا ينسبون أصول فقه الشافعي إلىٰ الصنف الأول الذي يعتمد مبادئ مذهب الذرة، مع أن النشأة كانت إسلامية محضة وبدواع إسلامية. وسنجد الإشارة إلىٰ أن مبادئ علم الكلام أصبحت شيئًا أساسيًا في بناء أصول الفقه، فقد ذكر الآمدي فقال في كتابه «الإحكام في أصول الأحكام» أن أصول الفقه يتكون من ثلاثة علوم ذكر ذلك فقال[1]:

«قد علم أن علم أصول الفقه، إنما هو الكلام، والعربية، والأحكام الشرعية، فمبادئه غير خارجة عن هذه الأقسام الثلاثة».

ثم خصص الآمدي قسمًا لمبادئ الكلام تحت عنوان: «في المبادئ الكلامية» فقال[2]:

«اعلم أنه لما كانت أصول الفقه، هي أدلة الفقه، وكان الكلام فيها مما يحوج إلىٰ معرفة الدليل وانقسامه، إلىٰ ما يفيد العلم أو الظن، وكان ذلك مما لا يتم دون النظر، دعت الحاجة إلىٰ تعريف معنىٰ الدليل، والنظر، والعلم، والظن، من جهة التحرير والتصوير لا غير».

---

(١) الآمدي. الأحكام في أصول الأحكام. (ج١،ص١١)

(٢) المرجع السابق. (ج١،ص١١).

ثم يعرف الدليل فيقول:

«أما الدليل فقد يطلق في اللغة بمعنىٰ الدال، هو الناصب للدليل، وقيل هو الذاكر للدليل، وقد يطلق علىٰ ما فيه دلالة وإرشاد. وهذا هو المسمىٰ دليلًا في عرف الفقهاء، وسواء كان موصلًا إلىٰ علم أو ظن، والأصوليون يفرقون بين ما أوصل إلىٰ العلم، وما أوصل إلىٰ الظن، فيخصون اسم الدليل بما أوصل إلىٰ العلم، واسم الأمارة بما أوصل إلىٰ الظن».

ثم يبين حده حسب ما يقوله الفقهاء فيقول[1]:

«وعلىٰ هذا، فحده علىٰ أصول الفقهاء: أنه الذي يمكنه أن يتوصل بصحيح النظر فيه إلىٰ مطلوب خبري.

فالقيد الأول احتراز عما لم يوصل به إلىٰ المطلوب، لعدم النظر فيه، فإنه لا يخرج بذلك عن كونه دليلًا، لما كان التوصل به ممكنًا. والقيد الثاني احتراز عما إذا كان الناظر في الدليل بنظر فاسد. والثالث احتراز عن الحد الموصل إلىٰ العلم التصوري. وهو عام للقاطع والظني».

ثم يبين حدة حسب العرف الأصولي فيقول[2]:

«وأما حده علىٰ العرف الأصولي: فهو ما يمكن التوصل به إلىٰ العلم بمطلوب خبري، وهو منقسم إلىٰ عقلي محض، ومركب من الأمرين.

---

(١) المرجع السابق. (ص١١).

(٢) المرجع السابق. (ص١١).

فالأول: كقولنا في الدلالة حدوث العالم: العالم مؤلف وكل مؤلف حادث، فيلزم عنه العالم حادث.

والثاني: كالنصوص من الكتاب، والسنة، والإجماع، والقياس كما يأتي تحقيقه.

الثالث: كقولنا في الدلالة علىٰ تحريم النبيذ: النبيذ مسكر، وكل مسكر حرام، لقوله عليه السلام: كل مسكر حرام، فيلزم عنه النبيذ حرام».

ثم ينقل تعريف النظر فيقول[1]:

«وقد قال القاضي أبو بكر في حده: هو الفكر الذي يطلب به من قام به علمًا أو ظنًا».

ثم ينقل اختلاف المتكلمين في تعريف العلم فيقول[2]:

«وأما العلم، فقد اختلف المتكلمون في تحديده: فمنهم من زعم أنه لا سبيل إلىٰ تحديده، لكن اختلف هؤلاء: فمنهم من قال: بيان طريق تعريفه إنما هو بالقسمة والمثال، كإمام الحرمين، والغزالي، وهو غير سديد، فإن القسمة، إن لم تكن مفيدة لتميزه عما سواه، فليست معرفة له، وإن كانت مميزة له عما سواه، فلا معنىٰ للتحديد بالرسم سوىٰ هذا.

ومنهم من زعم أن العلم بالعلم ضروري، غير نظري؛ لأن كل ما سوىٰ

(١) المرجع السابق. (ص،١٢).

(٢) المرجع السابق. (ص،١٢).

العلم لا يعلم إلا بالعلم، فلو علم العلم بالغير، كان دورًا، ولأن كل أحد يعلم وجود نفسه ضرورة، والعلم أحد تصورات هذا التصديق، فكان ضروريًا. وهو أيضًا غير سديد. أما الوجه الأول: فلأن جهة توقف غير العلم علىٰ العلم، من جهة كون العلم إدراكًا له، وتوقف العلم علىٰ الغير، لا جهة كون ذلك الغير إدراكًا للعلم، بل من جهة كونه صفة مميزة له عما سواه. ومع اختلاف جهة التوقف، فلا دور. أما الوجه الثاني فهو مبني علىٰ أن تصورات القضية الضرورية لا بد وأن تكون ضرورية، وليس كذلك؛ لأن القضية الضرورية هي التي يصدق العقل بها بعد تصور مفرداتها، من غير توقف بعد تصور المفردات علىٰ نظر واستدلال، سواء كانت التصورات ضرورية، أو نظرية».

ثم يختار الآمدي تعريفًا يحدده فيقول[1]:

«ومنهم من سلك في تعريفه التحديد. وقد ذكر في ذلك حدود كثيرة، أبطلناها في «أبكار الأفكار» والمختار في ذلك أن يقال: العلم عبارة عن صفة بها لنفس المتصف بها التمييز بين حقائق المعاني الكلية حصولًا لا يتطرق إليه احتمال نقيضه».

ويذكر أقسامًا فيقول[2]:

«وهو منقسم إلىٰ قديم لا أول لوجوده، وإلىٰ حادث بعد العدم. والحادث

---

(١) المرجع السابق. (ص ١٣).

(٢) المرجع السابق. (ص ٤١).

ينقسم إلىٰ ضروري، وهو العلم الحادث التي لا قدرة للمكلف علىٰ تحصيله بنظر واستدلال. فقلنا «العلم الحادث» احتراز عن علم الله تعالىٰ. وقولنا «لا قدرة للمكلف علىٰ تحصيله بنظر واستدلال» احتراز عن العلم النظري والنظري هو العلم الذي تضمنه النظر الصحيح.

وأما الظن فعبارة عن ترجح أحد الاحتمالين في النفس علىٰ الآخر من غير قطع».

أن تشكل اللغة العربية والأحكام الشرعية مادة لعلم الأصول فهذا أمر مفهوم؛ لكن غير المفهوم أن يعتبر الآمدي أن علم الأصول يقوم علىٰ ثلاثة علوم أولها علم الكلام، وإلا فكيف يمكن أن نوفق بين كتابة الشافعي «للرسالة»: كتاب أصول الفقه الأول وبين موقفه الرافض والمعادي لعلم الكلام وهو في بواكير نشأته، وليس عند اكتمال كيانه؟

ليس من شك بأن دخول علم الكلام إلىٰ علم الأصول أمر طارئ، وليس في أصل تكوينه، وإنما دخل إلىٰ علم الأصول عندما دخل مذهب الذرة إلىٰ البناء الثقافي الإسلامي، وتداخل بالتالي مع كل علومه ومنها: علم الأصول.

المرحلة الثانية: تداخل المنطق:

رأينا في دراستنا السابقة عن تطور البنية الثقافية الإسلامية، تداخل المنطق بعد تداخل مذهب الذرة معها، وقد حدث ذلك علىٰ يد الغزالي، ورأينا تداخل المنطق مع العقيدة في كتاب «الاقتصاد في الاعتقاد» له، وقد مر الفقه بالمرحلة

ذاتها، فاعتمدت مقدمات المنطق في الفقه علىٰ يد الغزالي، وقد كان ذلك واضحًا في كتاب «المستصفىٰ من علم الأصول» الذي ألّفه الغزالي في أواخر حياته.

يبدأ الغزالي فيقرر أن علم المنطق مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط به فلا ثقة في علومه، يقول: «ليست هذه المقدمة من جهة علم الأصول، ولأن مقدماته الخاصة به، بل هي مقدمة العلوم كلها ومن لا يحيط به فلا ثقة بعلومه أصلًا»[1].

ويبدأ كلامه بعنوان «بيان حصر مدراك العلوم النظرية في الحد والبرهان»[2]، ثم يتحدث بأن إدراك الأمور يبدأ من إدراك الذوات المفردة، ثم إدراك نسبة هذه المفردات بعضها إلىٰ بعض بالنفي أو الإثبات، كما تنسب القدم إلىٰ العالم بالنفي فتقول: ليس العالم قديمًا، والأول: أي الذوات المفردة الذي يستحيل فيه التصديق والتكذيب، والضرب الأخير هو الذي يتطرق إليه التصديق والتكذيب، وقد سمىٰ المنطقيون معرفة المفردات تصورًا، ومعرفة النسبة الخبرية بينهما تصديقًا، فقالوا: العلم إما تصور وإما تصديق.

ثم وضح الغزالي أن معرفة المفردات قسمان: أولي وهو الذي يرتسم معناه في النفس من غير بحث وطلب كلفظ الوجود، ومطلوب وهو الذي يدل اسمه منه علىٰ أمرٍ جملي غير مفصل ولا مفسر فيطلب تفسيره بالحد، وكذلك العلم ينقسم إلىٰ أولي كالضروريات وإلىٰ مطلوب كالنظريات، والمطلوب من المعرفة لا

---

(١) الغزالي. المستصفى من علم الأصول. (ص، ١٠).

(٢) المرجع السابق. (ص، ١١).

يقتنص إلا بالحد، والمطلوب من العلم الذي يتطرق إليه التصديق والتكذيب لا يقتنص إلا بالبرهان.

ثم انتهىٰ الغزالي إلىٰ النتيجة التالية: «فالبرهان والحد هو الآلة التي بها يقتنص سائر العلوم المطلوبة»[1].

ثم يبيّن الغزالي الحد، فذكر القوانين التي توضحه فذكر ستًا منها وهي:

القانون الأول: الحد يذكر جوابًا عن سؤال في المحاورات، وأمهات المطالب أربع: ما يطلب بصيغة هل؟، وبصيغة لم؟. وبصيغة أي؟.

القانون الثاني: «إن الحاد ينبغي أن يكون بصيرًا بالفرق بين الصفات الذاتية واللازمة والعرضية، وذلك غامض فلا بد من بيانه فنقول: المعنىٰ إذا نسب إلىٰ المعنىٰ الذي يمكن وصفه به وجد بالإضافة إلىٰ الموصوف إما ذاتيًا ويسمىٰ صفة نفس، وإما لازمًا ويسمىٰ تابعًا، وإما عارضًا لا يبعد أن ينفصل عنه في الوجود ولا بد من إتقان هذه النسبة فإنها نافعة في الحد والبرهان جميعًا»[2].

القانون الثالث: «إن ما وقع السؤال عن ماهيته وأردت أن تحده حدًا حقيقيًا فعليك فيه وظائف لا يكون الحد حقيقيًا إلا بها، فإن تركتها سميناه رسميًا أو لفظيًا ويخرج عن كونه معربًا عن حقيقة الشيء ومصورًا لكنه معناه في النفس.

الأولىٰ: أن تجمع أجزاء الحد من الجنس والفصول.

---

(١) المرجع السابق. (ص، ١٢).

(٢) المرجع السابق. (ص، ١٣).

الثانية: أن تذكر جميع ذاتياته وإن كانت ألفًا ولا تبالي بالتطويل لكن ينبغي أن تقدم الأعم علىٰ الأخص.

الثالثة: أنك إذا وجدت الجنس القريب فلا تذكر البعيد معه فتكون مكررًا.

الرابعة: أن تحرز من الألفاظ العربية الوحشية والمجازية البعيدة والمشتركة المترددة واجتهد في الإيجاز ما قدرت»[1].

القانون الرابع في طريق اقتناص الحد:

«اعلم أن الحد لا يحصل بالبرهان لأنا إذا قلنا في حد الخمر أنه شراب مسكر فقيل لنا لم كان محالًا أن يقام عليه برهان فإن لم يكن معنا خصم وكنا نطلبه فكيف نطلبه بالبرهان»[2].

القانون الخامس في حصر مداخل الخلل في الحدود:

«وهي ثلاثة فإنه تارة يدخل من جهة الجنس، وتارة من جهة الفصل وتارة من جهة أمر مشترك بينهما»[3].

القانون السادس:

«في أن المعنىٰ الذي لا تركيب فيه البتة لا يمكن حده إلا بطريق شرح اللفظ أو بطريق الرسم وأما الحد الحقيقي فلا»[4].

---

(١) المرجع السابق. (ص،١٥- ١٦).

(٢) المرجع السابق. (ص، ١٧).

(٣) المرجع السابق. (ص،١٨).

(٤) المرجع السابق. (ص، ١٩).

ثم ينتقل الغزالي إلىٰ الفن الثاني من دعامة الحد في الامتحانات للقوانين بحدود مفصلة، ويذكر ثلاثة امتحانات هي:

الامتحان الأول: «اختلف الناس في حد الحد فمن قائل يقول: حد الشيء هو حقيقته وذاته ومن قائل يقول حد الشيء هو اللفظ المفسر لمعناه علىٰ وجه يمنع ويجمع، ومن قائل ثالث يقول: هذه المسألة خلافية فينصر أحد الحديث علىٰ الآخر»[1].

الامتحان الثاني: «اختلف في حد العلم فقيل إنه المعرفة هو حد لفظي وهو أضعف أنواع الحدود فإنه تكرير لفظ بذكر ما يرادفه»[2].

الامتحان الثالث: «اختلفوا في حد الواجب فقيل الواجب ما تعلق به الإيجاب وهو فاسد كقولهم العلم ما يعلم به، وقيل ما يثاب علىٰ فعله ويعاقب علىٰ تركه، وقيل ما يجب بتركه العقاب، وقيل ما لا يجوز العزم علىٰ تركه وقيل:

ما يعتبر المكلف بتركه عاصيًا، وقيل: ما يلام تاركه شرعًا وأكثر هذه الحدود تعرض للوازم والتوابع وسبيلك إن أردت الوقوف علىٰ حقيقته أن تتوصل إليه بالتقسيم»[3].

ثم انتقل الغزالي إلىٰ الدعامة التالية من مدارك العقول في البرهان الذي به

---

(١) المرجع السابق. (ص، ٢١).

(٢) المرجع السابق. (ص، ٢٤).

(٣) المرجع السابق. (ص، ٢٧).

التوصل إلىٰ العلوم التصديقية المطلوبة بالبحث والنظر وقد بين الغزالي أن هذه الدعامة تشمل علىٰ ثلاثة فنون سوابق ولواحق ومقاصد.

بدأ الغزالي فبين أن «فن السوابق» يشتمل علىٰ تمهيد وثلاثة فصول، عرف الغزالي في التمهيد البرهان فقال: «اعلم أن البرهان عبارة عن أقاويل مخصوصة ألفت تأليفًا مخصوصًا بشرط مخصوص يلزم منه رأي هو مطلوب الناظر بالنظر، وهذه الأقاويل إذا وصفت في البرهان لاقتباس المطلوب منها سميت مقدمات، والخلل في البرهان يدخل من جهة نفس المقدمات إذ قد تكون خالية عن شروطها وأخرىٰ من كيفية الترتيب والنظم وإن كانت المقدمات صحيحة يقينية، ومرة منهما جميعًا»[1].

ثم وضح الغزالي أن الفصل الأول في فن السوابق في دلالة الألفاظ علىٰ المعاني، ويتضح المقصود منه بتقسيمات:

التقسيم الأول: «إن دلالة اللفظ علىٰ المعنىٰ تنحصر في ثلاثة أوجه وهي المطابقة والتضمن والالتزام»[2].

التقسيم الثاني: «إن الألفاظ بالإضافة إلىٰ خصوص المعنىٰ وشموله تنقسم إلىٰ لفظ يدل علىٰ عين واحدة ونسميه معينًا، كقولك زيد، وإلىٰ ما يدل علىٰ أشياء

---

(١) المرجع السابق. (ص، ٢٩).

(٢) المرجع السابق. (ص، ٣٠).

كثيرة تتفق في معنىٰ واحد ونسميه مطلقًا»[1].

التقسيم الثالث: «إن الألفاظ المتعددة بالإضافة إلىٰ المسميات المتعددة علىٰ أربعة منازل، ولنخترع لها أربعة ألفاظ وهي: المترادفة والمتباينة والمتواطئة والمشتركة»[2].

ثم ينتقل الغزالي إلىٰ الفصل الثاني من السوابق ويتعلق بالنظر في المعاني المفردة ويظهر الغرض من ذلك بتقسيمات ثلاثة:

«الأول: أنه إذا وصف بالمعنىٰ ونسب إليه وجد إما ذاتيًا وإما عرضيًا وإما لازمًا.

الثاني: أنه إذا نسب إليه وجد إما أعم كالوجود بالإضافة إلىٰ الجسمية أو إما أخص كالجسمية بالإضافة إلىٰ الوجود، وإما مساويًا كالمتحيز بالإضافة إلىٰ الجوهر عند قوم وإلىٰ الجسم عند قوم.

الثالث: إن المعاني باعتبار أسبابها المدركة لها ثلاثة، محسوسة ومتخيّلة ومعقولة»[3].

ثم ينتقل إلىٰ الفصل الثالث من السوابق في أحكام المعاني المؤلفة فيقول: «قد نظرنا في مجرد اللفظ ثم في مجرد المعنىٰ فننظر الآن في تأليف المعنىٰ علىٰ وجه يتطرق

(١) المرجع السابق. (ص، ٣٠).

(٢) المرجع السابق. (ص، ٣١).

(٣) المرجع السابق. (ص، ٣٣).

إليه التصديق والتكذيب»[1].

ثم ينتقل الغزالي إلىٰ الفن الثاني في المقاصد وفيه فصلان:

الأول في صورة البرهان، والبرهان عبارة عن مقدمتين معلومتين تؤلف تأليفًا مخصوصًا بشرط مخصوص، فيتولد بينهما نتيجة، وليس يتحد نمطه بل يرجع إلىٰ ثلاثة أنواع مختلفة المآخذ والبغايا ترجع إليها، ثم يعدد هذه الأنماط فيقول:

«النمط الأول: ثلاثة أضرب، مثال الأول: قولنا: كل جسم مؤلف، وكل مؤلف حادث، فلزم أن كل جسم حادث، ومن الفقه قولنا: كالنبيذ مسكر، وكل مسكر حرام، فلزم أن كل نبيذ حرام؛ فهاتان إذا سلمتا علىٰ هذا الوجه لزم بالضرورة تحريم النبيذ فإن كانت المقدمات قطعية سميناها برهانًا، وإن كانت مسلمة سميناها قياسًا جدليًا، وإن كانت مظنونة سميناها قياسًا فقهيًا»[2].

الثاني: «أن يكون العلة حكمًا في المقدمتين مثاله قولنا: الباري تعالىٰ ليس بجسم، لأن الباري غير مؤلف، وكل جسم مؤلف، فالباري تعالىٰ- إذن ليس بجسم، فهاهنا ثلاثة معان: الباري والمؤلف والجسم، والمكرر هو المؤلف فهو العلة»[3].

الثالث: «أن تكون العلة مبتدأ في المقدمتين»[4].

(١) المرجع السابق. (ص، ٣٥).
(٢) المرجع السابق. (ص، ٣٨).
(٣) المرجع السابق. (ص، ٣٩).
(٤) المرجع السابق. (ص، ٤٠).

ثم يعرض الغزالي للنمط الثاني من البرهان وهو نمط التلازم:

«وهو يشتمل علىٰ مقدمتين، المقدمة الأولىٰ تشمل علىٰ قضيتين، والمقدمة الثانية تشتمل علىٰ إحدىٰ تينك القضيتين تسليمًا إما بالنفي أو بالإثبات حتىٰ تستنتج منه إحدىٰ تينك القضيتين أو نقيضها»(١).

النمط الثالث من البرهان:

«نمط التعاند وهو علىٰ ضد ما قبله والمتكلمون يسمونه السبر والتقسيم، والمنطقيون يسمونه الشرطي المنفصل وهو أيضًا يرجع إلىٰ مقدمتين ونتيجة»(٢).

ثم ينتقل الغزالي إلىٰ الفصل الثاني من فن المقاصد في بيان مادة البرهان، وهي المقدمات الجارية من البرهان مجرىٰ الثوب من القميص.

ثم يبين مدراك التعيين وهي سبعة أقسام:

الأول: الأوليات وهي العقليات المحضة.

الثاني: المشاهدات الباطنة.

الثالث: المحسوسات الظاهرة.

الرابع: التجريبيات.

الخامس: المتواترات.

السادس: الوهميات.

---

(١) المرجع السابق. (ص، ٤٠).

(٢) المرجع السابق. (ص، ٤٢).

السابع: المشهورات.

ثم ينتقل الغزالي إلىٰ الفن الثالث من دعامة البرهان وهو اللواحق[1] وفيه فصول منها:

رجوع الاستقراء والتمثيل إلىٰ الأنماط المذكورة سابقًا، ووجه لزوم النتيجة من المقدمات، وانقسام البرهان إلىٰ برهان علة وبرهان دلالة.

المنطق أيضًا في كتب أخرىٰ:

استخدام الغزالي المنطق في كتب أخرىٰ مثل: «القسطاس المستقيم»، وأطلق علىٰ القياس اسمًا إسلاميًا هو الميزان، لذلك أصبحت بعض الأقيسة المنطقية تحمل الأسماء التالية:

ميزان التعادل وهو القياس الحملي.

ميزان التلازم وهو القياس الشرطي المنفصل.

كما استخدمه في كتاب آخر وهو «معيار العلم»، وعرض فيه المباحث المنطقية عرضًا مبسطًا مستعملًا الأمثلة الفقهية.

ابن حزم والمنطق:

كان ابن حزم قد دعا إلىٰ استخدام المنطق قبل الغزالي فألف كتابًا تحت عنوان «التقريب لحدود المنطق»، وأكثر فيه من الأمثلة الفقهية.

مناقشة موقف الغزالي من المنطق:

(١) المرجع السابق. (ص ٤٩- ٥٥).

عندما دعا الغزالي إلىٰ استخدام المنطق في العلوم الشرعية، ووظفه بالفعل في مجال العقائد والفقه، هل جاء ذلك نتيجة حاجة الساحة الإسلامية وافتقارها إلىٰ القياس المنطقي؟ أم جاء ذلك نتيجة أن القياس المنطقي أكثر صوابًا من القياس الأصولي[1]؟

أما بالنسبة للسؤال الأول:

فإن الساحة الإسلامية لم تكن بحاجة إلىٰ القياس المنطقي؛ لأن القياس الأصولي الذي جاء إفرازًا طبيعيًا لتطورات البناء الثقافي الإسلامي كان مناسبًا لهذا البناء من جهة، وكان ملبيًا لحاجاته من جهة ثانية.

أما بالنسبة للسؤال الثاني:

فالقياس الأصولي أكثر صوابًا من القياس المنطقي، وذلك لأن العلم يأتي من القضية الجزئية وليس من القضية الكلية، ولأن المحدود لا يصور بالحد إنما بالمشاهدة والمعاينة، وأن حد المناطقة إنما هو تصوير للماهية، والماهية تابعة لما يتصوره الذهن، وأن المقدمتين اللتين يوجب القياس المنطقي وجودهما لا ضرورة لهما فقد يحتاج الدليل إلىٰ مقدمة أو إلىٰ مقدمتين أو إلىٰ أكثر من ذلك إلخ....

وقد قارن الدكتور محمد سليمان داود بين القياس الأصولي والقياس المنطقي وأثبت أن القياس الأصولي أكثر صوابًا من القياس المنطقي وقد استفاد من

(١) لا أريد أن أتعرض إلى قضية ارتباط القياس المنطقي بفلسفة أرسطو، وأنه تعبير عن ذلك البناء الثقافي، وأن نقله إلى بناء ثقافي آخر لا يعطي النتائج التي أعطاها في مجاله الثقافي السابق.

ملاحظات ابن تيمية في هذا المجال وبين ذلك فقال[1]:

«ويمكن أن نستخلص موقف ابن تيمية من مسألة التصور في علاقته بالحد فيما يأتي:

١- رفض تصور المحدود بالحد علىٰ وجه الإطلاق وإنما التصور لا يكون إلا بالمشاهدة والمعاينة، وليست بأي حد منطقي أو غير منطقي.

٢- إن حد المتكلمين أقرب إلىٰ معرفة المحدود من حد المناطقة من جهة كونه يفيد التمييز بينه وبين غيره، ولأنه أوجز وأجمع وأخص.

٣- إن حد المناطقة لا يصور المحدود، إنما هو تصوير للماهية، والماهية تابعة لم يتصوره الذهن، وليست تابعة إلىٰ الحقائق في ذاتها في الخارج، فهي تتوقف علىٰ اعتبار الحاد بما يراه من ذاتيات مشتركة ومميزة؛ أي: ما يراه من جنس وفصل، وتلك صفات مردها إلىٰ أمر وصفي محض، فكل فرد يمكن أن يخترع ماهية في نفسه تغاير ما اخترعه الآخر».

ثم ينقل الدكتور داود ملاحظات أخرىٰ لابن تيمية حول موضوعات أخرىٰ في القياس المنطقي منها:

(١) التصديق لا ينال إلا بالقياس:

يرفض ابن تيمية هذه القضية لعدم وجود دليل علىٰ صدقها.

(٢) الحد الأوسط، هل من ضرورة من وجوده في البرهان؟

---

(١) د. محمد سليمان داود. نظرية القياس الأصولي. (ص،٣١٣).

يذكر ابن تيمية أنماطًا من التصديقات لا وجود فيها للحد الأوسط منها: البديهي، وبرهان الدلالة، والمتواترات، والمجربات.

(٣) القضية الكلية، وهل من ضرورة من وجودها في البرهان؟

ما من قضية كلية وتجعل مقدمة في البرهان إلا والعلم بالنتيجة ممكن بدون وجودها. فمن الممكن العلم أن «هذا الواحد نصف الإثنين من غير استدلال علىٰ ذلك بالقضية الكلية إلخ.... والقضية الكلية إنما تكون في الأذهان لا في الأعيان وإنه برهانهم فلن نصل إلىٰ العلم بشيء موجود، بل بأمور مقدرة في الأذهان، لا يعلم تحققها في الأعيان، وبذلك يكون قليل التفقه إن لم يكن عديمها في معرفة الموجودات الخارجية التي لا تكون إلا جزئية».

(٤) المقدمتان وهل من ضرورة من وجودهما في علم نظري؟

ينفي ابن تيمية ذلك فلا يوجد في رأيه من سائر أصناف العقلاء غير هؤلاء لا ينظم دليله إلا من مقدمتين ويقول: «الدليل قد يكون من مقدمة واحدة، وقد يكون مقدمتين وقد يكون مقدمات».

(٥) صور الاستدلال اليونانية:

يناقش ابن تيمية صور الاستدلال اليونانية ويصل إلىٰ «وجود المصادرة علىٰ المطلوب في القياس» ويقول إن ما ثبت للكلي فقد ثبت لكل واحد من جزئياته، ويرد الأقيسة إلىٰ بعضها ويرجع الاقتراني والشرطي إلىٰ معنىٰ واحد، وينتهي إلىٰ

القول بأن «مدار الاستدلال علىٰ مادة العلم لا علىٰ صورة القياس»[1] وأن من الممكن أن نتصور الكثير من الاستدلالات، فالاستدلال يحمل من العلم بأحوال الشيء وملزومه ولوازمه فيجعل من اللازم والملزوم مبدأ في كل استدلال.

ويشابه ابن تيمية بين «قياس التمثيل» و«القياس الأصولي» عند الفقهاء المتكلمين باشتراك الجزءين في علة الحكم أو دليل الحكم، أي أنه «قياس علة» أو «قياس دلالة».

ويخرج القياس عن النظر في العلوم النظرية أو العلوم العملية، وينتهي بالقول بأنه لا يبقىٰ في أيدي المناطقة إلا أمور مقدرة في الأذهان لا حقيقة لها في الأعيان.

(٦) يضيف ابن تيمية وجوهًا أخرىٰ من النقد إلىٰ القياس المنطقي هي:

١- ليس القياس المنطقي إلا صورة لدليل من غير بيان صحته أو فساده.

٢- القضايا اليقينية لا تدخل ضمن القضايا الكلية في القياس مثل: الحسيات، الوجدانيات، المجربات، المتواترات.

٣- أن المعين المطلوب علمه بالقضايا الكلية يعلم قبلها ويدونها.

٤- التصور التام للحد الأوسط يغني عن القياس المنطقي.

٥- كل تصور يمكن جعله تصديقًا وبالعكس[2].

❁ ❁ ❁ ❁

---

(١) المصدر السابق. (ص،٢٦)

(٢) ينتهي الدكتور محمد سليمان داود في كتابه السابق ذكره إلى أن المدارس العلمية الحديثة في أوروبا تخلت عن القياس المنطقي، وبدأت تضع أسسًا تلتقي مع الأسس التي يقوم عليها القياس الأصولي.

إذن الخلاصة التي يمكن أن ننتهي إليها من خلال مناقشة ابن تيمية للقياس المنطقي أنه أقل صوابًا من القياس الأصولي، وأنه مصادرة علىٰ المطلوب، وأنه تعقيد للأمور.

❁ ❁ ❁ ❁

المرحلة الثالثة:

تداخل القضايا الفلسفية:

انتقلت كثير من القضايا الفلسفية والفروض النظرية- التي أثارت جدلًا كبيرًا بين الفرق الإسلامية المختلفة- إلىٰ كتب الفقه وأصوله وهذا مخالف لنشأة علم الأصول وعمل الشافعي فيه الذي اتجه فيه نحو الأمور العملية لا الفروض النظرية، ومن هذه الأمور التي أثيرت: الحسن والقبح، هل هما عقليان أم شرعيان؟ ومبدأ اللغات هل هو من الله أم من الناس؟ وشكر الله تعالىٰ هل يجب عقلًا أو سمعًا؟ وعصمة الأنبياء هل تمتد إلىٰ ما قبل النبوة؟ وتكليف المعدوم هل يجوز أو لا؟ إلخ....

ونحن سنتناول بعضًا من هذه القضايا كي نتلمس أبعاد هذا التداخل.

١- الحسن والقبح:

تساءلت كتب أصول الفقه هل الحسن والقبيح عقليان؟ أن أنهما بالشرع؟

وقد أجاب الآمدي عن ذلك فقال[1]:

«مذهب أصحابنا وأكثر العقلاء أن الأفعال لا توصف بالحسن والقبح لذواتها، وأن العقل لا يحسن ولا يقبح، وإنما إطلاق اسم الحسن والقبح عندهم باعتبارات ثلاثة، إضافية غير حقيقية.

أولها: إطلاق اسم الحسن علىٰ ما وافق الغرض، والقبيح علىٰ ما خالفه. وليس ذلك ذاتيًا لاختلافه وتبدله بالنسبة إلىٰ اختلاف الأغراض، باختلاف اتصاف المحل بالسواد والبياض.

وثانيها: إطلاق اسم الحسن علىٰ ما أمر الشارع بالثناء علىٰ فاعله، ويدخل فيه أفعال الله تعالىٰ، والواجبات والمندوبات، دون المباحات.

وإطلاق اسم القبيح علىٰ ما أمر الشارع بذم فاعله، ويدخل في الحرام، دون المكروه والمباح، وذلك أيضًا مما يختلف باختلاف ورود أمر الشارع في الأفعال.

وثالثها: إطلاق اسم الحسن علىٰ ما لفاعله مع العلم به، والقدرة عليه أن يفعله، بمعنىٰ نفي الحرج عنه في فعله وهو أعم من الاختبار الأول ولدخول المباح فيه. والقبيح في مقابلته، ولا يخفىٰ أن ذلك أيضًا مما يختلف باختلاف الأحوال، فلا يكون ذاتيًا. وعلىٰ هذا فما كان من أفعال الله تعالىٰ بعد ورود الشرع فحسب بالاعتبار الثاني والثالث، وقبله بالاعتبار الثالث، وما كان من أفعال العقلاء قبل ورود الشرع فحسنه وقبيحه بالاعتبار الأول والثالث، وبعده

---

(١) الآمدي. الإحكام في أصول الأحكام. (ص، ٧٦).

بالاعتبارات الثلاثة».

ثم يبين رأي الفرق المخالفة فيقول[1]:

«وذهب المعتزلة، والكرامية، والخوارج، والبراهمة، والثنوية وغيرهم إلىٰ أن الأفعال منقسمة إلىٰ حسنة وقبيحة لذواتها، ولكن منها ما يدرك حسنه وقبحه بضرورة العقل، كحسن الإيمان، وقبح الكفران، أو بنظره كحسن الصدق المضر، وقبح الكذب النافع، أو بالسمع كحسن العبادات. لكن اختلفوا: فزعمت الأوائل من المعتزلة أن الحسن والقبيح غير مختص بصفة موجبة لحسنه وقبحه، ومنهم من أوجب ذلك كالجبائية، ومنهم من فصل وأوجب ذلك في القبيح دون الحسن».

ثم يعضد وجهة نظره ببعض الحجج ويناقش مخالفيه ويستغرق ذلك عدة صفحات.

يناقش الغزالي مسألة حسن الأفعال وقبحها فيقول[2]:

«ذهبت المعتزلة إلىٰ أن الأفعال تنقسم إلىٰ حسنة وقبيحة فمنها ما يدرك بضرورة العقل كحسن إنقاذ الغرقىٰ والهلكىٰ وشكر المنعم ومعرفة حسن الصدق وكقبح الكفران وإيلام البرئ، والكذب الذي لا غرض فيه، ومنها ما يدرك بنظر العقل كحسن الصدق الذي فيه ضرر وقبح الكذب الذي فيه نفع، ومنها ما يدرك

(١) المرجع السابق. (ص، ٧٧).

(٢) الغزالي. المستصفى. (ج١،ص ٥٥).

بالسمع كحسن الصلاة والحج وسائر العبادات وزعموا أنها متميزة عن غيرها بما فيها من اللطف المانع من الفحشاء الداعي إلىٰ الطاعة لكن العقل لا يستقل بدركه فنقول قول القائل: هذا حسن وهذا قبيح لا يحسن بفهم معناه ما لم يفهم معنىٰ الحسن والقبح فإن الاصطلاحات في إطلاق لفظ الحسن والقبح مختلف فلا بد من تلخيصها والاصطلاحات فيه ثلاثة».

ثم يبين هذه الاصطلاحات.

٢- مبدأ اللغات:

ناقشت كتب الأصول نشأة اللغة، واختلفت في ذلك، فمال بعض المؤلفين إلىٰ أن الله تعالىٰ هو واضع اللغة، ومال بعضهم الآخر إلىٰ أن الناس هم مبدأ اللغة، عرف الآمدي وجهتي النظر فقال[(١)]:

«فذهب الأشعري، وأهل الظاهر، وجماعة من الفقهاء إلىٰ أن الواضع هو الله تعالىٰ، ووضعه متلقىٰ لنا من جهة التوقيف الإلهي، إما بالوحي، أو بأن يخلق الله الأصواب والحروف، ويسمعها لواحد أو لجماعة، ويخلق له أو لهم العلم الضروري بأنها قصدت علىٰ المعاني، محتجين علىٰ ذلك بآيات، منها قوله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمۡ عَلَى ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُواْ سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ ﴾[(٢)].

(١) الآمدي. الإحكام في أصول الأحكام. (ج١. ص٧٠).

(٢) (سورة البقرة، الآيتان ٣١- ٣٢).

دل علىٰ أن آدم والملائكة لا يعلمون إلا بتعليم الله تعالىٰ، ومنها قوله تعالىٰ: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[1] وقوله تعالىٰ: ﴿تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[2] وقوله تعالىٰ: ﴿ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾[3]، واللغات داخلة في هذه المعلومات، وقوله تعالىٰ: ﴿إِنْ هِىَ إِلَّآ أَسْمَآءٌ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[4]، ذمهم علىٰ تسمية أشياء من غير توقيف، علىٰ أن ما عداها توقيف. وقوله تعالىٰ: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ﴾[5]، والمراد به اللغات لا نفس اختلاف هيأت الجوارح من الألسنة لأن اختلاف اللغات أبلغ في مقصود الآية، فكان أولىٰ بالحمل عليه.

وذهبت البهشمية وجماعة من المتكلمين إلىٰ أن ذلك من وضع أرباب اللغات واصطلاحهم، وأن واحدًا أو جماعة ابنعثت داعيته، أو دواعيهم، وضع هذه الألفاظ بإزاء معانيها. ثم حصل تعريف الباقين بالإشارة والتكرار، كما يفعل الوالدان بالولد الرضيع، وكما يعرف الأخرس ما في ضميره بالإشارة والتكرار مرة بعد أخرىٰ محتجين علىٰ ذلك بقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ﴾[6]،

---

(١) (سورة الأنعام: الآية ٣٨).

(٢) (سورة النحل: الآية ٨٩).

(٣) (سورة العلق: الآيات ٣- ٥).

(٤) (سورة النجم: الآية ٢٣).

(٥) (سورة الروم: الآية ٢٢).

(٦) (سورة إبراهيم: الآية٤).

وهذا دليل علىٰ تقدم اللغة علىٰ البعثة والتوقيف».

كما عرض الغزالي وجهتي النظر فقال[1]:

«وقد ذهب قوم إلىٰ أنها اصطلاحية إذ كيف تكون توقيفًا ولا يفهم التوقيف إذا لم يكن لفظ صاحب التوقيف معروفًا للمخاطب باصطلاح سابق، وقال قوم إنها توقيفية إذ الاصطلاح لا يتم إلا بخطاب التنبيه والبعث علىٰ الاصطلاح يكون بالتوقيف وما بعده يكون بالاصطلاح والمختار أن النظر في هذا إما أن يقع في الجواز أو في الوقوع، أما الجواز العقلي فشامل للمذاهب الثلاثة والكل في حيز الإمكان أما التوقيف فبأن يخلق الأصوات والحروف بحيث يسمعها واحد أو جمع ويخلق لهم العلم بأنها قصدت للدلالة علىٰ المسميات والقدرة الأزلية لا تقصر عن ذلك، وأما الاصطلاح فبأن يجمع الله دواعي جمع من العقلاء للاشتغال بما هو مهم وحاجتهم من تعريف الأمور الغائبة التي لا يمكن الإنسان أن يصل إليها، فيبتدأ واحد ويتبعه الآخر حتىٰ يتم الاصطلاح، بل العاقل الواحد ربما ينقدح له وجه الحاجة وإن كان التعريف بتأليف الحروف فيتولىٰ الوضع ثم يعرف الآخرين بالإشارة والتكرير معها للفظ مرة بعد أخرىٰ كما يفعل الوالدان بالولد الصغير، وكما يعرف الأخرس ما في ضميره بالإشارة، وإذا أمكن كل واحد من القسمين أمكن التركيب منهما جميعًا، أم الواقع من هذه الأقسام فلا مطمع في معرفته يقينًا إلا ببرهان عقلي أو بتواتر خبر، أو سمع قاطع، ولا مجال لبرهان العقل في هذا ولم

---

(١) الغزالي. المستصفى. (ج١، ص٣١٨).

ينقل تواتر ولا فيه سمع قاطع فلا يبقىٰ إلا رجم الظن في أمر لا يرتبط به تعبد عملي ولا ترهق إلىٰ اعتقاده حاجة، فالخوض فيه إذا فضول لا أصل له، فإن قيل: قال الله تعالىٰ: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾[1] وهذا يدل علىٰ أنه كان يوحي وتوقيف فيدل علىٰ الوقوع وإن لم يدل علىٰ استحالة خلافة قلنا: وليس ذلك دليلًا قاطعًا عل الوقوع أيضًا، إذ يتطرق إليه أربع احتمالات، أحدهما: أنه ربما ألهمه الله تعالىٰ الحاجة إلىٰ الوضع، فوضع بتدبيره وفكره ونسب ذلك إلىٰ تعليم الله تعالىٰ؛ لأنه الهادي والملهم ومحرك الداعية كما تنسب جميع أفعالنا إلىٰ الله تعالىٰ، الثاني: أن الأسماء ربما كانت موضوعة باصطلاح من خلقه الله تعالىٰ قبل آدم من الجن أو فريق من الملائكة فعلمه الله تعالىٰ ما تواضع عليه غيره، الثالث أن الأسماء صيغة عموم فلعله أراد به أسماء السماء والأرض وما في الجنة والنار دون الأسامي التي حدثت مسمياتها بعد آدم عليه السلام من الحرف والصناعات والآلات وتخصيص قوله تعالىٰ: ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾[2] وقوله تعالىٰ: ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾[3] إذا يخرج عنه ذاته وصفاته، والرابع أنه ربما علمه ثم نسبه أو لم بعلم غيره ثم اصطلح بعده أولاده علىٰ هذه اللغات المعهودة الآن والغالب أن أكثرها حادثة بعدد».

---

(١) (سورة البقرة: الآية ٣١).

(٢) (سورة النمل: الآية ٢٣).

(٣) (سورة الأحقاف: الآية ٢٥).

٣- شكر النعم: اختلتف المذاهب في أنه هل يجب شكر المنعم عقلًا أم سمعًا؟ فنقل الآمدي الخلاف في ذلك فقال[١]:

«مذهب أصحابنا وأهل السنة أن شكر المنعم واجب سمعًا لا عقلًا خلافًا للمعتزلة في الوجوب العقلي.

احتج أصحابنا علىٰ امتناع إيجاب العقل لذلك، بأن قالوا: لو كان العقل موجبًا، فلا بد وأن يوجب لفائدة إلىٰ الله تعالىٰ لتعاليه عنها، وإن عادت إلىٰ العبد فإما أن تعود عليه في الدنيا، أو في الآخرة.

الأول محال فإن شكر الله تعالىٰ عند الخصوم ليس هو معرفة الله تعالىٰ؛ لأن الشكر فرع المعرفة، وإنما هو عبارة عن إتعاب النفس وإلزام المشقة لها بتكليفها تجنب المستقبحات العقلية، وفعل المستحسنات العقلية، وهو فرع التحسين والتقبيح العقلي، وقد أبطلناه، فلم يبق سوىٰ التعب والعناء المحض الذي لا حظ للنفس فيه.

والثاني محال؛ لعدم استقلال العقل بمعرفة الفائدة الأخروية دون إخبار الشارع بها، ولا إخبار. وأيضًا فإنه لا معنىٰ لكون الشيء واجبًا سوىٰ ترجح فعله علىٰ تركه. وبالعقل يعرف الترجيح لا أنه مرجح، فلا يكون موجبًا، إذ اموجب هو المرجح، وإذا بطل الإيجاب العقلي تعين الإيجاب الشرعي ضرورة انعقاد الإجماع علىٰ حصر الوجوب في الشرع والعقل، فإذا بطل أحد القسمين تعين الثاني منهما».

---

(١) الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام. (ج١،ص٨٣).

وقد تحدث الغزالي عن القضية ذاتها فقال[1]:

«لا يجب شكر المنعم عقلًا خلافًا للمعتزلة، ودليله أن لا معنىٰ للواجب إلا ما أوجبه الله تعالىٰ وأمر به وتوعد بالعقاب علىٰ تركه، فإذا لم يرد خطاب فأي معنىٰ للوجوب، ثم تحقيق القول فيه أن العقل لا يخلو إما أن يوجب ذلك لفائدة أو لا لفائدة ومحال، أن يوجب لا لفائدة فإن ذلك عبث وسفه، وإن كان لفائدة فلا يخلو إما أن ترجع إلىٰ المعبود وهو محال إذ يتعالىٰ ويتقدس عن الأغراض أو إلىٰ العبد وذلك لا يخلو إما أن تكون في الدنيا أو في الآخرة ولا فائدة له في الدنيا، بل يتعب بالنظر والفكر والمعرفة والشكر ويحرم به عن الشهوات واللذات ولا فائدة له في الآخرة فإن الثواب تفضل من الله يعرف بوعده وخبره فإذا لم يخبر عنه فمن أين يعلم أنه يثاب عليه؟».

٤- عصمة الأنبياء قبل النبوة:

عرض الآمدي للرأي في عصمة الأنبياء قبل النبوة وبعدها وبين الاختلاف في العصمة فقال[2]:

«أما قبل النبوة، فقد ذهب القاضي أبو بكر، وأكثر أصحابنا، وكثير من المعتزلة إلىٰ أنه لا يمتنع عليهم المعصية كبيرة كانت أو صغيرة، بل ولا يمتنع عقلًا إرسال من أسلم وآمن بعد كفره. وذهبت الروافض إلىٰ امتناع ذلك كله منهم قبل

---

(١) الغزالي. المستصفى، (ج١،ص٦١).

(٢) الآمدي. الأحكام في أصول الأحكام. (ج١، ص).

النبوة؛ لأن ذلك مما يوجب هضمهم في النفوس واحتقارهم، والنفرة عن اتباعهم، وهو خلاف مقتضىٰ الحكمة من بعثة الرسل، ووافقهم علىٰ ذلك أكثر المعتزلة إلا في الصغائر. والحق ما ذكره القاضي؛ لأنه لا سمع قبل البعثة يدل علىٰ عصمتهم عن ذلك، والعقل دلالته مبينة علىٰ التحسين والتقبيح العقلي، ووجوب رعاية الحكمة في أفعال الله تعالىٰ، وذلك كله مما أبطلناه في كتبنا الكلامية».

٥- تكليف المعدوم:

نقل الآمدي جواز تكليف المعدوم فقال[1]:

«مذهب أصحابنا جواز تكليف المعدوم، وربما أشكل فهم ذلك مع إحالتنا لتكليف الصبي والمجنون والغافل والسكران، لعدم الفهم للتكاليف والمعدوم أسوأ حالًا من هؤلاء في هذا المعنىٰ، لوجود أصل الفهم في حقهم، وعدمه بالكلية في حق المعدوم، حتىٰ أنكر ذلك جميع الطوائف».

❁ ❁ ❁ ❁

مناقشة إدخال الفلسفة إلىٰ أصول الفقه:

رأينا فيما سبق أن كتب أصول الفقه ناقشت عدة قضايا منها:

الحسن والقبح، مبدأ الصفات، عصمة الأنبياء قبل النبوة، جواز تكبق

(١) المرجع السابق. (ج١،ص١٤١).

المعدوم، شكر المنعم هل يجب عقلًا أم سمعًا؟... ولا شك أن هذه الأمور مثارة من قبل في النطاق العقلي والفلسفي، ولكل مدرسة وجهة نظرها التي تعضدها بالحجج والبراهين المناسبة، ثم جاء إسقاطها في الفقه وأصوله نتيجة تداخل المدارس الفلسفية مع البناء الثقافي الإسلامي، وإلا فما فائدة مناقشة مبدأ الصفات: هل هي توقيفية أو اصطلاحية؟ وكيف يمكن أن يتصور أن معدومًا يمكن أن يكلف حتىٰ يصار إلىٰ القول: جواز تكليف المعدوم؟ وكيف يمكن أن يحسم موضوع عصمة الأنبياء قبل النبوة دون الاستناد إلىٰ أدلة شرعية يقينية؟

ليس من شك بأن مناقشة هذه الأمور في نطاق الفقه وأصوله بالإضافة إلىٰ عدم الجدوىٰ والفائدة والعائدة علىٰ الفقه وأصوله جنوح به إلىٰ خط معاكس للخط الذي نشأ فيه الفقه وأصوله وهو أنه جواب شرعي لأمرو مستجدة تحتاج إلىٰ فتوىٰ الدين علىٰ ضوء المعطيات الشرعية.



نتائج تداخل مذهب الذرة والمنطق والفلسفة في الفقه

رأينا أن الفقه نشأ ضمن نطاق مدرستين الأولىٰ: مدرسة الرأي، والثانية: مدرسة الحديث، وأن مدرسة الحديث علىٰ يد الشافعي تصدرت لمدرسة الرأي فصوبت الأمور في الساحة الفقهية، وسددتها من خلال عدة أمور:

١- نصرت مدرسة الحديث السنة وبينت حجيتها، وفندت الزعم القائل بضرورة عرض السنة علىٰ القرآن الكريم، فما وافقه أخذ به، وما خالفه وضع جانبًا، وبينت عدم صحة هذا الادعاء، وبينت أن السنة يمكن أن تنتشئ أحكامًا شرعية جديدة كما بينت في أكثر من حديث عن الرسول ﷺ، كما بين الشافعي في رسالته أهمية طاعة الرسول ﷺ، وتبين الصور التي جاء فيها الأمر بطاعة الرسول ﷺ مقرونة بطاعة الله مرة ومنفصلة عنه مرة أخرىٰ، من أجل توضيح أهمية هذه الطاعة.

ولا حاجة أن نوضح أن هذا التوجه لربط المسلم بالسنة وطاعة الرسول ﷺ له أثره الكبير في البناء النفسي وأنه تركيز لأصول المنهج الإسلامي.

٢- تلاحم الفقه مع الحديث، والمتصفح لكتاب الأم للشافعي يجد أن عمدة الأقول والأحكام فيه تدور حول الأحاديث الشريفة، وزاد التحام الفقه بالحديث عند أحمد بن حنبل حيث جمع أحمد أكبر كتاب في الحديث وهو المسند، حيث قال إنه سيكون للناس إمامًا، وليس من شك بأن التحام الفقه بالحديث

سيعني مزيدًا من الإغناء النفسي للمسلم؛ لأنه سيزيد من ر بطه بالرسول ﷺ.

٣- أخذت مدرسة الحديث بحديث الآحاد في القول والعمل، وجعلته مخصصًا لعموم القرآن ومقيدًا له، كما اعتبر الشافعي أن الحديث المنقطع له حجية.

٤- أخت مدرسة الحديث بفتوىٰ الصاحبي، وقدمتها علىٰ الرأي.

٥- أخذت مدرسة الحديث بفتوىٰ التابعي بدءًا من أحمد بن حنبل.

٦- قنّنت مدرسة الحديث القياس وربطته بأصل من قرآن أو سنة.

٧- أخذ أحمد بن حنبل بالحديث المرسل.

أظن لا حاجة للتوضيح -الآن- أن كل الأمور السابقة التي أرستها مدرسة الحديث لها دورها في الإغناء النفسي للمسلم؛ لأنها توسع رقعة الربط بالرسول ﷺ أو بجيل الصحابة والتابعين فذلك ما وضحته في ثنايا الصفحات السابقة.

والآن كيف سارت الأمور بعد تداخل مذهب الذرة والمنطق والفلسفة مع الفقه وأصوله بشكل عام؟ هل بقيت هذه العناصر التي اكتسبت والتي تعتبر عوامل مساعدة في الإغناء النفسي هل بقيت معتمدة في ساحة الفقه؟

الحقيقةأن ساحة الفقه خسرت كل العناصر التي كسبتها مدرسة الحديث ويمكن أن نوضح ذلك بما يلي:

١- بالنسبة لقضية السنة نجد تساهلًا في أخد الحديث، فراجب كثير من الأحاديث الموضوعة والضعيفة، كما نجد كثيرًا من البدع تفشت في كثير من

كتب الفقه، كما أنه لا يوجد هناك حرص في البحث عن سنة الرسول ﷺ واستقصائها في قضية من القضايا وعمل من الأعمال.

ويمكن أن يمثل علىٰ هذا بالغزالي في كتابه «إحياء علوم الدين» الذي يعتبر من أكثر الكتب رواجًا، وهو مملوء بالأحاديث الضعيفة وكما أنه مملوء بالبدع التي لا أصل لها في الشرع.

٢- ابتعد الفقه عن الحديث الشريف وأصبح يدون من خلال أقول الفقهاء، ونقولهم ولا تجد ذكرًا لأي حديث مما يجعل الأحكام أقل أثرًا في البناء النفسي للمسلم فيما لو كانت مرتبطة بأقوال الرسول ﷺ و أفعاله.

٣- حديث الآحاد ليس حجة:

نقل الآمدي فقال: «اختلفوا في الواحد العدل إذا أخبر بخبر هل يفيد خبره العلم؟» نقل اختلاف وجهات النظر فقال[1]:

«ذهب قوم إلىٰ أنه يفيد العلم، ثم اختلف هؤلاء: فمنهم من قال إنه يفيد العلم بمعنىٰ الظن لا بمعنىٰ اليقين، فإن العلم قد يطلق ويراد به الظن، كما في قوله تعالىٰ ﴿فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَاتٍ﴾[2]؛ أي: ظننتموهن.

ومنهم من قال: أنه يفيد العلم اليقيني من غير قرينه، لكن من هؤلاء من قال: ذلك مطرد في خبر كل واحد، كبعض أهل الظاهر، وهو مذهب أحمد بن

---

(١) (سورة الممتحنة: الآية١٠).

(٢) الآمدي. الإحكام في أصول الأحكام. (ج٢،ص٣٢).

حنبل في احدىٰ الروايتين عنه. ومنهم من قال إنما يوجد ذلك في بعض أخبار الآحاد، لا في الكل، وإليه ذهب بعض أصحاب الحديث. ومنهم من قال أنه يفيد العلم، إذا اقترنت به قرينة، كالنظام ومن تابعه في مقالته. وذهب الباقون إلىٰ أنه لا يفيد العلم اليقيني مطلقًا، لا بقرينة ولا بغير قرينة».

ثم يبين الآمدي رأيه فيقول(١):

«والمختار حصول العلم بخبره، إذا اختفت به القرائن. ويمتنع ذلك عادة دون القرائن، وإن كان لا يمتنع خرق العادة بأن يخلق الله تعالىٰ لنا العلم بخبره من غير قرينة».

ثم دلل الآمدي علىٰ وجهة نظره من وقوع العلم بخبر الواحد إذا اقترنت به قرائن فيقول(٢):

«وأما جواز وقوع العلم بخبر الواحد، إذا احتفت به القرائن، فيدل عليه أن القرنية قد تفيد الظن مجردة عن الخبر، وذلك كما إذا رأينا إنسانًا يكثر النظر إلىٰ شخص مستحسن، فإنا نظن حبه به، فإذا اقترن بذلك ملازمته له، زاد ذلك الظن ولا يزال في التزايد بزيادة خدمته له وبذل ماله وتغير حاله، إلىٰ غير ذلك من القرائن، حتىٰ يحمل العلم بحبه له، كما في تزايد الظن في أخبار الآحاد حتىٰ يصير توترًا».

---

(١) المرجع السابق. (ج٢،ص٣٢).

(٢) المرجع السابق. (ج٢،ص٣٦).

ثم ينقل الآمدي الاختلاف في وجوب العمل بحديث الآحاد، ثم ينقل شروط العمل بخبر الواحد فيكر أربعة منها هي: أن يكون الراوي مكلفًا، وأن يكون مسلمًا، وأن يكون ضبطه لما يسمعه أرجح من عدم ضبطه، وأن يكون متصفًا بالعدالة وينتهي إلىٰ النتيجة التالية: وعلىٰ هذا فمن اعتقد كون المسألة قطعية. فقد تعذر كلية النفي والاثبات لعدم مساعدة الدليل القاطع علىٰ ذلك، ومن اعتقد كونها ذلك.

ومن اعتقد كونها ظنية فليتمسك بما شاء من المسالك المتقدمة، والله أعلم بالصواب».

ثم ينقل فيما اختلف في رد خبر الواحد به، منها إذا ورد موجب للعمل فيما تعم به البلوىٰ، وخبر الواحد العدل إذا اثبت أن النبي ﷺ عمل بخلافه، وخبر الواحد إذا خالف القياس.

ثم يذكر الغزالي في المستصفىٰ كلامًا قريبًا من كلام الآمدي حول خبر الآحاد في الجزء الأول من المستصفىٰ في الصفحات (١٤٥- ١٧١).

٤- مذهب الصحابي ليس حجة:

ذكر الآمدي الموقف من مذهب الصحابي فقال:

«اتفق الكل أن مذهب الصحابي في مسائل الاجتهاد لا يكون حجة علىٰ غيره من الصحابة المجتهدين، إمامًا كان أو حاكمًا أو مفتيًا.

واختلفوا في كونه حجة علىٰ التابعين ومن بعدهم من المجتهدين، فذهبت

الأشاعرة والمعتزلة والشافعي في أحد قوليه وأحمد بن حنبل في إحدىٰ الروايتين عنه، والكرخي إلىٰ أنه ليس بحجة، وذهب مالك بن أنس، والرازي والبرذعي من أصحاب أبي حنيفة والشافعي في قول له، وأحمد بن حنبل في رواية لها إلىٰ أنه حجة مقدمة علىٰ القياس، وذهب قوم إلىٰ أنه إن خالف القياس فهو حجة، وإلا فلا، وذهب قوم إلىٰ أن الحجة في قول أبي بكر وعمر دون غيرهما. والمختار أنه ليس بحجة مطلقًا».

وقد تحدث الغزالي –أيضًا– عن مذهب الصحابي فقال[1]:

«والأصل الثاني من الأصول الموهومة قول الصحابي، وقد ذهب قوم إلىٰ أن مذهب الصحابي حجة مطلقًا وقوم إلىٰ أنه حجة إن خالف القياس، وقوم إلىٰ أن الحجة في قول أبي بكر وعمر خاصة لقوله ﷺ:«اقتدوا باللذين من بعدي»، وقوم إلىٰ أن الحجة في قول الخلفاء الراشدين إذا اتفقوا والكل باطل عندنا».

٥- فتوىٰ التابعي:

لم يأخذ كل من الآمدي والغزالي بفتوىٰ الصحابي في أصولهما، فمن باب أولىٰ ألا يأخذا بفتوىٰ التابعي.

٦- القياس:

استشرىٰ القياس المنطقي في الفقه بدءًا من الغزالي، وأظن لا حاجة بنا إلىٰ إعادة الكلام عن القياس المنطقي الذي قلناه في مكان آخر من هذا الكتاب.

---

(١) الغزالي. المستصفى. (ج١،ص٢٦١).

والخلاصة التي يمكن أن تنتهي إليها تأتي جوابًا علىٰ السؤال الذي طرحناه آنفًا، هو أن ساحة الفقه خسرت عناصر إغناء نفسي كانت كسبتها مدرسة الحديث وذلك نتيجة تداخل مذهب الذرة والمنطق والفلسفة، وهو ما ساهم في إفقار المسلم المعنوي.



الخاتمة

درسنا عاملي بناء الأمة وهما: القرآن والسنة ووضحنا دورهما في بناء المسلم النفسي، ثم رأينا البناء الثقافي الذي انفرز حولها، ثم درسنا التطورات التر مرّ بها هذا البناء من خلال مجالين هما: العقيدة والفقه، ورأينا كيف أن دور العقيدة في البناء النفسي للمسلم كان يختلف بين مرحلة وأخرىٰ حسب عناصر التداخل مقارنة بدور العقيدة المستمدة من المصدرين الرئيسيين: القرآن والسنة، ففي تداخل مذهب الذرّة مع العقيدة أصبح المسلم يعاني الضمور المعنوي في بنائه النفسي، وفي تداخل الفلسفة أصبح المسلم يعاني شبه انعدام معنوي في بنائه النفسي.

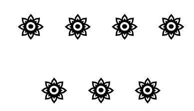
أما في مجال الفقه فقد رأينا كيف أن مدرسة الحديث علىٰ يد الشافعي ومن بعده أحمد بن حنبل قد سددت موقف مدرسة الرأي وبالتالي أصبح الفقه يحرص علىٰ السنة بشكل عام وعلىٰ حديث الآحاد في مجال الاعتقاد والعمل بشكل خاص، ويأخذ بفتوىٰ الصحابي وبفتوىٰ كبار التابعين ويأخذ بتقنين القياس الأصولي، وكان هذا التسديد له أثره في بناء المسلم النفسي؛ لأنه يعني زيادة ربط المسلم بشخصية الرسول ﷺ، وربطه كذلك بجيل الصحابة، ولا شك أن هاتين الخطوتين تعنيان مزيدًا من اغتناء المسلم النفسي؛ لأنهما ربط للمسلم بأهدىٰ رجل

وأفضل جيل.

ولكنا نجد أن الفقه قد خسر عناصر الإغناء تلك في مرحلة تالية نتيجة تداخل مذهب الذرة والمنطق والفلسفة معه ومع أصوله.

والآن هل وفقت أخي القارئ في وضع اليد علىٰ جذور أزمة المسلم المعاصر في جانبها النفسي؟

آمل أن أكون قد وفقت إن لم يكن في تبيان كل جذور الأزمة فعلىٰ الأقل بعضها حتىٰ ننطلق علىٰ ضوء معرفة أزمة الجذور في إصلاح الجذوع.



المراجع والمصادر حسب ورودها في الكتاب

١- صحيح البخاري.

٢- صحيح مسلم.

٣- سنن الترمذي.

٤- سنن الدارمي.

٥- سنن النسائي.

٦- سنن أحمد بن حنبل.

٧- سنن ابن ماجه.

٨- الدكتور بينس. مذهب الذرة عند المسلمين. ترجمة الدكتور عبد الهادي أبو ريدة.

٩- ابن كثير. عماد الدين أبو الفداء. البداية والنهاية. بيروت. مكتبة المعارف. ط٦. ١٩٨٥م.

١٠- الأشعري. أبو الحسن علي بن اسماعيل. مقالات الإسلاميين. تحقيق: محي الدين عبد الحميد. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية. ط٢. ١٩٦٩م.

١١- الشهرستاني. أبو الفتح محمد عبد الكريم. الملل والنحل. القاهرة. مؤسسة الحلبي. (د.ت).

١٢- البغدادي. الفرق بين الفرق.

١٣- أبو ريدة. عبد الهادي. النظام.

١٤- الأشعري. أبو الحسن علي بن اسماعيل. الإبانة عن أصول الديانة. تحقيق: الدكتورة فوقية حسين. دار الأنصار. ط١. ١٩٧٧م.

١٥- الرازاي. مناقب الشافعي.

١٦- عمّار الطالبي. عقائد السلف. تحقيق عدة رسائل ومن ضمنها «رسالة الرد علىٰ الزنادقة والجهمية لأحمد بن حنبل».

١٧- التوبة. غازي. في مجال العقيدة: نقد وعرض. بيروت. مؤسسة الرسالة. ط١. ١٩٨٦م.

١٨- الأشعري. أبو الحسن علي بن اسماعيل. رسالة إلىٰ أهل الثغر بباب الأبواب. من ضمن مجموعة رسائل طبعت في استانبول.

١٩- الأشعري. أبو الحسن علي بن اسماعيل. اللمع في الرد علىٰ أهل الزيغ والبدع. تحقيق: الدكتور حمودة غرابة.

٢٠- أبو يعلىٰ. طبقات الحنابلة.

٢١- الذهبي. سير أعلام النبلاء.

٢٢- الأشعري. أبو الحسن علي بن اسماعيل. رسالة الاستحسان في خوض علم الكلام.

٢٣- الباقلاني. التمهيد. عني بتصحيحه ونشره الأب ريتشارد يوسف

مكارثي اليسوعي. ط المكتبة الشرقية. بيروت. ١٩٥٧م.

٢٤- الجويني. لمع الأدلة في قواعد عقائد أهل السنة.

٢٥- الغزالي. أبو حامد محمد بن محمد. الاقتصاد في الاعتقاد. القاهرة. مكتية الحسين التجارية. (د.ت).

٢٦- السبكي. طبقات الشافعية.

٢٧- الرازي. محصل أفكار المتقدمين والمتأخرين من العلماء والحكماء والمتكلمين. تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد. بيروت. دار الكتاب العربي.

٢٨- أبو زهرة. الإمام محمد. أبو حنيفة. القاهرة. دار الفكر العربي. ط٢. ١٩٤٧م.

٢٩- السرخسي. المسيوط.

٣٠- ابن عساكر. تاريخ بغداد.

٣١- الشعراني. الميزان.

٣٢- البزدوي. الأصول.

٣٣- الموفق المكي. مناقب أبي حنيفة.

٣٤- ابن عبد البر. الانتقاء.

٣٥- ابن قتيبة. المعارف.

٣٦- الشكعة. مصطفىٰ. الأئمة الأربعة.

٣٧- الدقر. عبد الغني. مالك بن أنس. دمشق. دار القلم. ط١. ١٩٨٢م.

٣٨- الشافعي. محمد بن إدريس. الرسالة. تحقيق: أحمد شاكر. القاهرة. دار التراث. ط١٩٧٩, ٢م.

٣٩- أبو زهرة. الإمام محمد. الشافعي. القاهرة. دار الفكر العربي. ط٢. ١٩٤٨م.

٤٠- الشافعي. محمد بن إدريس. الأم. بيروت. دار المعرفة. ط٢. ١٩٧٣م.

٤١- الشاطبي. إبراهيم بن موسىٰ. الموافقات. بيروت. دار المعرفة. (د.ت).

٤٢- الشاطبي. إبراهيم بن موسىٰ. الاعتصام.

٤٣- أبو زهرة. الإمام محمد. أحمد بن حنبل. القاهرة. دار الفكر العربي. ١٩٤٧م.

٤٤- الآمدي. سيف الدين أبو الحسن علي بن أبي علي. الإحكام في أصول الأحكام. القاهرة. مؤسسة الحلبي. (د.ت).

٤٥- الغزالي. أبو حامد محمد بن محمد. المستصفىٰ من علم الأصول. مصر. المطبعة الأميرية. ١٣٢٢هـ.

٤٦- داود. محمد سليمان. نظرية القياس الأصولي. الأسكندرية. دار الدعوة. ط١. ١٩٨٤م.

❁ ❁ ❁ ❁

فهرس

الموضوع | الصفحة

